حسن أبوبكر المغربي

ميراث الذاكرة

مقاربات نقدية في تاريخ ليبيا



مكتبة الكون

طرابلس - القاهرة

ميراث الذاكرة

"مقاربات نقدية في تاريخ ليبيا"

⊙ اسم الكتاب : ميراث الذاكرة مقاربات نقدية في تاريخ ليبيا

⊙ التصنيف : تاريخ

⊙ المؤلف : حسن أبوبكر المغربي

⊙ الطبعة الأولى 43-1444هـ / 2022م

⊙ الإيداع : دار الكتب الوطنية – بنغازي، ليبيا

⊙ رقم الإيداع المحلي : 2 - 2202

⊙ رقم الإيداع الدولي : ISBN 978-9959-926-86-9

⊙ 194ص، 24×17 سم

مكتبة الكون

المدير العام المؤسس : فتحي مختار بن عيسى
لوحة الغلاف : اهداء الفنان علي المنتصر

بريد إلكتروني : mactabat@alkononline.com

فيسبوك : / alkonlibrary

طرابلس : طريق السور بجوار جامع الهوني – الدور الثاني

القاهرة : 4شارع بشار بن برد قرب دار الأرقم، مدينة نصر

فايبـــر : 00218925581491

واتساب : 00201553004878

واتساب : 00218916926470

حسن أبوبكر المغربي

ميراث الذاكرة

"مقاربات نقدية في تاريخ ليبيا"

الناشر

مكتبة الكون

الإهداء

إلى روح أخي:

(علي المغربي)

الذي حارب الإرهاب في مدينتي بنغازي وطرابلس، وتوفاه الله في حادث سير بمنطقة (شبنة) مساء يوم الإثنين الموافق 2020/6/29م رحمه الله وأدخله جنات النعيم.

"إنني أغني للخيانة ولمصرع الرجال وما يلاقونه من عنت ومشقة، إنني أغني للكوارث التي حلّت بليبيا وللعدو الذي كسـرت شـوكته، أغني للجوع والعطش (..) إنني أغني للدول التي وقعت فريسـة للاضـطراب والفوضـى، وتدهور بها الحال وغلبت على أمرها".

ملحمة الحرب الليبية الرومانية، الكتاب الأول، "فلقيوس كوريبوس"

المقدمة

أراني ملزماً، وهذا مما لا أرغب فيه كثيرا، أن أضع مقدمة هذا الكتاب الذي تضمن في الأصل مجموعة من المقاربات النقدية في تاريخ ليبيا، نُشرت منفصلة عن بعضها في مجلات عربية ومحلية في مناسبات عدة خلال السنوات الماضية، ونظرا لاختلاف موضوعاتها وتباعدها من الناحية الزمنية (الكرونولوجية)، لم يخطر لي جمعها في كتاب واحد، لولا إلحاح بعض الأصدقاء، أخص بالذكر منهم: أحمد سعيد الجملي الذي شجعني على إعادة نشرها وتقديمها للقراء بين دفتي كتاب، والإعلامي: أحمد محمد المهدي الذي تجشم عناء قراءتها وأمدني بالكثير من التوجيهات والآراء، ولا يفوتني الفنان التشكيلي ابن مدينة طرابلس: علي المنتصر الذي تفضل مشكورا برسم لوحة الغلاف على سبيل الإهداء، لهم مني جميعا جزيل الشكر والعرفان.

ولقد ناقشتُ في الدراسة الأولى المسماة "الكتابة التاريخية، قراءة في كتاب (عمر المختار الحقيقة المغيبة)" لصاحبه يوسف عبدالهادي الحبوش، جملة من المغالطات التاريخية التي آثارها الباحث، ولم أدخر وسعًا في تفنيد الأقوال الاعتباطية الزائفة، وبعبارة موجزة (خبيثة المقصد) التي جاء بها دون أثر لأية دقة تاريخية، فضلا عن ذلك، أشرت إلى عدم تمكن الباحث من أدواته المعرفية سواء فيما يتعلق بطرق البحث التاريخي أو الأمانة العلمية، وضربتُ عدة أمثلة لها، ومن المؤكد،أن مثل هذا الاتجاه، الذي يعالج وقائع الماضي بطريقة ارتجالية يؤذى الحقائق ويشوه التاريخ، ولهذا السبب ولغيره من الأسباب آليت على نفسي التصدي لمثل هذا النوع من الكتابة الآثمة، لأن التاريخ قبل كل شيء هو علم لا أكثر ولا أقل بحسب تعبير ج.ب.بيري.

وبالنسبة للدراسة الثانية، فقد سبق نشرها في مجلة ذوات الإماراتية العدد 22 لسنة 2016م في ملف "المجتمع المدني بين الإسلام والحداثة" تضمنها تقديم بشـأن مفهوم الحكم في الإسـلام، يتبعه أقوال بعض الفقهاء أمثال: الرازي والماوردي والتفتازاني الذين قاموا بتكريس فكرة (وجوب طاعة الحاكم المتغلب)، وهي فكرة تمنح الحاكم الحرية المطلقة في إدارة الدولة عبر الجمع بين السلط (التشريعية والتنفيذية والقضائية)، وتطرقت إلى مبدأ الشورى في الإسـلام الذي يختلف عن الديمقراطية، فالأولى تخص فئة معينة، وهي غير ملزمة للحاكم في كثير من الأحيان، أما الثانية فيشـترك فيها جميع الناس، ثم تناولتُ بالتحليل والمقاربة المنهاجية موضـوعة الحداثة والمجتمع المدني في ليبيا، مشيرا إلى جملة من الإشكالات الثقافية والمعرفية المتمثلة في إعادة إنتاج المنظومة القيمية التقليدية المرتبطة بالبَدونة والقبلية باعتبارهما قوة فاعلة في جميع نواحي الحياة الاجتماعية والسـياسـية، مما عطّل محاولات التحديث وتطوير المجتمع الليبي ثقافيا وقيميا وأخلاقيا لعدة عقود من الزمن، إذ إن النظام القبلي رغم أهميته في بناء العلاقات الاجتماعية إلا أنه يتناقض تماما مع روح الدولة المدنية ومتطلبات الديمقراطية، بل يزيد في تجزئتها وتفتيتها، فالتجارب التاريخية أثبتت أن المجتمعات التي ترتبط فيها الأحزاب بالنظام القبلي أفضت معظمها إلى الفشـل، وخير مثال على ذلك، ما حدث في ليبيا منذ إعلان استقلالها حتى الوقت الراهن، حيث كان الولاء القبلي وليس الكفاءة هو المعيار في تولي المناصب سواء في حكومات العهد الملكي المتعاقبة، أو فيما يعرف بنظام التصعيد في العهد الجماهيري، الأمر الذي أدى إلى خلق مؤسسات هزيلة ومتواطئة.

أما الدراسـة الثالثة الموسـومة "في مواجهة الموت، انتشـار بعض الأوبئة عبر التاريخ، دولة ليبيا أنموذجا" التي نشـرت مؤخرًا في كتاب جماعي تحت عنوان: (عندما يكون الابتلاء مصـدرا للفضـائل)، منشـورات جامعة محمد الأول

بالمملكة المغربية، فقد انصرفت إلى تقصي تاريخ الجوائح والأوبئة الفتاكة في ليبيا منذ العصور القديمة إلى العصر الحديث، والإلمام بعلائقها المتشابكة، مما اقتضى عدة منهجية متنوعة الروافد، كالاستعانة بالوثائق، على الرغم من ندرتها وتفرقها بين المصادر التاريخية، واستنطاق كتب الرحالة والقناصل الأجانب الذين زاروا ليبيا في فترات تاريخية متباينة، حيث خلفت هذه الأوبئة أعدادا كبيرة من الموتى، الأمر الذي جعل الناس يضطرون للهجرة صوب الدول المجاورة مثل تونس ومصر والجزائر والسودان، فحرمت البلاد من بعض أبنائها الأكفاء، وزاد من سوء الحال، تردي الأوضاع الصحية والاقتصادية والسياسية أيام كانت ليبيا إيالة تابعة للدولة العثمانية، ثم في الحقبة الاستعمارية الإيطالية، بالإضافة إلى تجارة القوافل وعبورها المتواصل للصحراء دون مراقبة صارمة للحدود، وهي عوامل ساهمت في انتشار الأمراض والأوبئة في ليبيا على الدوام.

وانصرفت الدراسة الرابعة إلى مناقشة ما جاء في كتاب "الأمازيغ عبر التاريخ نظرة موجزة في الأصول والهوية" لصاحبه الدكتور: العربي عقون، وهو كتاب صغير الحجم صدر في الرباط عام 2010م، يتناول تاريخ الأمازيغ منذ عصر الفراعنة حتى استقلال دولة الجزائر، ولكن بنظرة انتقائية متحيزة تماما للبربر، وقد نوهت إلى جملة من الأغلاط التاريخية التي وقع فيها الباحث مثل الادعاء بأمازيغية القبائل الليبية زمن الفراعنة، واحتلال شيشنق لمصر ومسألة رأس السنة الأمازيغية، وعلاقة البربر بالمسلمين أيام الفتوحات الإسلامية، وحكاية الهجرة الهلالية واستعراب دول المغرب.

في حين تعرج الدراسة الأخيرة المسماة بـ "إقليم قورينايئة" حول المستعمرات الإغريقية في ليبيا وأهم معالمها التاريخية، إلى اسم (قورينايئة) الذي ينحدر من الكلمة اللاتينية Cyrenaica وهو أول مكان عرفه الإغريق في قارة إفريقيا باعتراف هيردوتس، وقد أوضحتُ أن معرفة الإغريق لليبيا كانت

شبه مجهولة قبل تأسيس قوريني وتنحصر في أشعار هوميروس، مثيرا في ذلك، إغفال الترجمات العربية للفقرات التي ذكرت فيها ليبيا، وهو أمرٌ مستغرب من الإخوة العرب الذين تصدوا لترجمة الأدويسة. ثم تعقبت بالدراسة والتحليل الأركيولوجي المدن اليونانية الخمسة المعروفة بـ(البنتابولس) معززا كلامي بإيراد أهم المعالم الأثرية في كل مدينة، وهو ما قادني في نهاية المطاف إلى ذكر أشهر أعلام قورينائية في الفلسفة والدين والأدب.

ختامًا، إن هذا الكتاب، هو محاولة متواضعة لا تدعي الكمال، ولقد ألتزمتُ فيه (دون ادعاء) باستشارة المصادر الوثيقة والرجوع إليها حسب المنهجية المتبعة، مما تطلب كثيرًا من الجهد، ذلك أن الكتابة التاريخية مهمة شاقة مثل العمل في المناجم بحسب تعبير إيمانويل لوروا، ونسأل الله العلي القدير أن يوفقني إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

حسن المغربي

خريف عام 2020م

عن الكتابة التاريخية
قراءة في كتاب (عمر المختار الحقيقة المغيبة)
للباحث يوسف عبدالهادي الحبوش

"نعم، قد ظهر الكثير من الخلل وانتشر من المناكير ما اشتمل على أقبح العلل، حيث انتدب لهذا الفن (التاريخ) من اشتمل على التحريف والتصحيف لعدم اتقانهم شروط الرواية والنقل، وائتمانهم من لا يوصف بأمانة أو عقل، بل صاروا يكتبون السمين مع الهزيل والمكين مع المزلزل العليل"

✍ شمس الدين السخاوي

تلويحة البدء:

لا جَرَمَ أن الكتابة التاريخية تتطلب ذخيرة معرفية وســـعة اطلاع على جميع المعارف والعلوم الإنسانية، فضلا عن التمكن من إواليات الكتابة والتدرب على أســـاســـيات المنهج العلمي، فهي تحتاج كما يقول ابن خلدون "**إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحُسن نظرٍ وتثبّتٍ يُفضيان بصاحبهما إلى الحق ويُنكّبان به عن المزلات والمغالط**"[1] ومن المؤسـف، يلاحظ (بعد انتفاضة فبراير) كثير من البحاث الليبيين يُهرعون إلى اقتحام مجال التأليف في كتابة التاريخ ولمّا تحقق فيهم مؤهلات ومقومات الكتابة التاريخية، فيأتي ما يكتبون باديا عوارُه على الصعد المعرفية والموضوعية والمنهجية كافة، ومن هذه الكتب نذكر على ســـبيل المثال: (زمن المملكة) لمحمد المفتي عام 2012م وكتاب (عمر المختار) الذي صدر حديثا بالقاهرة وهو موضوع هذه الدراسة.

كتاب (عمر المختار الحقيقة المغيبة) لصاحبه يوسف عبدالهادي الحبوش، من منشورات مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الأولى عام 2017م، يتألف هذا المؤلف من 560 صفحة من القِطع المتوسط، وهو يشتمل على ستة فصول بالإضافة إلى المقدمة والملاحق وقائمة المراجع. وقد جاءت على غلافه صورة بالأبيض والأسود جمعت بواسطة تقنية (الفوتشوب) بين عمر المختار وإدريس السنوسي.

يروم هذا البحث التعريف بهذا الكتاب، وتسجيل بعض الملاحظ المتحصلة من بعد قراءته المتأنية، وسيكون التركيز بالدرجة الأولى على المنهجية العلمية المتمثلة في طرق التوثيق والأمانة العلمية، فالتاريخ وإن " **تتساوى في فهمه العلماءُ والجهالُ**"[(2)] إلا أنه مثل أي فرع من فروع المعرفة يتطلب جملة من المواصفات في المُقدِم عليه، أهمها الموضوعية العلمية التي تُعد من أخطر ما يعوق الكتابة التاريخية.

فصول الكتاب

تناول الباحث في الفصل الأول الموسوم بـ (عمر المختار والسنوسية) ولادة عمر المختار ونشأته بإيجاز وعجالة، لا تضيف شيئا لسيرة شيخ الشهداء في صباه، حيث أفرد له صفحة واحدة! وكان من المنتظر (من خلال عنوان الكتاب على الأقل) التركيز على حياة المختار والبيئة التي نشأ فيها وأثرها في تكوين شخصيته البطولية، لكن الباحث لم يفعل، وإنما انتقل مباشرة إلى تاريخ الدعوة السنوسية، وتكلم عن مؤسسها الكبير، ودوره في تأسيس ما يعرف بالزوايا، وفي معرض حديثه عن مسيرة (ابن السنوسي) الدعوية، أكد الباحث أن من أهم الأسباب التي دفعت ابن السنوسي لمغادرة مكة هو انزعاجه من الاحتلال الفرنسي لبلاده الجزائر[(3)]، وفي الواقع، هناك عدة أسباب لم يذكرها، منها ما أشار إليه أحمد صدقي الدجاني بقوله:" **نجد أكثر من واحد من مؤرخي**

السنوسية يذكرون أن نجاحه في دعوته حرك ضده عداوة شيوخ مكة وعلمائها الذين كانوا متضايقين لمخالفته إياهم، وقوله بالاقتصار على اتباع الكتاب والسنة"[4]، وهذا سبب وجيه، فكيف يُرحب بشيخ يدعو إلى فتح باب الاجتهاد ومخالفة آراء الفقهاء بأرض الحجاز! وبالتالي، فمن الطبيعي أن يُهاجم ويرمى بالضلال، ومن جراء مخالفته تلك، لقد هوجم (الشيخ السنوسي) في مصر، فحينما وصل إلى القاهرة رأى بعض علماء الأزهر في دعوته (وكان بينهم الشيخ حسن العطار) **"خروجا عن المألوف وجرأة لم يعهدوها، فانتهزوا فرصة (...) انتقاده لحكومة الباشا في القاهرة محمد علي وللحكومة العثمانية، وطلبوا من طلاب العلم والمستمعين لآرائه الابتعاد عن حلقاته لأنه يبتدع في الدين، ويتطرف في آرائه"**[5]، وقد سجل لنا الإمام محمد عبده محاولة قتله على يد الشيخ محمد عليش**"ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي (والد السنوسي صاحب الجغبوب) كتب كتابًا في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية، وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة، وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين، فعلم بذلك أحد مشايخ المالكية، وكان المقدم في علماء الجامع الأزهر الشريف، فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه، (...) وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة، وارتكاب جريمة باسم الشريعة، هو مفارقة السنوسي للقاهرة"**[6]، وهناك أسباب أخرى (أغفلها الباحث) ذكرها العديد من المؤرخين تتطلب الموضوعية العلمية الإشارة إليها ولو خطفًا، وما هو جدير بالذكر أن معظم المراجع المتاحة الآن تتفق على أن (ابن السنوسي) لم يكن مرحبًا به في معظم الأقطار العربية مثل الحجاز ومصر والمغرب والجزائر، فاضطر إلى اللجوء إلى برقة من أجل نشر دعوته، وفي هذا السياق يقول الدكتور رأفت الشيخ **"فترك الحجاز (يقصد**

ابن السـنوسـي) عام 1840م عائدًا إلى الجزائر عن طريق مصـر (واحة سـيوة)، فبرقة وطرابلس، ولكنه خشـي الفرنسـيين الذين احتلوا الجزائر عام 1840م، فعاد إلى برقة حيث نزل بالجبل الأخضـر ليتخذ منه مقرا لدعوته"(7) أما الدافع الرئيس الذي جعل السـنوسـي الكبير يفكر في الذهاب إلى الجزائر بعد مغادرة الحجاز، ليس بسبب انزعاجه من الاحتلال الفرنسي كما لوّح إلى ذلك الباحث، وإنما من أجل الاجتماع بأحد أولاده، وهذا ما صـرّح به السنوسي الكبير نفسه في إحدى مراسلاته قائلا: **"نحن متوجهون إلى جهة المغرب، عندنا ولد هناك مرادنا نجتمع به"**(8). ومن ثم ينطلق الباحث في الحديث عن صوفية (ابن السنوسي) وعلاقة سكان برقة بالدعوة السنوسية، يظهر في كلامه اقتباس من كتاب الرحالة الفرنسي جورج ريمون المسمى (من داخل المعسـكرات التركية العربية)، مشـيرًا إليه في الهامش على أنه نُقل من النسـخة الفرنسـية مباشـرة، وكان من الواجب أن يذكر بيانات الكتاب باللغة الفرنسـية أو يذكر اسـم المترجم الذي اعتمد عليه، خاصـة أنه سـجل ملاحظات سـلبية على ترجمة محمد عبدالكريم الوافي الموسـومة (من داخل معسـكرات الجهاد في ليبيا)، واتهم صـاحبها بالتحريف والإضـافة والحذف والعبثية دون التدليل على ما يقوله، وفي هذا المقام سـنقوم بتفنيد دعواه من أجل التاريخ أولًا، ومن أجل أسـتاذنا الجليل الذي تعلمنا على يديه الأمانة العلمية أثناء تدريسـه لمناهج البحث التاريخي بالجامعة. أما بالنسـبة لتغيير عنوان الكتاب، لقد درج كثير من المترجمين على هذه العادة، أشـهرهم الأسـتاذ منير البعلبكي صـاحب قاموس المورد، فقد ترجم كتاب برتراند راسـل (انتصـار السعادة) إلى (كيف تكسب السعادة) وكتاب لورا فاغليري (تفسير الإسلام) إلى (دفاع عن الإسلام) وغيره من المترجمين فعلوا ذلك، عرب وأجانب، وبالمثل، فإن الدكتور الوافي طالما اعتاد قرّاؤه في جميع ترجماته تقريبًا بتغيير العناوين بحسـب طبيعة الموضـوع، فعلى سـبيل المثال: قام بتغيير عنوان كتاب شـارل فيرو من (الحوليات

الطرابلســية) إلى (الحوليات الليبية)، وذكر في المقدمة أن الذي حمله على ذلك: "**هو أن الغربيين، بل وحتى الأتراك أنفسهم، كانوا حتى مطلع هذا القرن، يجعلون تسـمية (طرابلس الغرب) مرادفة وبديلة لتسـمية (ليبيا) بمفهومها الحديث**"[9] وفعل الشــيء نفســه مع كتاب (قوريني خلال العهد الملكي الباطي) لفرنسوا شامو، ترجمه تحت عنوان (الإغريق في برقة الأسطورة والتأريخ)، وكتاب البارون الفونص روســو (الحوليات التونســية لمحة تاريخية حول إيالة تونس) ترجمه إلى (الحوليات التونســية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنســا للجزائر)، ومن هنا، تنتفي فرضــية الباحث بشــأن تواطؤ الدكتور محمد الوافي ونظام القذافي كما أشار إلى ذلك في أكثر من مقام، فالذي يعرف المؤرخ الليبي الكبير محمد عبدالكريم الوافي، وقرأ إنتاجه الغزير قراءة جيدة، لا يمكن أن يطعن في أمانته العلمية بأي حال[10]. أما فيما يتعلق بتغيير كلمة السـنوسـية ووضـع بدلًا عنها أعيان أو قبائل، فإن السـياق التاريخي يفرض على المترجم في كثير من الأحيـان ترجمـة روح النص، وليس الترجمـة الحرفيـة، والوافي يعلم من خلال الترجمـة أن الرحـالـة الفرنســي لا يفرق بين ألفـاظ (المجاهدين والأعيان والقبائل) وبين لفظ (السـنوسـية)، وإليكم إحدى المآخذ التي ذكرها الباحث وطعن من خلالها في أمانة المترجم: صـورة وضـعها الرحالة جورج ريمون يظهر فيها بعض المشايخ: كَتَب في أسفلها باللغة الفرنسية: (عزيز بي قائد القوات العثمانية عند بنغازي يحيط به شــيوخ الســنوســية)، ترجمها الوافي (عزيز بي قائد القوات العثمانية عند بنغازي يحيط به أعيان المدينة)، وواضح عبر سياق النص أن ريمون يريد (بشيوخ السنوسية) أعيان وشيوخ مدينة بنغازي أولئك الذين يقاتلون تحت راية السنوسية، وكذلك الصورة الأخرى التي أشار إليها الباحث، فهي أيضًا يظهر فيها بعض مشايخ السنوسية وأعيان بنغازي (باعتراف جورج ريمون نفســه) مجتمعين في خيمة عمر منصــور الكيخيا[11] يجوز أن تترجم:(أعيان أو شـيوخ السـنوسـية أو كلاهما معا)، لا يوجد هنالك

إشــكال، لكن يبدو أن الباحث يرى بأن كل المجاهدين في برقة، إما أن يكونوا ســنوســيين أو يقاتلوا من أجل الســنوســية، يُلاحظ ذلك في معرض حديثه عن المجاهدين الليبيين في برقة أمثال: بورحيل، والفضــيل بوعمر، والعبار، وعمر المختار، وصــالح الأطيوش وهذا ليس صــحيحًا، فهؤلاء لم يقاتلوا من أجل الســنوســية وإنما من أجل الدين والوطن، والدليل على ذلك أنهم رفضــوا حل المعسـكرات حينما وقعت السـنوسـية اتفاقيات الصلح مع الإيطاليين، وبسـبب قناعة الباحث في أن كل قادة المجاهدين وأعيان المدن في برقة ينتمون للحركة السنوسية عسكريًا، وقع دونما يعلم في مغالط كثيرة، من بينها جعل دور المغاربة الذي يقوده صــالح الأطيوش ضــمن الأدوار التابعة للحركة الســنوســية، مع أن المجاهد صالح الأطيوش لم يكن معينًا في قيادة الجهاد من قبل السنوسية، ولم يكن نائبًا لهم كما زعم الباحث في أكثر من مقام[12]، وإنما قبيلته هي التي أولته الثقة في قيادة الدور، فمن المعروف أن دور المغاربة الذي يمتد على طول (برقة البيضــاء) جميع أفراده من قبيلة المغاربة، ولم يكن خاضــعًا في أي وقت لعمر المختار، وإن كان قد تلقى الدعم والمســاعدة من شــيخ المجاهدين[13] وكان قائد الدور صــالح الأطيوش من الزعماء الرافضــين لجميع الاتفاقيات بين السنوسية والحكومة الإيطالية، لأنه كان يرى أن هذه الاتفاقيات تسعى إلى إنهاء المقاومة في برقة، ومن أجل ذلك تعرض للاعتقال من قبل الحكومة السـنوسـية، وكاد يحكم عليه بالإعدام لولا تدخل رجال قبيلته الذين قاموا بإخراجه من المعتقل هو وزميله المجاهد الفضيل المهشهش[14]، ثم تطرق الباحث في نهاية الفصـل الأول إلى الحديث عن علاقة عمر المختار بالسيد المهدي السـنوسـي، نســب من خلاله بعض الأقوال إلى المرويات المتواترة في تراث الطريقة الســنوســية دون الإشــارة إلى مصــدرها! وهذا غير مقبول في دراســة التاريخ، فالتراث الشــفهي oral tradition رغم تضــاؤل اســتعماله منذ أن نشــأ التاريخ الأكاديمي، وأصــبح التركيز يقتصــر على الكلمة المدونة بدلًا من المنطوقة، فإنه

يجب أن يستعمل بعد نقده وغربلته جنبا إلى جنب مع المصادر الأصلية، فمن السذاجة الافتراض بأن الشهادة الشفهية وحدها تمثل الخلاصة الصافية لتجربة الماضي على حد قول جون توش[15]. وفي أحيان كثيرة يغفل الباحث ذكر المصادر أو الإشارة إليها، مثال ذلك، حينما تحدث عن عدد لزوايا السنوسية عام وفاة السيد المهدي 1902م، وبعدئذ نراه يتخبط هنا وهناك، أحيانًا يذكر وثيقة تنص على تعيين أحد المجاهدين ليس لها علاقة بالموضوع، ثم يعود إلى عمر المختار، ويقتبس فقرة ينسبها إلى الرحالة جورج ريمون دون ذكر عنوان الكتاب ورقم الصفحة في الهامش، وحينما بحثتُ عن الفقرة المقتبسة في ترجمة الدكتور الوافي، وجدتُ إضافات كثيرة بها، مع أن الباحث يضعها بين قوسي الاقتباس، والأمانة العلمية تتطلب بداهة وضع الاقتباس كما هو، فالنص المُقتبس (كما يقول الوافي) هو شيء مقدس في علم التاريخ[16]. وإليكم الفقرة التي استخدمها الباحث للتدليل على ثقافة شيوخ السنوسية **"لقد تحدثت طويلا مع بعضهم، وبدوا لي عالمين إلى حد كبير بالنقاط الأساسية في السياسة الأوروبية، مثل الحلف الثلاثي، والو فاق الثلاثي. لقد كانوا علماء في تاريخهم وتاريخ البلاد العربية والجغرافيا والدين، ولكنهم كانوا مشغولين بالسياسة العربية، وفيما عدا ذلك فهم أناس مثقفون ويمقتون السلوكيات الخرافية للطوائف الأخرى"**[17]..في حين الفقرة الأصلية الموجودة في كتاب جورج ريمون ترجمة الوافي ما يلي:**"لقد حكيتُ طويلا مع عدد كبير من هؤلاء المشايخ والأعيان (يقصد مشايخ السنوسية وأعيان مدينة بنغازي)، فبدوا لي على إلمام وافٍ، وعلى اطلاع كبير على تيارات السياسة الأوروبية الحالية، وإن كنتُ قد لاحظت عليهم اهتمامهم الخاص بكل ما له علاقة بمصائر البلدان العربية وعلى الخصوص ما يمس مستقبل ليبيا"**[18]، ثم يختم الحبوش الفصل الأول بالحديث عن وظيفة شيخ الزاوية، مؤكدا فيه " **أن عمر المختار لم يكن معلما للصبيان في فترة**

الحرب الإيطالية الليبية على الإطلاق، بل كان (شـيخ زاوية)[19] ونحن بدورنا نستغرب هذا القول، فبغض النظر عن أسلوب التعميم دون التخصيص في الكتابة التاريخية، فإن من مهام شـيخ الزاوية كما جاء لدى العديد من المؤرخين هو التعليم أو الإشـراف عليه، فقد ذكر الدكتور نقولا زيادة عنها قائلًا **"شـيخ الزاوية هو صـاحب الحل والعقد فيها، فهو الذي يعلم أو يشـرف على التعليم"**[20]، وذكر آخرون بعضـا من مهام شـيخ الزاوية مثل قيادة رجال القبيلة في الجهاد، والإشراف على حصاد الزرع وخطبة يوم الجمعة، والمساعدة على الوعظ والتعليم، ناهيك، على أن السيد عمر المختار نفسه لم تقتصر دراسته **"على العلوم الدينية فحسـب، بل تعدتها إلى تعلم بعض المهارات والحرف اليدوية كالنجارة والبناء والزراعة"**[21]، وبالتالي، فلو أظهر لنا المخرج العالمي مصطفى العقاد شيخنا المختار وهو يحرث الأرض، لما انزعج أحد من الصورة التي يقدمها، إذ إن مقتضيات الدراما تتطلب في غالب الأحيان اختيار مهنة أقرب إلى الإنسـانية، ولا شـك، أن مهنة تعليم الصـبيان التي نالت رضا العقاد تُعد الخيار الأمثل في هذا الصدد، وقد جاء فيلم أسد الصحراء تحفة فنية عالية، ولم يكن هذا العمل المائز بأي حال من الأحوال موجهًا سيا سيًا كما زعم الباحث في مقدمة الكتاب، حتى لو كان من إنتاج نظام سـبتمبر، وفي الحقيقة (وهذا ليس دفاعا عن حقبة سـبتمبر) أن فيلمي عمر المختار والرسـالة من أهم الأعمال الفنية التي خلّفها النظام السابق دون منازع.

وفي الفصـل الثاني، يحاول الباحث الحديث عن الغزو الإيطالي لليبيا، بدءا من إعلان الحرب على تركيا إلى توقيع صلح أوشي لوزان، وبداية المقاومة الليبية المسلحة التي أعلنها السيد أحمد الشريف، ودور السنوسية في الجهاد، ثم تحدث عن ترجمة إبراهيم بن عامر لكتاب غراسياني (برقة الهادئة) ووصـفها بـ (أكبر عملية عبث في كتاب تاريخي) وقد نوه بالترجمة الثانية المسـماة (برقة المهدأة) للسـيد محمد الفرجاني، وبعدئذ تطرق إلى رحيل السـيد إدريس إلى

مصر من أجل العلاج، وتعرضه للاغتيال بالسم مرتين، وفي هذه الأثناء أثار قضية علاقة عمر المختار بالسنوسية في (أوهام كُتاب)، حيث نفى ما ذكره بعض كتاب حقبة سبتمبر (على حد قوله) فيما يتصل بفرضية هجر المختار للسيد إدريس السنوسي أثناء الاتفاقيات بين السنوسية والإيطاليين، مؤكدًا غير مرة على مناصرة عمر المختار للسنوسيين على الدوام[22] مع أن عمر المختار رغم ارتباطه الوثيق بالدعوة السنوسية منذ بداية حياته، إلا أنه **"لم يكن أداة طيعة في يد من يرون أنفسهم رؤساء له"**[23] وخير دليل في ذلك المفاوضات التي حدثت عام 1929م التي قبلها حسن الرضا وخرج مع أتباعه وكونوا معسكرًا تابعًا للإيطاليين قرب مراوة، أطلق عليه المجاهدون اسم (دور الدقيق) إشارة إلى أن هذا الدور لا عمل له إلا تلقي المرتبات والتموين من الإيطاليين، وفي المقابل أعلن المختار في جريدتي الأخبار والمقطم المصريتين استئناف الجهاد في برقة، ووقع البيان باسم (قائد القوات الوطنية عمر المختار)، وهذا يؤكد تنصل شيخ الشهداء من التبعية الاسمية للسنوسية التي كانت موجودة قبل تاريخ البيان[24]، وإلى جانب ذلك، يؤخذ على الباحث في هذا الفصل عدة أشياء منها: عدم الالتزام بالتسلسل التاريخي وشرح الأحداث التاريخية بموضوعية خالية من التحيز للحركة السنوسية على وجه الخصوص، غياب الأمانة العلمية بشأن الاقتباس، تكرار ما جاء به الكتاب السابقون، استخدام وثائق ليست لها علاقة بالأحداث التي يكتب عنها، والأمر الأخير، وهو الأهم، محاولة الحط من قيمة جميع الكتب المطبوعة في العهد السابق، وفيما يلي سأتحدث عن هذه المآخذ بشيء من التفصيل.

يطالعنا الباحث منذ بداية الفصل الثاني بالحديث عن نبوءة الشيخ السنوسي المتعلقة بالغزو الإيطالي لليبيا دون الإشارة إلى المراجع، علما بأن هذه الحادثة، ليست من النبوءات[25] وقد ذكرها أكثر من كاتب أمثال السيد أحمد الشريف، ومحمد شكري وغيرهما، ولم تأتِ بالطريقة التي ذكرها الباحث، كل ما في

الأمر، أن هناك حديثا دار بين السنوسي الكبير والشيخ محمد بللو الدرناوي عام 1854م، توقع فيه (ابن السنوسي) إغارة **النابلتان** (أهل نابولي) على طرابلس الغرب وأخذها مرة ثالثة، وبغض النظر عن صـــحة الرواية، فإن الباحث زاد فيها وتفنن في طرحها على طريقة القصـــاص، كل ذلك من أجل المغالاة والتمجيد وإظهار السنوسي الكبير كما لو أنه أحد الأنبياء، وإليكم الرواية كما جاءت في كتابه: "**فقد تواتر بين الناس عامة، وبين منتسبي الطريقة السنوسية خاصة حديث الســـنوســـي الكبير الذي وجهه لتلاميذه غير مرة، قبل هذا الغزو بسبعين عاما، محذرا من احتلال (النابلتان) الذي يوشك أن يحدث لهذه البلاد، لقد أخبر السنوسي الكبير أتباعه فور استكماله لبناء زاوية البيضاء ســـنة 1843م أن الغزاة من النابلتان ســـيربطون بغالهم فيها. كما وجه الســـنوســـي إلى أتباعه في مناســـبة أخرى ســـؤالا: ماذا أعددتم ليوم غزو النابلتان لبلادكم؟ فرد أحد الحاضـــرين قائلا: أعددنا لهم هذا. وكان ممسكا بجراب من ملح البارود في يده، فرد ابن السنوسي قائلا: هيهات هذا لا يكفي**"[26] الأمر المضحك حقا، أسلوب التعميم في مثل (فقد تواتر بين الناس عامة)، فأي تواتر الذي يتحدث عنه الباحـث؟ وأغلب الناس لا يعلم عن السنوسي الكبير إلا النزر اليسير. ومما هو جدير بالملاحظة جهل الباحث لمناهج البحث والكتابة التاريخيـــــة عمومًا، ففي جميع فصـول الكتاب لم يلتزم بطرق التوثيق العلمي، ومن ضـــمنها الالتزام بالنص المقتبس، ولا أعلم في حقيقة الأمر، هل هذا يرجع إلى جهله بأســاليـــــب التوثيق، أم أنه تعمد ذلك من أجل التدليس والتزوير، وعلي أية حال، إليكم أمثلة مختارة من بعض فصول الكتاب، ســـنذكر الفقرة الأصـلية أولا، ثم الفقرة المقتبســـة، وبعدئذ ســـترى أيها القارئ بنفسك تصرف الباحث في النصوص المقتبسة إما بالتحوير أو بالحذف والزيادة:

يقول أنجيلوا ديل بوكا:" **وخلال أبريل ومايو من ســـنة 1929م طورت ســـرا المفـاوضـــات بين زعمـاء العصـــاة ووفـد من الأعيـان الموالين**

للحكومة"[27]

اقتباس الباحث:" **وخلال أبريل ومايو طورت المفاوضـات بين المختار ووفد من الأعيان الموالين للحكومة"**[28]

يذكر اتيلو تروتسي:" **إن حادث غوط الساس قد رفع إلى منزلة الإعجاب والعرفان اسـم موقع اقترن حتى ذلك الوقت بالاجتماع المهين الذي عقده وزير إيطالي قبل العهد الفاشستي مع زعيم السنوسية"**[29]

اقتباس الباحث: **" هذا الحادث قد رفع إلى منزلة الإعجاب والعرفان (اسم موقع) اقترن حتى ذلك الوقت بالاجتماع المهين الذي عقده وزير المستعمرات الإيطالية مع زعيم السنوسية إدريس"**[30]

يذكر محمد طيب الأشهب على لسان عمر المختار: **"ثقوا أني لم أكن لقمـة طائبة، يسـهل بلعها على من يريد، ومهما حاول أحد أن يغير من عقيدتي ورأيي واتجاهي، فإن الله سـيخيبه، ومن (طياح سـعد) إيطاليا ورسـلها هو جهلها بالحقيقة، وأنا لم أكن من الجاهلين والموتورين فأدعي أنني أقدر أعمل شـيئا في برقة، ولسـت من المغرورين الذين يركبون رؤوسـهم ويدعون أنهم يسـتطيعون أن ينصـحوا الأهـالي بالاستسلام، إنني أعيذ نفسي من أن أكون في يوم من الأيام مطية للعدو وأذنابه"**[31]

اقتباس الباحث: **"ثقوا أنني لن أكون لقمة سائغة، يسهل بلعها على من يريد، إنني أعيذ نفسـي، من أن أكون في يوم من الأيام مطية للعـدو وأذنابه"**[32]

يذكر الجنرال غرسياني على لسان عمر المختار: **"لا تدعوني عاصيا متمردا لأنني لم أكن قط قبل اليوم خاضـعا لسـلطة الحكومة، بل إنني بالأحرى ناضلت دائما، إذ إن الدين يوصيني بذلك"**[33]

اقتباس الباحث: **"لا تلقبوني بالعا صي، لأنه لم يسبق لي أن ا ستسلمت للحكومة من قبل، فأنا لم أتوقف عن محاربتها لأن ديني يفرض علي ذلك "(34)**

يقول اتيلو تروتسـي **" لقد توقعنا حركة الثورة التي كانت تعد لها (المقاومة) بأساليب الختل"**[35]

اقتباس الباحث:**"لقــد توقعنا حركة الثورة، التي كانت تعــد لها (السنوسية) بأساليب الختل"**[36]

- يقول جورجو روشا **" كان يعرض مقابل وقف المقاومة المسلحة وقبول السيادة والوجود الإيطاليين الاعتراف بالتنظيم (المقاومة) بجميع هيآته ومهامه التقليدية**[37]

اقتباس الباحث**" يعرض مقابل وقف المقاومة المسلحة وقبول السيادة والوجود الإيطاليين، الاعتراف بالتنظيم (السـنوسـي) بجميع هيآته ومهامه التقليدية**[38]

كما هو واضـح في الفقرات السـابقة يوجد حذف وتحوير وزيادة مثل (إدريس) و(المختار) و(السـنوسـية) وغيرها، كان يجب على الباحث، والحالة هذه، أن يذكر في الهامش كلمة (بتصرف) مع عدم وضع الفقرات التي تصرف فيها بين قوسـي الاقتباس لأنه؛ لا ينبغي له التصـرف في النص المقتبس، ومن ثم، ينسـب ما جاء فيه إلى صـاحب العمل الأصـلي[39] حتى لو رأى أن النص المقتبس يحتاج إلى معالجة لغوية، كما في كلمة (طائبة)، التي حوّلها إلى (سائغة) في نص الأشهب، ولم يقف عند هذا الحد وإنما بتر نص الأشهب دون أن يسـتعمل القوسـين المُركنين وهي علامة البتر(...) التي يُسـتكمل بها سياق النص المقتبس، ناهيك عن تلاعب الباحث ببعض النصوص التاريخية لكُـتاب إيطاليين مشاهير من أمثال تروتسي و جورجو روشا اللذين نقل عنهما نصوصا

كثيرة، وكان يغير في متنها، كما فعل في لفظ المقاومة، الذي أبدله بكلمة (السنوسية) لديهما. وكانت حجته في كل مرة أن الترجمة غير صحيحة. سواء أكانت ترجمة التليسي أو العجيلي أو غيرها من الترجمات الليبية، وإذا كان الأمر كذلك، لماذا يعتمد على هذه الترجمات ويجعلها من المصادر الرئيسة بما أنها غير بريئة؟ وهناك نماذج أخرى من هذا القبيل، تصرف فيها الباحث كثيرا، لدرجة أنه كان يأخذ من هامش الترجمة وينسبها إلى صاحب العمل الأصلي، مثال ذلك، حينما جاء بتعليق للدكتور محمود علي التائب، مترجم كتاب (الإيطاليون في ليبيا) على أنه من كلام أنجيلوا ديل بوكا[40]، أو حينما جاء بعبارات للصحافي الإيطالي (الدو كيرييتشي) كتب في الهامش: "ترجمة مؤرخ ليبي" دون أن يذكر اسم الكاتب وبيانات المطبوعة التي نقل عنها[41]، ولا يسعنا المجال للأسف لذكر أمثلة عديدة في هذا السياق. وبالنسبة لموضوع تكرار ما جاء به الكتاب السابقون، يُقصد به كلام الباحث حول ترجمة (كتاب برقة الهادئة) للسيد إبراهيم بن عامر، وكلامه في الفصل الأخير حول (كتاب عمر المختار) للشيخ طاهر الزاوي فإننا نقول: إن الحديث عن العيوب الموجودة في هذين العملين فصل فيه القول منذ زمن، ولا فائدة من تكرار الحديث عما ورد فيهما من أخطاء، ألا يكفي القراء ما قام به محمد الفرجاني في (برقة المهدأة)، وردود الشيخ العيساوي في (رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار)؟ أما بالنسبة للترجمة العربية لكتاب (عمر المختار، وإعادة الاحتلال الإيطالي الفاشي لليبيا) التي اضطلع بها عبدالرحمن العجيلي، وقدّم لها الدكتور عقيل البربار، والتي تعد في نظر كثير من البحاث الليبيين من أهم الترجمات العربية الإيطالية، فكلام الباحث عنها لا يؤثر في قيمتها التاريخية، خاصة وأنه لم يأت بدليل واحد على حذف الفقرات، ومواطن التحريف بها[42].

ومن المآخذ الموجودة أيضًا في الفصل الثاني على وجه الخصوص، الاستعمال الرديء للوثائق التاريخية، فما الجدوى من ذكر وثائق تتعلق بسرقة

أبقار وتقسيم أغنام وكثرة فئران أثناء الحديث عن دور عمر المختار، وقيادة الجهاد في برقة! فالاستعمال العشوائي للوثائق، ربما يؤدي إلى اختلاط المعلومات بغير نظام، والخطوة الأولى في استعمال الوثائق ليست في اختبار أصالتها ونقدها فحسب، وإنما في مدى ارتباطها وتأثيرها في سياق الأحداث التاريخية، فكتابة التاريخ مسؤولية كبيرة ينبغي على باحث التاريخ التصدي لها بجدارة. وإذا كان عمل المؤرخ بالأساس هو: تقديم الحقيقة للقراء؛ من خلال الوثائق، وذلك عبر تسجيل ما حدث بالفعل، وبما أن الوثيقة هي المادة الخام التي تساعد في الكشف عما صدر من الناس في الماضي، بل هي صوت الماضي بحسب العبارة المستعارة من ميشال فوكو(43)، وبالتالي كان على الباحث أن يراعي الحد الأدنى في ا ستغلال الوثائق بعد تصنيفها وترتيبها، وفرز الملائم منها، ثم يقوم بطبخها، ومن ثم يقدمها بالأ سلوب الذي يروق له في حيادية كلية بريئة من الانحياز والتكلف.

وفيما يخص طعن الباحث في الكتب المنشورة في حقبة سبتمبر، فإننا نلاحظ عددًا كبيرًا من المراجع التي اعتمد عليها، طُبعت وانتشرت في عهد القذافي، بما فيها ترجمة الفرجاني، وكتاب (ديل بوكا) الذي يعد أكبر مرجع (من حيث الاقتباس) نقل عنه الباحث، وهو من منشورات مركز جهاد الليبيين عام 1995م. ولا يفوتنا قبل أن نختم حديثنا عن الفصل الثاني تسجيل ملاحظة بسيطة عن الحكاية التي أثارها الباحث المتعلقة بأكل الليبيين لحوم البشر أثناء الاحتلال الإيطالي! فلا يمكن لأي باحث في التاريخ ذكر روا ية لا يوجد لها صدى بالمصادر التاريخية الموثوقة أو الموروث الشعبي بالمجتمع، ونحن نستغرب كيف أخذ الباحث برواية مجهولة، أثبتها (دون وثائق) بعض مؤرخي الحركة السنوسية أمثال شكري والعيساوي من أجل تبرير معاهدات الصلح التي أبرمها السنوسيون مع الطليان(44) ونزيد استغرابًا، حينما يقبل مرة ثانية رواية ذكرها السيد: سالم الكبتي عن السيد حسين مازق عن الشيخ: الكيلاني

المغربي[45]! ولم يُسمع عنها خبرٌ ولا ذكرها أحدٌ من المؤرخين الغربيين والعرب على السواء. والسؤال هنا؟ هب أن حادثة الرجل الذي طبخ طفلته الرضيعة، بعد وفاتها بالقرب من مدينة المرج قد وقعت فعلا، وهـــب أن الناس في سنوات المجاعة كانوا يأكلون لحوم الموتى من الآدميين، أليس من المنطق انتشار خبر هذه الوقائع في طول البلاد وعرضها، وتسجيلها في الأزجال والأغاني الشعبية، بل لو كانت هذه الوقائع حدثت بالفعل لتداولها الآباء عن الأجداد خاصة وأنها وقعت في برقة التي يشتهر أهلها بالشعر، وتسجيل كل كبيرة و صغيرة فيما يتعلق بتراث الليبيين. لكن الباحث فيما يظهر لا يتحرى الحقائق ويقبل أية رواية شفهية دون وضعها في ميزان النقد والتمحيص.

وفي الفصل الثالث (الأمير إدريس وإقليم طرابلس) تناول الباحث بشكل انتقائي العلاقة بين الحركة السنوسية وزعماء الجهاد في طرابلس، ناقش من خلالها الخلاف بين صفي الدين السنوسي والسيد رمضان السويحلي، وما نتج من اضطرابات بين صفوف المقاومة، وعرج بعد ذلك إلى مؤتمر غريان واجتماع سرت الذي انعقد في يناير عام 1922م، بين إقليمي برقة وطرابلس الغرب، وكان يمثل الوفد البرقاوي الشيخ صالح الأطيوش، والوفد الطرابلسي يمثله أحمد المريض، وقد اتفق المؤتمرون في هذا الاجتماع الذي عرف فيما بعد ب(ميثاق سرت) على عدة أمور أهمها: إنهاء الخلافات القديمة وتوحيد حركة الجهاد ضد العدو، والسعي لانتخاب أمير مسلم، تكون له السلطة الدينية والمدنية داخل دستور توافق عليه الأمة. ثم تحدث الباحث عن اتحاد القطرين، وانهيار الهدنة بين المجاهدين والقوات الإيطالية، ومن خلال سير الأحداث نكاد لا نعثر على أي شيء يذكر في هذا الفصل يتصل بحياة عمر المختار، فكل ما جاء يتعلق بالسيد إدريس، بدءًا من محاولة إعادة السيد الشريف إلى البلاد إلى لقاء السيد إدريس بوزير المستعمرات الإيطالية (أميندولا) في (غوط الساس) من أجل تنفيذ اتفاقيات الرجمة وبومريم إلى انهيار الهدنة ورحيل الأمير إدريس إلى

مصر، خوفا من إلقاء القبض عليه كما زعم الباحث، لدرجة أننا نشعر أثناء القراءة أن الكتاب الذي بين أيدينا يتحدث عن حياة إدريس السنوسي، وليس عن الحقائق المغيبة في حياة عمر المختار، ولا ننكر أننا التمسنا ميل الباحث في الكتابة عن الحركة السنوسية منذ الصفحات الأولى للكتاب، ومن المؤسف جدًا، تدارك ما سبق، وأن أخذ عليه في الفصلين السابقين من مغالط منهجية، ويمكن تبيان ذلك في النقاط التالية:

- ظاهرة ذكر النصوص التي وضعت بين قوسين ولا مصدر ولا مرجع لها، مثال حديثه عن رسالة السيد بشير السعداوي إلى زعيم هيأة الإصلاح أحمد المريض صفحة 190، وكلامه عن المراسلات بين الأمير إدريس والوزير المفوض الإيطالي بالقاهرة في صفحتي 218/ 223.

- عدم الدقة في تحديد صفحات الكتب التي نقل عنها، مثال ذلك حينما أورد الباحث نصين من كتاب (الإيطاليون في ليبيا) لديل بوكا وأشار إليهما بالهامش على أنهما من صفحة 80، في حين أننا نجدهما في صفحتي 79 و80. وأحيانا يذكر اسم الكتاب بالهامش دون الإشارة إلى رقم الصفحة، ناهيك عن عدم الالتزام بطريقة معينة في التوثيق، وهذا يقودنا إلى نقطة منهجية تتعلق بالكيفية التي يجب أن تورد بها المصادر والمراجع، وتتركز هذه النقطة في ضرورة التزام الباحث بطريقة واحدة يرتضيها في ذكر بيانات مصادر بحثه من البداية إلى النهاية، فعلى سبيل المثال في صفحة 285 هامش رقم 1 ورد على النحو التالي: (غراتسياني، برقة المهدأة، ص 52) . وفي الصفحة ذاتها أورد هامش رقم 3 بالكيفية التالية: (تيروتسي، ص 195، مرجع سابق) وقد تكررت هذه الأخطاء كثيرًا لدرجة تجعلنا نستبعد أن تكون أخطاء طباعية.

- عدم مراعاة التسلسل الزمني للأحداث التاريخية، حيث يوجد اضطراب واضح في عرض الموضوعات، وعدم الحرص في إحكام الصياغة وترتيب المادة، والجنوح إلى المبالغة في تقدير أعداد الجُند، يظهر ذلك، حينما تحدث

عن عمليات حاكم طرابلس الإيطالي (جوسيبي فولبي)، وذكر أنه "**جنّد فيها أزيد من ثمانين ألف مجند محلي، لإعادة احتلال المنطقة الغربية بأكملها**"[46] دون أن يشير إلى المصدر الذي نقل عنه عدد الجنود المبالغ فيه. وهو هنا يذكرنا بطريقة الإخباريين في القرنين الثالث والرابع للهجرة أولئك الذين تحدث عنهم ابن خلدون قائلا: "**ونجد الكافة من أهل العصر، إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريبا منه وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى(...) توغّلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد**"[47].

- عودة الباحث في استدعاء الروايات المحلية، دون الإشارة إليها في الهوامش مثال ذلك: "**قرر الإيطاليون القبض على الأمير إدريس، قد تناهت هذه الأخبار إلى علم السيد الأمير كما تقول الرواية المحلية**"[48]. ولا يقف الباحث عند هذا الحد، وإنما يضع القارئ في مفترق الطرق حائرا، حينما يؤكد من جهة أخرى أن سبب رحيل الأمير إدريس إلى مصر كان من أجل العلاج، وليس (ادعاءً كما يزعم البعض)، ثم ينقل روايات تبرر حادثة السفر من أجل بقاء التنظيم السنوسي وقضية المقاومة ضد الطليان، ولك أيها القارئ أن تختار الذي يروق لك من الأسباب، ومن الغريب جدًا، هو تأكيده على أن نجاة رأس السنوسية كان لصالح حركة الجهاد في ليبيا، وهنا نجد أنفسنا وجها لوجه أمام مغالط تفسير الحدث ليس من خلال تأثيره زمن حدوثه، وإنما عبر الأحداث التي تلت في المستقبل، يظهر هذا جليا بافتراض الباحث في أن"**عدم وجودها (يقصد شخصية إدريس) لن يجرؤ أحد على أن يُقسم جازما بأن الأمور كانت ستسير وفق ما يتطلبه صالح قضية الجهاد ضد الاحتلال**"[49] وقد تناسى أن حركة الجهاد المسلح التي يتحدث عنها انتهت عام 1932م بعد أشهر قليلة من القبض على بطل كتابه (عمر المختار) الذي ظل محاصرا من قبل الإيطاليين، في الوقت الذي تخلى فيه الأمير إدريس عن ساحة الجهاد في ليبيا

وبقى منتظرا في القاهرة، يرقب الأحداث من بعيد، وقد حاول الباحث أن يوهم القراء بأن وجود الأمير إدريس في مصـــر، كان بالاتـــــفاق ســرًا مع عدد من المجاهدين، ومن بينهم عمر المختار، جاعلا منه المرجعية الضـامنة لبقاء قضية المقاومة على قيد الحياة، بحســـب تعبيره، مع أن هناك وقائع تاريخية، تؤكد أن عمر المختار سافر إلى مصر من أجل طلب العون والمساعدة المالية والعسكرية من السيد إدريس، لكن الأخير رفض بسبب ضغوط الحكومة الإنجليزية، وعندما يئس عمر المختار قرر العودة إلى برقة، وكتب رسالـــة مطولة إلى السيد أحمد الشـريف موضــحًا فيها الموقف العســكري في ليبيا، وما دار بينه وبين إدريس السنوسي في مصر، ولقد وقع على هذه الرسالة ثلاثة من كبار قادة المجاهدين وهم: عمر المختار ويوسـف بورحيل وعلي حامد العبيدي(50) ومما جاء في هذه الرســالة "**نخبركم أننا ذهبنا إلى مصــر، ولحقنا بالأمير إدريس وطلبنا منه إغاثتنا ومســاعدتنا بأية صــفه كانت، فقال لنا والله ما نقدر مســاعدتكم بشــيء، ودبروا أنفسـكم (...) ولكن نخبركم بأننا لا نسـلم للعدو، وندافع عن أنفسـنا وديننا ووطننا إلى آخر قطرة من دمائنا**"(51)، ومن المخجل، أن يطعن الباحث في صحة هذه الوثيقة التي لم يذكرها في كتابه، وإنما أشـار إليها في الفصـل الرابع بقوله: "**وبعيدًا عن التخمينات المسطحة واللغط الذي لا أســاس له، والذي حاول بعضــهم تمريره حول هذه الزيارة، باســتخدام (نص) مقتبس من وثيقة شاذة**"(52)، وفي المقابل لم يذكر مــــا وقع بين عمر المختار والسيد إدريس أثناء هذه الزيارة، وإنما اكتفى بالقول "**وبعد مرور شهر واحد فقط من وصــول الأمير إدريس إلى القاهرة، كان عمر المختار قد لحق به، وبقي في ضيافته بمقر إقامته في مصر الجديدة، قرابة أسبوعين، عاد المختار بعدها بالأوامر والترتيبات الجديدة التي تم الاتفــاق عليها بين الاثنين**"(53). والســؤال هنا، لماذا لم يذكر الباحث المصــدر الذي اعتمد عليه بخصوص هذه الزيـــارة؟ وإذا كان ثمة ترتيبات واتفاق بين الزعيمين كما

يؤكد ذلك بعض مؤرخي الحركة السنوسية، أليس من الأحرى أن يتحدث عنها ويذكرها بالتفصيل، ويرد في الآن ذاته على شبهة ا سترجاع المال الذي ا ستلمه الأمير إدريس من الطليان على حساب حركة الجهاد[54] خاصة وأنه طعن في صحة وثيقة تاريخية تزعم خلاف ذلك.

ويُختم الفصل الثالث بالحديث عن احتلال إجدابيا، وهنا لا بد من وقفة قصيرة حول ما ذكر بخصوص العمليات الإيطالية التي قامت باحتلال مناطق برقة البيضاء بعد تدمير المعسكرات المختلطة، نجد الباحث يتطرق سريعًا ـ نقلا عن محمد الطيب الأشهب حرفيا دون الإشارة إليه ـ إلى المعارك التي وقعت في تلك الأثناء منها: موقعة البدين ومعركة الزويتينة[55] ثم ذكر احتلال إجدابيا في سطرين، وهو بهذا يقلل من شأن هذه المعارك، التي تكبد فيها العدو خسائر فادحة، باعتراف المصادر الإيطالية نفسها.

ويتملكنا العجب من عدم ذكره للحملة العسكرية الضخمة التي أعدها بونجوفاني من أجل احتلال مناطق برقة البيضاء، حيث كانت قوات الحملة تتألف من سيارات مدرعة وقوات مشاة يبلغ عددها 3000 رجل، يساندها السلاح الجوي الإيطالي، الذي ألقى أطنانا من الحديد على المجاهدين، والمدفعية الثقيلة التي بدأت بدك المناطق لعدة أيام، حتى سقطت إجدابيا التي عاثت فيها القوات الإيطالية والمرتزقة من الليبيين فسادا وا ستبدادا، وقد بلغ عدد ضحايا مناطق برقة البيضاء بين قتيل وجريح ومفقود حوالي عشرين ألف نسمة بحسب ما جاء لدى محمد عبدالرازق مناع[56] ولعل خير مثال على أهمية هذه المعارك ما ذكره (ديل بوكا) حول محاولة الإيطاليين في الوصول بعد هذه المعارك "**إلى التماس مع قبيلة المغاربة المخيفة التي أظهر زعيمها صالح الأطيوش دائما نفورا عميقا من إيطاليا**"[57]، وبالفعل، فقد أدى احتلال إجدابيا للمرة الثانية إلى حدوث عدة معارك، أهمها ما حصل في (بئر بلال، والبريقة)، "**وهما المعركتان اللتان أصيب فيهما الإيطاليون بخسائر**

فادحة، وتعرضت وحدات من قواتهم للإبادة التامة"(58)، والفضل يعود في هذين المعركتين ليس للحركة السنوسية كما زعم الباحث، وإنما لرجال قبيلة المغاربة باعتراف المصادر التاريخية نفسها(59)، وفي هذا الصدد يقول أستاذ التاريخ الإيطالي جورجو روشا (الذي يعد من كبار المناهضين للحكم الفاشي في ليبيا) أثناء تعليقه على حل المعسكرات المختلطة واحتلال إجدابيا المؤقت، إن القوات الإيطالية **"منيت بهزائم واضحة لا غبار عليها في اشتباكين مع قبيلة (المغاربة) بمنطقة سرت، خسرت فيهما 13 ضابطا و40 جنديا إيطاليا و279 "عسكريا"**(60).

تبقى ملاحظة أخيرة في هذا الفصل، تتعلق بالموضوعية العلمية في الكتابة التاريخية، ينبغي الإشارة إليها، لكوننا لا نعلم، لماذا يصر الباحث على نسب كل البطولات الوطنية في برقة للحركة السنوسية، مع إسقاط تام لدور القبائل والزعامات المحلية، وهذا بطبيعة الحال افتئات على التاريخ من جهة، وعلى دور المجاهدين الليبيين من جهة ثانية، فالباحث يحاول كغيره من مؤرخي الحركة السنوسية تضخيم دور السنوسية في حركة الجهاد وعدم التعرض للأخبار المسيئة الواردة في المصادر التي نقلوا عنها، وفي المقابل نجده يسوق بعاطفة هوجاء النصوص التي تمجد السنوسية وتبرئها من التهم المنسوبة إليها، وهو بهذا العمل، لم يكن منصفا في أحكامه، وقد أساء لكثير من الشخصيات الوطنية في فترة الجهاد وعلى رأسها عمر المختار. فمن أهم شروط الكتابة التاريخية كما جاء في كتاب (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ)، هو أن يكون الباحث **"عالما بطرق النقل حتى لا يُجزم إلا بما يتحققه؛ فإن لم يُحصل له على مُستند مُعتمد في الرواية، لم يُجز له النقل (...) وليكون بذلك محترزا عن وقوع المجازفة والبُهتان والافتئات والعدوان وهو لا يشعر ولا يبصر، وينفر عن تاريخه العقلاء والعلماء والنبلاء والحكماء، ولا يرغب فيه إلا من هو مثله"**(61). وستقف أيها القارئ الكريم بنفسك على هذا التجني في

فصول الكتاب المقبلة.

أما **الفصل الرابع**، فكان عنوانه (الوضع بعد عام 1923م) وقد قاربت عدد صفحاته مئة صفحة، من(235- 328) خمس وعشرون منها جُعلت للوثائق والرسائل والصور المتعلقة بالحركة السنوسية، أما باقي الصفحات لا يتعدى كونها نقولات مطولة من كتب مؤرخي الحركة السنوسية أمثال: الأشهب وشكري والعيساوي، وقد بلغ حجم أحد النصوص أكثر من عشر صفحات، وهو نص الأشهب المقتبس(من صفحة 77 إلى 89)، وقد أشار إليه الباحث على أنه من صفحة واحدة، ولم يذكر الصفحات المتبقية بالهامش! وإذا كان علم التاريخ يعتمد كما هو معروف على الوثائق وأقوال المؤرخين السابقين، فإن هذا لا يعطي الباحث الإكثار من الاقتباسات، ويصبح بعدئذ بحسب تعبير الوافي "**مثل الحائك الذي يصنع ثوبًا من شتاتٍ، من رقع أثواب الآخرين البالية**"[62].وبالإضافة إلى كثرة الاقتباسات، هناك طمس متعمد لبعض الحقائق التاريخية خاصة فيما يتعلق بالاتصالات السرية بين الإيطاليين والأمير إدريس في القاهرة، التي تنازل بموجبها إدريس السنوسي عن الإمارة في ليبيا الموحدة تحت الحماية الإيطالية الثانية. والاكتفاء بإدارة واحات أوجلة وجالو والكفرة، مع ضمان أملاكه ومرتب شهري، لدرجة جعلت من ديل بوكا نفسه يتساءل: " **ألقاب وتشريف مقابل كل شيء**"[63].

لن نُطيل الحديث عن الفصل الرابع من أجل الأسباب التي ذُكرت سالفا، لكننا، سنكتفي بالإشارة إلى ملاحظتين يجب التطرق إليهما: الأولى ما جاء لدى الباحث في احتلال الجغبوب، والثانية: استسلام السيد محمد الرضا.

1- **احتلال الجغبوب**: أثناء الكلام عن احتلال الجغبوب، تفادى الباحث الحديث عن السيد هلال السنوسي الذي ساعد القوات الإيطالية في احتلال واحة الجغبوب يوم 7 فبراير 1926م، مقابل الحفاظ على أملاك الأسرة السنوسية وإعطائهم رواتب شهرية[64] وفي هذا الصدد يقول ديل بوكا: "**دخل**

الرتل الجغبوب دون أن يتعرض لأية مضـايقة. وخلال الإغارة بكاملها لم تطلق رصاصة بندقية واحدة"[65] ومن جهة أخرى، يصوّر الباحث، أن السبب الرئيس في احتلال الجغبوب يعود إلى قوة الجيش الإيطالي، بالمقارنة مع عدد سكان الواحة الذي لا يتجاوز 300 نسمة، نصفهم من النساء والأطفال. ولا ندري في حقيقة الأمر، من أين جاء بعدد سكان واحة الجغبوب في ذلك الوقت؟ يبدو أن الأمر إختلط عليه، ربما كان يقصد عدد دور المجاهدين بقيادة قجة عبدالله، الذي كان ينوى (كما يقول ديل بوكا)عرقلة الطريق أمام الإيطاليين[66]، أما عدد سكان الواحة وقت إغارة الطليان، فقد كانوا يُعدون على الأصابع بحسب تعبير المؤرخ السنوسي محمد الأخضر العيساوي[67] ومهما يكن من الأمر، فالتاريخ لم يسجل للقوات السنوسية شرف الدفاع عن الجغبوب التي احتلها الطليان دون مقاومة.

2ـ **استسلام السيد محمد الرضا:** جاء لدى الباحث تحت عنوان (السيد محمد الرضا في الأسر)، وهو في هذا يريد أن يُوهم القراء بأن وكيل الأمير إدريس (محمد الرضا) لم يستسلم، وإنما وقع في الأسر، بعدما كان يأمل في لحظة مواتيه تُمكنه من المفاوضات على شيء ما بحسب تعبيره، ونحن بدورنا نتساءل، لماذا تعمّد الباحث إغفال المصادر التاريخية بما فيها الوثائق الإيطالية التي تؤكد على استسلام السيد الرضا غير المشروط؟ أشهرها ما جاء في رسالة اتيليو تروتسي إلى (الدوتشي) نذكر منها: "**إنني سعيد بأن أبلغ معاليكم، أنه اليوم عند الساعة الثالثة، وصل إلى إجدابيا محمد الرضا السنوسي، حيث أعلن استسلامه وخضوعه للحكومة أمام قائد المنطقة(...)، لقد قام الرضا بإعلان خضوعه بلا شروط، واضعا نفسه تحت كرم الحكومة"**[68]، وفي هذا السياق يقول جورجو روشا (الذي يعد من كبار الكتاب الإيطاليين الذين كانوا يدافعون عن المقاومة الليبية الشعبية) " **في أواخر عام 1927 بدأ يظهر شيء من التصدع في صرح حركة المقاومة، وذلك عندما قام محمد**

الرضا (...) بتسليم نفسه للسلطات الإيطالية، مقدما الدليل بحركته هذه على المواقف المتناقضة داخل صفوف السنوسيين"[69]، وحول هذه الواقعة يقول جون رايت (وهو باحث انجليزي شهير): " **وسُجل أول نصر للحملة في اليوم التالي عندما سلم محمد الرضا نفسه للإيطاليين بإجدابيا، وعرض الخضوع غير المشروط**[70]. وإذا كان استسلام الرضا خديعة دبرها العدو من أجل نفيه إلى إيطاليا (كما يزعم الباحث ومؤرخو الحركة السنوسية عموما). فلماذا لا يذكر على الأقل مواقف السيد الرضا الوطنية بعد عودته من المنفى؟ أليس السيد الرضا نفسه من "**وافق على إصدار منشور سياسي إلى أهالي برقة يطلب منهم الاستسلام للحكومة الإيطالية والجنرال غراسياني (العطوف الرحيم)، ولم يمانع السيد الرضا (أيضا) في مساعدة الجيش الإيطالي في احتلال واحتي جالو وأوجلة"**[71]، ومن هذا المنطلق، تنتفي فرضية الباحث القائلة "**بوقوع الرضا في شرَك الخديعة"**[72]، ويُرجّح، والحالة هذه، ما ذكرته أغلب المصادر الإيطالية والمحلية حول استسلام السيد الرضا غير مشروط. والجدير بالذكر أن حادثة الاستسلام بالأساس ليس لها أهمية كبرى بالنسبة للحكومة الإيطالية باعتراف وزير المستعمرات الإيطالي نفسه. ويعود ذلك إلى أن السيد الرضا المعروف بضعف الإرادة لم يكن في نظر الإيطاليين الزعيم الفعلي لحركة الجهاد في برقة.

وقبل مغادرة الفصل الرابع يحسن التنبيه إلى أننا لا نريد بهذا الحديث إنكار دور السنوسية في المقاومة المسلحة ضد الطليان أو النيل من رموزها، لكن الباحث هو الذي أرغمنا على ذكر هذه الحقائق حينما تجاهل دور القبائل الليبية في حركة الجهاد، فلولا التنظيمات القبلية المعروفة (بالأدوار) لما كان للحركة السنوسية أي أثر يذكر في تاريخ الجهاد الليبي على الإطلاق. كما أننا نستغرب تعصب الباحث اللامحدود للسنوسية، وإضفاء مظاهر التبجيل والإجلال على شيوخها لدرجة أنه جعل عمر المختار يفتخر قائلا بأنه " **لم يقابل أحدا منهم**

وهو على غير وضوء مذ عرفهم"[73]، وهذه الرواية لا يمكننا الأخذ بها لسببين أولهما أن الباحـــث أوردها بلا مصـدر، والسـبب الثاني وهو الأهم مخالفتها للشـرع، ولا داعي لتفصـيل السـبب الثاني الذي يُعد عند المسـلمين من الأمور البديهية، فالذي يسـتعدي الوضـوء عند مقابلته هو الله وحده جل جلاله، وفيما عداه لا يوجب على المسلم إقامة الوضوء من أجله ولو كان من الأنبياء.

وفيما يخص **الفصـل الخامس**، فإنه يتحدث عن سـلسـلة المفاوضـات بين معســكر الثوار والحكومة الإيطالية، بُعيد تولي (بادوليو) الحكـــــم على برقة وطرابلس، وكما يحدث في كل مرة، يوجد بتر للنصـوص وتأويل موجه للحقائق بالإضـــافة إلى تزوير الوثائق التاريخية، يلاحظ ذلك حينما نقل الباحث عن الجنرال غراســياني مطالب زعماء الثوار التي جاء بها متصـــرف درنة (علي العبيدي)، وهي كلها تدور حول الحفاظ على كيان الطريقة السنوسية، وقد نسبها باعتبارها مطالب عمر المختار، وذلك من أجل أن يثبت للقراء بأن عمر المختار كان يقاتل من أجل تحقيق مكا سب دنيوية لزعماء الحركة السنو سية. وإليكم ما جاء في كتاب غراسياني (برقة المهدأة) ترجمة محمد الفرجاني في هذا الشأن:

يقول غراسياني: " **وفي تلك الأثناء أحاط وجيه العبيدات علي العبيدي متصرف درنة، علما أنه حسبما تسنى له فهمه من خلال المحادثات التـــي جرت مع زعماء الثوار كان هؤلاء يطالبون بما يلي:**

أولا: الاعتراف بالسـنوسـية كطريقة من الطرق الإسـلامية ذات الطابع الديني مع تخصيص مبالغ لأعضاء الأسرة السنوسية .

ثانيا: الاعتراف بالأوقاف واحترامها.. تلك الأوقاف التابعة للزوايا ذاتها مع دفع رواتب قائمقامات الزوايا وزعماء القبائل.

ثالثا: الاعتراف بالملكية الخاصة لأعضاء الأسرة السنوسية فيما يتصل بالأراضي المقفرة المحيطة بكل من الجغبوب والكفرة ...."

رابعـا: إعفـاء أموال الزوايـا وأموال العـائلـة السـنوسـيـة من دفع الضرائب"[74].

وقد جاء عند الباحث حول هذه المطالب **"وهـــذا ما عبرت عنه بوضـوح مطالب عمر المختار، التي أرسـلها إلى داءدياشـي مع الوجيه علي باشـا العبيدي بعد انصـرافهم من اللقاء السـابق، والتي دارت كل بنودها حول مطلب الحفاظ على كيان الطريقة السنوسية"**[75]

انظر كيف أساء الباحث لعمر المختار حينما نسب له تلك المطالب، متجاهلا مواقفه النضـالية المشـرفة، ولعل أشـهرها ما حدث في اجتماع القيقب حينما رفض شـروط الإيطاليين باعتبارها "لا تتضـمن أي حق مشـروع للسـكان، يؤمن حياتهم ومسـتقبلهم، فهي عبارة عن منح مادية تقدمها إيطاليا لزعماء السـنوسـية وبعض المشايخ، وقد رفضها عمر المختار جملة وتفصيلا"[76]

أما فيما يتصل بسوء العلاقات بين عمر المختار والسيد الحسن الرضا الذي انشـق عن تنظيمات الثوار، وأصـبح خاضـعا هو واتباعه للإيطاليين، كما ذكرنا آنفا، يؤكد الباحث أن انجراره (أي الحسـن) وراء قبول الاتفاق مع الإيطاليين كان "**بفعل ضغط مستشاريه والزعماء من الأعيان الخاضعين**"[77] متجاهلا ما جاء في كتاب برقة المهدأة، الذي وثّق ترجمته واعتمد عليها كثيرا في جميع فصول كتابه. وإليكم ما قاله غراسياني في هذا الصدد:

" كان من شأن عدم تساهل عمر المختار، وكونه لا يريد الاعتراف بعد بزعامة محمد الرضـا أن أثار بطبيعة الحال استياء الحسـن، الذي سـرعان ما أدرك بالرغم من طموحه، أن احتمال تدخـل إدريس كان من الممكـن أن يجعله هو وعائلـــته يصبحون في المقـــام الثاني، ولذلك صـارت العلاقات بين عمر المختار والحسن الرضا متوترة أكثر فأكثر، وانتهى بها الأمر إلى انفصـــال جماعة الجنود التي كانت تحت قيادة الحســـن

(البراعصة والدرسة)[78] **عن تنظيمات الثوار الأخرى"**[79]. وهـــنا كما هو واضح يرجّح غرسياني سبب خضوع الحسن الرضا بأنه كان من أجل المنافسة على الزعامة وليس بتأثير الأعيان الخاضعين، وإلى جانب هذا، ثمة أشياء لا بد من الإشـــارة إليها، قبل مغادرة الفصـــل الخامس، تتعلق بتزوير الوثائق وتأويلها بحسب الأهواء، ومن هذه الأشياء زعم الباحث بأن العبارة التي جاءت في رسالة عمر المختار(المرسـلة إلى سيشيلياني نائب حاكم برقة) التي تقول: **"وأعتقد جازما أنهم يعمدون إلى بذر الشـــقاق بيننا وبين الســـيد إدريس"**[80] المقصود فيها كان الحسن الرضا وليس السيد إدريس السنوسي، وقد علق في الهامش قائـــلا: **"في ترجمة برقة المهدأة للفرجاني كُتبت "إدريس" وهو خطأ كتابي، لأنه في الأصل الإيطالي "الحسن" وهو ما يتناسب مع سياق الحدث والحديث"**[81]. لكننا حينما رجعنا إلى العبارة نفســـها في ترجمة ابن عامر (برقة الهادئة) وجدنا المقصود هو السيد إدريس[82]! أليس غريبا أن يتكرر الخطأ الطباعي في كلا الترجمتين؟ ألا يعني هذا أن الكلمة في الأصل الإيطالي كانت إدريس، وليس كما ذكر الباحث. إذ إن عدم التناسـب بين كلمة (إدريس) وتوزيع الأقوات، لا يمكن أن يغفل عنها المترجمان معـا، لكنهما (رحمهما الله) آثارا نقل الكلمة كما هي وفقا لمقتضـيات الأمانة العلمية، ولم يتصـرفا في نص الرسـالة كما فعل الباحث الذي أبدل اسـم إدريس باسـم الحسـن الرضـا، وهذا بطبيعة الحال لا يجوز من الناحية العلمية والأدبية في جميع الأحوال.

وهناك شــيء آخر مشـابه نعثر عليه في نهاية الفصـــل الخامس وقتما عرض الباحث بيان عمر المختار الذي نشر في الصحف العربية إبان انهيار الهدنة بين الثوار والحكومة الإيطاليين، حيث وقف على فقرة: (رأيت أن أخوض غـــــمار الحرب، وأن لا أركن إلى أية محادثة أو واسطة، ولو من العائلة السنوسية، إلا من اتفقت عليه الأمة وأودعته ثقتها)، وعلق على عبارة **" إلا من اتفقت عليه الأمة وأودعته ثقتها"** بقوله: تعني (الأمير إدريس) نفسه[83]! وهو تأويل بعيد كـــــل

البعد عن القصد وسبيله. فيا لــــه من منطق عجيب، كيف يعني الشيخ عمر المختار بتلك العبارة السيد إدريس السنوسي في الوقت الذي وقع فيه بيانه هذا بمقولة "قائد القوات الوطنية في ساحة الحرب الطرابلسية البرقاوية "، وكان قبل تاريخ هذا البيان يختم الرسائل والاتفاقيات باسم (نائب الوكيل العام). لدرجة جعلت العديد من المؤرخين يؤكدون ـ بعد صدور البيان ـ على تملص المختار من التبعية الاسمية للحركة السنوسية، وهذا يتفق تماما مع مجريات الأمور في تلك الآونة. ويمكن الاستمرار في ضرب الأمثلة التي توضح تلاعب الباحث بالنصوص والوثائق التاريخية، لكنني آثرت الاقتصاد حتى لا أطيل على القراء.

أما في **الفصل السادس** المعنون ب (حطموا السنوسية) فقد انطلق الباحث في الحديث عن فترة تولي الجنرال غرسياني للحكم في برقة، حيث تناول المحكمة الطائرة وإغلاق الزوايا السنوسية، وإقامة المعتقلات والأسلاك الشائكة حتى وصل إلى احتلال الكفرة والقبض على عمر المختار ومحاكمته وإعدامه وانتهاء المقاومة في برقة، ونكاد لا نعثر علي أي شيء جديد في سرد الأحداث، باستثناء بعض التخمينات والتأويلات المضادة للمنطق والحكم السليم، وهي تدل في مجملها على تحيز الباحث للحركة السنوسية وإلا كيف نفهم والحالة هذه انكاره لكتاب السيد محمد الرضا الذي يؤيد فيه إغلاق الزوايا السنوسية عام 1930م، حينما قال: **"والحقيقة أن الطائرات لم تلق أي بيان صادر عن السيد الرضا على الإطلاق"**[84] مع أن هناك مصادر تاريخية تؤكد هذه الحادثة، منها: كتاب (عمر المختار) للشيخ الزاوي، وجريدة (بريد برقة) التي نشرت نسخة من البيان عام 1931م، وها هو الجنرال غرسياني نفسه يتحدث عن محمد الرضا قائلا إنه **" حرر كتابا لجميع المسلمين ا ستنكر فيه أعمال الأخ إدريس وأعمال الطريقة السنوسية"**[85] وأورد نسخة كاملة من البيان في كتابه (برقة المهدأة) ولكي تتضح الرؤية التي تبين خضوع السيد محمد الرضا غير المشروط للحكومة الإيطالية يحسن بنا عرض بعض فقرات البيان الذي لا

نشك في صحته ونسبته للسيد محمد الرضا السنوسي وكيل السيد إدريس:

"بوصفي سنوسيا لا أستنكر ما أسسه أجدادي وأهداف مؤسستهم وأغراضها النبيلة، مثل تعاليم القرآن والواجبات الدينية نحو أولاد العرب (...) لكنني أستنكر الطريق الذي ينتهجه أخواي السيد أحمد الشريف، والسيد إدريس الذي يمثل السلطة الزمنية بتفجيرهما الحروب، وأعمال السلب والنهب، حيث إن خط السير هذا مرتبط بشخصيتهما فحسب ولا يمكن أن ينسب إلى الطريقة السنوسية.."

"إن خضوعي الصادق للحكومة المجيدة أبديته من تلقاء نفسي وليس قسرا وجبرا وليس استجابة لنصيحتكم، فقد نبع من محض ضميري..."

"إن زعماء الطريقة الذين هم جدي السيد محمد بن علي السنوسي وابنه أي والدي السيد محمد المهدي، اللذان كان لزاما عليكم اتباعهما، لا يوافقان على هذا السلوك التخريبي الهدام.. هأنذا أريكم كيف كانت تسير الأمور قبل ذلك: (عندما احتل الإنجليز مصر دعا عرابي باشا والدي السيد محمد المهدي لمشاركته في الحرب في مصر، إلا أن والدي الذي كان يقيم آنذاك في الجغبوب رفض رفضا قاطعا، ولو كان أراد ذلك لكان قد عمله، لكن هدف المؤسسين الأوائل كان مسألة عقيدة مضادة لكل سلطة زمنية، ولقد قام أجدادي بتأدية هذا الواجب على خير ما يرام). ولذلك أدعوكم للتخلي عن الثورة، حتى تحصلوا على الخير الأرضي والسماوي، وإلا فلستم معي وأنا لست معكم"

"إن وضع أموال السنوسية تحت الحراسة ومصادرتها اليوم هو إجراء عادل وصحيح، لأن: إخوتي هم السبب في ذلك"[86]

هذه أهم فقرات البيان الذي طعن فيه الباحث دون أدلة واكتفى بالقول: (هذا البيان ليس من وضع السيد الرضا)، وهو هنا يؤكد على فكرة طالما كانت مهيمنة

بشكل عام في كتابه (عمر المختار الحقيقة المغيبة)، حيث كان الدفاع عن الحركة السنوسية هو هاجسه الوحيد، وقد جرّه هذا العمل إلى تمجيد رموزها على حساب الوطن وحقائق التاريخ، فالباحث حاول أكثر من مرة إظهار عمر المختار وهو يقاتل من أجل الأمير إدريس والحركة السنوسية، وليس من أجل الدين والوطن. نستطيع ملاحظة ذلك حينما جاء برواية لأحد المجاهدين تزعم أن عمر المختار قال (قبل أسره بيومين) لمجموعة من الثوار: **"إني أشهد الله بأنكم قد أجهدتم غاية الإجهاد، فمن أراد منكم أن يقوم بتسليم سلاحه ويحصل على العفو فليفعل ولا حرج عليه، أما من جهتي فإني أقسم بأني لن أفعل حتى أموت على حصاني هذا، أو يصلني أمر صريح من السيد إدريس"**[87]، وقد تجاهل الباحث وقائع تاريخية كثيرة، مخالفة للرواية التي أتى بها، أشهرها ما صرح به عمر المختار حينما سأله الجنرال غرسياني وهو أسير في مكتبه قائلا: لماذا حاربت الحكومة الإيطالية حربا عنيفة؟

فأجاب المختار: من أجل ديني. ولم يقل للجنرال غرسياني من أجل الأمير إدريس أو الحركة السنوسية. ونستغرب كيف يقبل الباحث هذه الرواية وهو يعلم وجود رسالة من الأمير إدريس كتبها ذات مرة لعمر المختار يقول فيها: **"إن حصلت لكم مضايقة من العدو بقطع المواصلات فها هي تأتيكم مقصات للأسلاك الشائكة تستعملونها عند الحاجة والتجئوا إلى مصر لئلا تقعوا في الأسر"** فرد عليه المختار " **لن أبرح الجبل الأخضر مدة حياتي، ولا يستريح الطليان فيه حتى يواروا لحيتي في التراب"**[88].

وقبل أن نختم الفصل السادس وهو الفصل الأخير ينبغي التطرق إلى احتلال الكفرة والإشارة إلى المدافعين الحقيقيين عنها، ففي بداية التجهيزات الإيطالية لاحتلال منطقة الجوف ذكر الجنرال غرسياني : **"عندما شعر صالح الأطيوش بخطورة الموقف اجتمع هو وعبدالجليل سيف النصر وهيأوا جنودهم لمواجهة المهاجمين، وقد أرسلوا طلائع الثوار لتحديد مكان العدو**

المهاجم، أما السنوسيون فقد بدأوا بالانسحاب من الواحات متجهين نحو مصر"[89] باستثناء حسونة الخطابي أحد أفراد الأسرة السنوسية الذي ظل هو ونساءه وعبيده بالكفرة، وعند بداية المعركة يقول الكاتب محمد عبد الرازق مناع **"ما إن وردت أنباء قدوم الحملة الإيطالية حتى اتخذ المجاهدون المغاربة بالتعاون مع رجال زوية في الهواري مواقعهم، كما استعد أولاد سليمان مع الزوية أيضا في الجوف والتاج"**[90]، وقد كان الهجوم الإيطالي من محورين، محور قوات طرابلس الغرب (واو الكبير، تازربو، بزيمة) ومحور قوات من برقة (جالو، الزيغن، الجوف)، وقبل المعركة بعدة أيام وردت أخبار للحكومة الإيطالية بأن **"أحمد الشريف خول إلى صالح الأطيوش وعبدالجليل سيف النصر قيادة المجاهدين الثوار، والدفاع عن الكفرة والواحات التي حولها"**[92]، وبالفعل في يوم 19 يناير 1931م قامت القوات الإيطالية بالهجوم على المجاهدين بغية الاطباق عليهم، وكانت المعركة بالدرجة الأولى معركة طيران، وقد قاوم الثوار مقاومة عنيفة لمنع القوات الإيطالية والمرتزقة الليبيين من الدخول إلى الكفرة، لكن في النهاية استولى الطليان عليها بسبب تفوق القوات الإيطالية في العدد والأسلحة، إذ إن القتال في حقيقة الأمر لم يكن قتالا بين قوتين متكافئتين، وإنما كان القتال ـ بحسب تعبير وهبي البوري ـ بين حفنة من المجاهدين المسلحين بالبنادق البسيطة وبين الطائرات والمدفعية والرشاشات. وقد استشهد في هذه المعارك عديد من الثوار، كان من بينهم سليمان بومطاري وغيث بوقنديل وأحمد بوشناك، وحمد الحامي، وقد عثرت القوات الإيطالية بعد المعركة على حوالي 200 شهيد، كان أكثرهم عقلوا أرجلهم كي لا يغادروا ساحات القتال. وبعد سقوط الكفرة تفرق الثوار صوب العوينات وجبال تيبستي والحدود المصرية وقامت طائرات السلاح الجوي بملاحقتهم وقصفهم. ولنترك سرد المشاهد بعد ذلك للكاتب الإيطالي دانتي ماريا تونينيتي ممثل الحزب الفاشيستي في برقة والذي رافق حملة احتلال

الكفرة، فقد ذكر حـــول هذه الأحداث ما يلي: **"واصلت الطائرات في فجر اليوم التالي مطاردة الفارين، ولم تترك مجموعة واحدة متجهة إلى الشرق أو الجنوب إلا وضربتها بالرشاشات وشتتها، فكان الرجال يفرّون باحثين عن مكان يقيهم شـر النيران أو ينبطحون على الأرض (...) وتداولت خمس عشرة طائرة طول اليـوم على مطاردة الفارين، وإرشاد قوات الهجانة لملاحقتهم، بقدر ما يسـمح لها به وقودها. وفي يوم 21 تواصـلت المطاردة، وتجاوزت الطائرات خط الاسـتواء، واسـتمرت في اطلاق رشـاشـاتها على الفارين، وتمكن عدد قليل من الثوار اجتياز الحدود في حالة مزرية يكادون أن يموتوا عطشا"**[93] وقـد قامت في هذه الأثناء قوات الحدود المصـرية بإنقاذ الثوار وأُسـرهم، والبحث عن المجموعات الأخرى منهم، ويذكر في هذا الصـدد أن الزعيم (صـالح الأطيوش) الذي فر صـوب العوينات، أمر بنحر بعض الأبل ليسـتخرج الماء من بطونها، وقام بتوزيع الماء على النسـاء والأطفال والرجال، بعدما تاهت القافلة لمدة سـبعة أيام في الصحراء[94].

ما من شـك أن القوات الإيطالية وأتباعها المرتزقة (الأحباش والليبيين) رغم خططها العسـكرية، وإمكانياتها الهائلة اللوجسـتية والمادية والإعلاميـة، فإنها أخفقت أمام العالم كدولة اسـتعمارية لها جنود شـجعان وقدرات قتالية عالية، وفي المقابل، لقد أشاد الجنرال غرسياني نفسه بشجاعة الثوار وصبرهم، فها هو يقول" **إن قوات الثوار تحت قيادة رجال مهمين من أمثال صالح الأطيوش وعبدالجليل سـيف النصـر وحمودة بن شـغيلي وحمد بن شـريف وعبدالحميد بومطاري، الذين قابلوا قواتنا الكبيرة بكـل عددها، من دبابات وطائرات وأنها معركة غير مكافئة، رغـم هذا كله كانوا أشداء، أقوياء، صامدين صابرين لا يتقهقرون أبدا.."**[95]

على سبيل الختم:

وبعد، فهذا قليل من كثير، مما يوجد في كتـــــاب (عمر المختار الحقيقة المغيبة) الذي جاء مخيبا للأمل، فإلى جانب الأخطاء المنهجية الجسـيمة التي أشـرنا إليها، فإن هذا الكتاب تنقصـه الجدية في المعالجة والعمق في التحليل، ومن خلال مراجعته وعرضـه يتضـح تأثر الباحـــث بكتابات مؤرخي الحركة السـنوسـية التي تميل إلى تضـخيم دور السـنوسـية أثناء فترة الجهاد الليبي، في الوقت الذي لم يكن فيه لزعماء السنوسية أي شأن أو مجد، باستثناء جهود أحمد الشريف النضالية في بداية الغزو الإيطالي." أما مواقف السنوسية بعد ذلك فهي في أغلب الأحيـان كـانـت (على حـد قول الـدكتور ميلاد المقرحي) مواقف انفصـالية، وإقليمية، وانهزامية، ومائعة، ومتأرجحة"[96]. وبالتالي فإن الكتاب لم يقدم شيئًا جديدًا أو مهما، ويبدو أن صاحبه ا ستغل ا سم عمر المختار، من أجل ترويجه في الأوساط الثقافية في ليبيا.

وأخيرًا، كان على الباحث الالتزام بالموضـــوعية في كتابه هذا، ويبرز الدور الحقيقي الذي لعبه كل من القادة السـنوسـية، والعنصـر الليبي المتمثل في التنظيمات القبلية (الأدوار)، أو يترك الأمر في نها ية المطاف إلى أهله. فلولا نظام الأدوار لما صمدت حركة الجهاد في برقة طوال تلك الفترة، بخلاف حركة المقاومة في غرب البلاد التي شـهدت تناقضـات جهوية وحروب أهلية[97] نتج عنها احتلال الجبل الغربي عام 1922م وانتهاء المقاومة المسـلحة في إقليم طرابلس.

الهوامش

1. ابن خلدون، "المقدمة" دار إحياء التراث العربي، بيروت/ لبنان، الطبعة الرابعة (د.ت) ص 9
2. ابن خلدون، مرجع سابق، ص3
3. يوسف عبدالهادي الحبوش "عمر المختار الحقيقة المغيبة"، منشورات مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2017م ص 24.
4. أحمد صدقي الدجاني "الحركة السنوسية، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر" دار العلم لبنان للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1967م ص 74.
5. رأفت الشيخ "في تاريخ العرب الحديث" دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية1977م ص 270
6. الإمام محمد عبده "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية" منشورات دار الحداثة، بيروت/ لبنان، الطبعة الثانية 1988م، ص ص125/124
7. رأفت الشيخ، مرجع سابق، ص ص 269/268
8. محمد فوائد شكري "السنوسية دين و دولة" مركز الدراسات الليبية، أكسفورد/ بريطانيا، الطبعة الأولى 2005م، ص 56
9. محمد عبدالكريم الوافي "الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي" منشورات جامعة بنغازي، بنغازي/ ليبيا، الطبعة الرابعة، 1998م ص27
10. صرح لي شخصيا الدكتور محمد الوافي (رحمه الله) ذات يوم عقب انزعاجه من أحد الطلبة عام 2001م، حيث قال: (تركتُ أولادي في فرنسا ورفضت التدريس بجامعة باريس، وهأنا اليوم بعد تقاعدي ألقي محاضرات مجانا بجامعة قاريونس، كل هذا من أجل ليبيا، لكن، والله، سيكون هذا آخر عام أُحاضر فيه على طلبة الليسانس"، وبالفعل، لقد

كان عام 2002/2001م آخر عام دراسي له، ويكفي الرجل أنه فضّل العيش بعيدا عن أولاده من أجل تعليم الليبيين. يا ليت كل من يدعي الوطنية أن يقدم للجامعات الليبية ما قدمه الوافي في مجال التعليم والتأليف والترجمة معًا.

11. يقول جورج ريمون: وفي اليوم التالي عرفني (عزيز بك) إلى أعيان بنغازي وقدمني إلى مشايخها، فاجتمعت بهم، وكان على رأسهم نائب بنغازي(...)، وكان أولئك الأعيان ومشايخ الزوايا على شيء من الترفع والأنفة، وقد قبل كثير منهم أن ألتقط لهم صورا تذكارية في خيمة النائب (عمر منصور الكيخيا). جورج ريمون، من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا 1912م، ترجمة: محمد عبدالكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، الطبعة الثالثة1988م، ص 304
12. الحبوش، مرجع سابق ص ص255/ 200
13. بخصوص نظام الأدوار ينظر إلى بحث (الأدوار) للأستاذ يوسف البرغثي، مجلة البحوث التاريخية، السنة الرابعة، العدد الأول 1982م
14. لمزيد من التفاصيل حول حادثة اعتقال المجاهد صالح الأطيوش، ينظر إلى كتاب "من البطولات العربية الخالدة، صالح الأطيوش حياته وجهاده"، محمد عبدالرازق مناع، منشورات دار بساط، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى 1983م
15. جون توش "المنهج في التاريخ"، ترجمة: ميلاد المقرحي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي/ ليبيا، الطبعة الأولى 1994م ص 306
16. محمد عبد الكريم الوافي، "منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب"، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي/ليبيا، الطبعة الثانية 1998م ص58
17. الحبوش، مرجع سابق، ص 51

18. جورج ريمون، مرجع سابق، ص305
19. الحبوش، مرجع سابق، ص 52
20. نقولا زيادة، "برقة الدولة العربية الثامنة"، دار العلم للملايين، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى 1950م ص 96
21. حبيب وداعة الحسناوي، "عمر المختار نشأته وبيئته الأولى حتى تسلم قيادة الجهاد في برقة عام 1923م"، ضمن كتاب "عمر المختار نشأته وجهاده من 1931/1862م"، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس/ ليبيا، الطبعة الثانية 1983م، ص ص 21/20.
22. راجع الحبوش، مرجع سابق، ص 101
23. المبروك الساعدي، "النظم الحربية لدى عمر المختار"، ضمن كتاب عمر المختار نشأته وجهاده، مرجع سابق، ص 97
24. المبروك الساعدي، مرجع سابق، ص 97/ 98 (بتصرف)
25. إن صحت هذه الرواية، فإنها لا تعد من النبوءات، وإنما يمكن اعتبارها فراسة أو ذكاء حادا أو أي شيء من هذا القبيل.
26. الحبوش، مرجع سابق ص 58
27. أنجيلوا ديل بوكا، "الإيطاليون في ليبيا"، الجزء الثاني، ترجمة محمود علي التائب، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين، الجماهيرية، 1995م ص 199
28. الحبوش، مرجع سابق، ص 338
29. اتيليو تروتسي، "برقة الخضراء"، ترجمة: خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ليبيا/ تونس، الطبعة الأولى1991م ص236
30. الحبوش، مرجع سابق، ص405
31. محمد طيب الأشهب، "عمر المختار"، مكتبة القاهرة، الطبعة الأولى 1957م، ص58

32. الحبوش، مرجع سابق، ص236
33. رودلفو جراتسـياني، "برقة المهدأة"، ترجمة: محمد الفرجاني، دار الفرجاني، طرابلس / ليبيا، الطبعة الأولى 2015م، ص 69
34. الحبوش، مرجع سابق، ص 345
35. اتيليو تروتسي، مرجع سابق، ص28
36. الحبوش، مرجع سابق، ص221
37. جورجو روشـا وآخرون، "عمر المختار وإعادة الاحتلال الفاشـي لليبيا"، ترجمة: عبدالرحمن سالم العجيلي، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، الجماهيرية/طرابلس 1988م ص90
38. الحبوش، مرجع سابق، ص345
39. بشـأن الاقتباس المتعلق بكلمة السـنوسـية، يذكر الباحث في الهامش ملاحظات حول ترجمة التليسي ما يلي:"أنه تم تحريف كلمة (السنوسية) هنا إلى كلمة مقاومة، وأن حذف كلمة (السـنوسـية) مرتين في هذه الصفحة وحدها من ترجمة التليسي، يجعلنا نؤكد على فكرة إعادة النظر في الترجمة بكاملها" وكذلك فعل الشـيء نفسـه في اقتباس العجيلي. والسؤال هنا، إلى أي ترجمة استند الباحث في التصحيح الذي جاء به؟ وحتى لو افترضـنا أن ترجمتي التليسـي والعجيلي غير صـحيحتين، فلا يجوز للباحث أن يتصرف بالنص المقتبس تحت أي ذريعة.
40. راجع هامش كتاب ديل بوكا ص 267، ومتن كتاب الحبوش ص 463
41. راجع ما قاله الباحث، حول ترجمـة عبدالرحمن سالم العجيلي لكتاب "عمر المختار وإعادة الاحتلال الفاشـي لليبيا"،الحبوش، مرجع سـابق، ص 227
42. راجع، الحبوش، مرجع سابق، ص126
43. ميشـال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سـالم يقوت، المركز الثقافي

العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، ص 8

44. محمد فؤاد شكري، مرجع سابق، ص 282-283

45. الحبوش، مرجع سابق، ص94

46. الحبوش، مرجع سابق، ص١٤٧

47. ابن خلدون، مرجع سابق، ص 11

48. الحبوش، مرجع سابق، ص205

49. الحبوش، مرجع سابق، ص207

50. إدريس الحرير، "مواقف خالدة لعمر المختار"، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، يوليو 1988م، ص74 (بتصرف)

51. انظر نص الرسالة كاملة لدى إدريس الحرير، مرجع سابق، ص 75

52. الحبوش، مرجع سابق، ص235

53. الحبوش، مرجع سابق، ص 235.

54. حول هذه الزيارة يقول: يوسف سالم البرغثي "من المرجح أن الوفد كان يرغب في استرجاع المال الذي استلمه إدريس من الأتراك، ومن بعدهم الطليان على حساب القضية الليبية، وكانوا مقتنعين (يقصد عمر المختار وصحبه) بأن المال يجب أن يستغل للجهاد، لا لبناء القصور بالإسكندرية، وثمة من يقول: إن المبالغ التي استلمها إدريس كهدايا ومرتبات كلها على حساب القضية لولاها لما وجد إدريس على مسرح الأحداث، وقد قدر أحد المجاهدين الأموال التي استلمها إدريس من الاتراك فقط بـ10 صناديق ذهب بكل صندوق 100 كيس ذهب". ونحن نقول إن هذه المعلومات غير موثوقة، فما جدوى من ذكر (ثمة من يقول) أو (قدر أحد المجاهدين) دون أن تنسب الرواية لصاحبها؟ والمستغرب، أن البرغثي سبق وأن أخذ على الباحث محمد عيسى الصالحية في بحثه الموسوم: "الأدوار في حركة الجهاد الليبي" اعتماده

على الروايات الشفوية دون ذكر أسماء المجاهدين الذين التقى بهم. يراجع: يوسف سالم البرغثي "الأدوار وأثرها في حركة الجهاد الليبي" مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، يوليو 1981م، ص 212

55. نقل الباحث حرفيًا من كتاب محمد الطيب الأشهب، دون أن يضع علامات الاقتباس، أو يشير إلى صاحب الكلام في الهامش، قارن بين كلام الحبوش ص222 والأشهب، مرجع سابق، ص63.
56. راجع محمد عبدالرازق مناع، مرجع سابق، (بتصرف) ص 101.
57. أنجيلوا ديل بوكا، مرجع سابق، ص 84
58. خليفة محمد التليسي، "معجم معارك الجهاد في ليبيا 1931/1911م"، دار الثقافة، بيروت/ لبنان، الطبعة الثالثة 1973م، ص 107 (بتصرف)
59. يراجع كل من: دي كاندول "الملك إدريس عاهل ليبيا حياته وعصره"، طبعة محمد بن غلدون، 1988م ص49. محمد عبدالرازق مناع، مرجع سابق ص116، كتابي طاهر الزاوي "عمر المختار"، دار المدار الإسلامي، الطبعة الثانية 2004م، ص 88، وكتاب "معجم البلدان الليبية" مكتبة النور، طرابلس/ ليبيا، الطبعة الأولى 1968م، ص 60
60. جورجو روشا، مرجع سابق، ص 71
61. شمس الدين السخاوي "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" دار الكتاب العربي، بيروت/ لبنان، 1979م، ص 69.
62. محمد عبد الكريم الوافي "منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب" مرجع سابق، ص 167
63. ديل بوكا، مرجع سابق، ص 98
64. محمد عيسى الصالحية "الأدوار في حركة الجهاد الليبي" مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العدد 13 لسنة 1978م، ص 153.
65. ديل بوكا، مرجع سابق، ص137

66. اتيليو تروتسي، مرجع سابق، ص194
67. محمد الأخضر العيساوي "رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار" مطبعة حجازي بالقاهرة، الطبعة الأولى 1939م ص70.
68. راجع كتاب ديل بوكا، مرجع سابق، ص 136
69. جورجو روشا، مرجع سابق، ص 79
70. جون رايت "تاريخ ليبيا منذ أقدم العصـــور" ترجمة: عبدالحفيظ الميار، أحمد اليازوري، دار الفرجاني، طرابلس/ليبيا، الطبعة الأولى 1972م ص 150.
71. علي عبداللطيف حميدة "المجتمع والدولة والاســـتعمار في ليبيا" مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية 1998م ص 186
72. الحبوش، مرجع سابق، ص312
73. الحبوش، مرجع سابق، ص285
74. رودلفو جراتسياني" برقة المهدأة" مرجع سابق، ص 63/62.
75. الحبوش، مرجع سابق، ص337
76. وهبي أحمـد البوري "مجتمع بنغـازي في النصـــف الأول من القرن العشـــرين" مجلس الثقافة العام، الجماهيرية الليبية، الطبعة الأولى 2008م ص 228
77. الحبوش، مرجع سابق، ص354
78. بالنسبة لدور البراعصة -الدرسة لم يلبث طويلا مع الحسن الرضا، وإنما انشـق والتحق بالثوار، وفي هذا الصـدد يقول جورجو روشـا أثناء حديثه عن المقاومة الشـعبية "أن عمر المختار سـرعان ما اسـترد سـيطرته على الجبل، بتأييد معظم الأهالي، خاصة بعد تمرد دور البراعصة -الدرسة، على الحسن الرضا، رغم إ صرارهم على عدم ا ستئناف القتال، إلا أنهم في أوائل شــهر يناير ثاروا على الحســن علانية وكســروا طوق الحراســة

الإيطالية، وبذلك استرجع الدور مكانه إلى جانب عمر المختار، مسجلا بذلك الفشل النهائي لسياسة المصالحة الظاهرية التي كانت في الواقع سياسة بث الشقاق والتنازع بين العشائر" راجع جورجو روشا، مرجع سابق، ص 100- 101

79. رودلفو جراتسياني" برقة المهدأة"، مرجع سابق ص 70
80. رودلفو جراتسياني" برقة المهدأة"، مرجع سابق ص 75
81. الحبوش، مرجع سابق، هامش ص337
82. رودلفو غراسياني " برقة الهادئة" ترجمة إبراهيم بن عامر منشورات دار مكتبة الأندلس بنغازي/ ليبيا، الطبعة الأولى 1973م ص 61.
83. الحبوش، مرجع سابق، هامش ص372
84. الحبوش، مرجع سابق، هامش ص 402
85. رودلفو جراتسياني" برقة المهدأة"، مرجع سابق ص232
86. رودلفو جراتسياني" برقة المهدأة"، مرجع سابق ص236
87. الحبوش، مرجع سابق ص 446
88. راجع العيساوي، مرجع سابق، ص 86
89. رودلفو غراسياني " برقة الهادئة، مرجع سابق ص 182
90. محمد عبدالرازق مناع، مرجع سابق ص 195
91. رودلفو غراسياني " برقة الهادئة، مرجع سابق ص 199
92. دانتي ماريا تونينيتي "الكفرة الغامضة" ترجمة: وهبي البوري، منشورات مركز جهاد الليبيين، الجماهيرية، الطبعة الأولى 2005م ص 12 مقدمة المترجم.
93. دانتي ماريا تونينيتي، مرجع سابق ص 146-147
94. راجع محمد عبدالرازق مناع، مرجع سابق ص 207
95. رودلفو غراسياني " برقة الهادئة، مرجع سابق ص 211

96. ميلاد المقرحي" مقالات نقدية" منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، طرابلس/ ليبيا، الطبعة الأولى 2006م ص 171

97. تجاهل عدد كبير من المؤرخين الليبيين الحديث عن الحرب الأهلية في الجبل الغربي، ولم تعر حكومة الاســتقلال أي اهتمام بها، وقد أعلن الملك إدريس من أجل المصــالحة الوطنية العفو العام تحت شــعار "حتحات على ما فات"

الإسلام والحداثة والمجتمع المدني في ليبيا

"إذا أراد المسلمون حقا نظاما اجتماعيا إسلاميا فإن عليهم فحص كل جانب من جوانب الحياة العصرية من منظور الإسلام والقيام بالتصحيحات الضرورية .. ومن ثم عليهم دمج المعرفة الجديدة في الموروث الإسلامي، وذلك باستبعاد وتعديل وإعادة تفسير وتكييف مكوناته وفقا لنظرة العالم إلى الإسلام"

✍ مهاتير محمد

استهلال لابد منه :

اعتاد فقيه السلطان كما يقال على التزلف للقوة الحاكمة، سواء من الناحية النظرية المؤسسة على خطابات المدح، أو من الناحية العملية المتمثلة في تخريج الفتاوى الداعمة لفكرة طاعة الحاكم، بوصفه ظل الله على الأرض، هذه الرؤية ليست جديدة، ونحن لسنا في صدد تأكيد مشروعيتها أو عدم مشروعيتها، بالرغم من أننا نعلم، مثل الجميع، أن هناك شهادات تاريخية تثبت بما فيه الكفاية مدى تأثير هذا الواقع في قهر الوجدان العربي بصفة عامة، فمن تصريح معاوية- الذي يعد أول ملك في تاريخ الإسلام- إلى خطابات أبي جعفر المنصور المؤسس الثاني للدولة الإسلامية، ومرورًا بخطابات حكام وسلاطين العرب على مر العصور الإسلامية، كل هذه الخطابات كانت على نمط واحد فكرا ونهجا، وللأسف نرى بعض العلماء أو(الخاصة) كما تحلو لهم هذه التسمية، هم من يؤيدون هاته الرؤية في تشكيل الخطاب أو العلاقة القائمة بين الحاكم والرعية، وذلك من خلال تأكيد آراء حاكمية عثروا عليها في كتب

التراث الإسـلامي دون أن يأخذوا بعين الاعتبار عامل الزمن و الظروف التي ساعدت في إنتاج صياغتها، ومن مثل هذه الآراء التي غُرست في مخيال الفرد العربي من المحيط إلى الخليج، هو الولاء والإذعـان للحـاكم حتى" لو جلـد ظهرك أو أخذ مالك"[1]، وانطلاقاً من هذا التصور استخلص معظم فقهاء السلطة أحكاما تتلخص في مقولة (جواز الإمامة بالشـوكة) بطريقة ذرائعية تجيز استخدام النصوص المقدسة لمرام سلطوية ـ دنيوية، نرصد هذه الآلية في معظم مدونات التراث الفكري المتأخرة نسـبيًا عن زمن الرسـول الكريم تحت مسـمى وجوب طاعة الحاكم المتغلب أو ما شـابه ذلك، كما نرصـدها أيضـًا في كتابات القاضي الماوردي الذي عاش في زمن الخليفة العباسي القادر بالله، فهذا الفقيه الحافظ يعد ـ من وجهة نظر الأصوليين ـ أكبر فقهاء الشافعية دون منازِع، ففي كتاب "الأحكام السـلطانية" يقول الماوردي: بجواز انعقاد الإمام بالشـوكة (الغلبـة) في معرض حـديثـه عن تعريف الإمـامـة وشـروط تقلـدهـا وكيفيـة انعقادها[2]، وقد كان وراء فتواه ـ فيما يظهر ـ علاقته الملتبسـة برجال الدولة العباسـية من جهة، وبحكام بني بويه والسـلاجقة الذين تعرف عليهم بوصـفه سفيرا للدولة العباسية من جهة أخرى. هذا التصور المتأثر كما هو واضح بظروف العصـر وما اتصـل به من اضـطرابات وفتن، اسـتقبله الإمام (أبو حامد الغزالي) المتوفى عام 505هـ دون تمحيص في آلية اشتغاله أو النظر في سبب إنتاجه، ففي رد الغزالي على أئمة الشـيعة وخلافه الشـهير معهم حول موضـوعة: هل الإمامة بالنص أو بالاختيار، قال لهم ـ فيما معناه: "منصب الإمامـة عند أهل السـنة بالاختيار وليسـت بالنص"، والغزالي بهذا القول يريد تفنيد حجج الشـيعة الإمامية التي طالما تقول بأحقية سـيدنا(علي) بخلافة رسـول الله من أبي بكر وعمر وعثمان بالاسـتناد إلى حديثي (غدير خم) و(المنزلة) وغيرهما من الأحاديث التي تؤكد على أن عليّا هو الخليفة الشـرعي بعد الرسـول الكريم، إلا أن الغزالي "تجاوز القول بالنص – قول الباطنية – إلى القول بالاختيار(الإلهي)

المباشر[3] للتدليل على أحقية الخليفة العباسي المستظهر بالله . أي أنه واستنادا إلى مبدأ جواز انعقاد الإمامة بالشوكة قام بتبرير الواقع السياسي الذي حدث منذ تولي معاوية الخلافة، وكأنه أراد أن يقول: إذا كنتم(روافض) فنحن(نواصب) وتنصيب الإمام عندنا بالقوة والقهر والغلبة. هذا التفكير في الحقيقة لا يساعد على حلحلة القضية بقدر ما يساهم في تعقيدها، لو رد عليهم الغزالي مثلا بقوله: إن الإمامة ليست منصوصًا عليها صراحة في القرآن الكريم، فهي بذلك اختيار وشورى بين المسلمين من منطلق أنتم أعلم بدنياكم، وطرح جانبا شرعية أو عدم شرعية خلافة أبي بكر وعمر، لجنب نفسه مشقة تأليف الكتب والرسائل مثل كتاب "فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية " الذي أذاع فيه أحاديث وتعاليم تؤيد الحاكم بو صفه ظل الله على الأرض، ناهيك عن الدعوة – غير المبا شرة – في التحريض على الاقتتال بين المسلمين من خلال شعار(من كان منكم الأقوى تجوز إمامته).

وفي القرن الثامن الهجري عاد(ابن خلدون) إلى تأكيد مبدأ جواز الإمامة بالشوكة والغلبة، وعذر ابن خلدون في تلك الفترة كان مقبولاً لو كان بدافع تأصيل الوحدة أو التعبئة لها بين الدويلات الإسلامية المتصارعة، لكن إرث أجداده الذين شغلوا في الأندلس وتونس مناصب سياسية كبيرة كان دائمًا يراوده باعترافه شخصيًا في مذكراته المسماة:" التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا" وبالفعل، لقد شغل (ابن خلدون) العديد من الوظائف السياسية والإدارية في كثير من بقاع المغرب العربي والأندلس[4]، كان آخرها بمصر حينما تولى منصب قاضي قضاء المالكية على أيام السلطان الظاهر برقوق لمدة 15 عاما حتى وفاته عام 808 هـ .

هذه الأخبار والنماذج التاريخية نقدمها هنا ليس بدافع الطعن في شخص الغزالي الذي يعد من أكبر فقهاء الإسلام أو التشهير بالفيلسوف التونسي ابن خلدون الذي قال عنه لينين ذات يوم: "ترى أليس في الشرق آخرون من أمثال

هذا الفيلسـوف"، وإنما نسـردها في هذا المقام لتأكيد حقيقة واحدة كان لها الدور الأهم في إنتاج الآراء الفقهية المتعلقة بالحكم والسـياسـة في التراث الإسلامي، تتمثل هذه الحقيقة في تأصيل فكرة الإذعان للسلطة الحاكمة بالوعي العام منذ أن تحولت الخلافة إلى ملك عضوض .

المجتمع المدني والإسلام

تأسيسا على ما سبق فإن الإسلام لم يكن منذ بداياته الأولى يعترف بأية سلطة خلا سلطة الحاكم الذي يعد إماما وقاضيا وقائدا أعلى للجيوش الإسلامية، وبالتالي فإن فكرة تقاسم السلطة التي بُنيت عليها مؤسسات المجتمع المدني لا توجد في الإسلام النظري أو العملي على السواء . لكن هذا لا يعني صعوبة تكوين مجتمع مدني بالمفهوم الغربي في الإسلام حسب تصور منظمة (اليونسكو) التي تعرّف المجتمع المدني على أنه "التنظيم الذاتي للمجتمع خارج الإطار الحكومي والتجاري"[5]، وهذا التنظيم كما هو مشاع يشمل المؤسسات غير الحكومية والنقابات العمالية ومنظمات العمل الخيري وغيرها من الهيئات التطوعية التي لا تستهدف الربح ولا تستند على روابط الدم والقرابة وإنما تسعى بطرق سلمية إلى إحلال نوع من التوازن السلطوي من خلال تقليص دور الدولة في إدارة المجتمع وذلك للحيلولة دون الانفراد بالحكم المطلق . ومن هذه الرؤية التي تبيح فرصة المشاركة في الحكم فإن الإسلاميين وأقصد هنا الفئة السياسية طالما تنكرت لهذا المفهوم لعدة اعتبارات أهمها عدم ملاءمته والفكر الإسلامي الذي يعطي للحاكم ـ وفقًا لقول الأئمة أمثال الرازي والتفتازاني وابن خلدون وغيرهم ـ الحرية المطلقة في إدارة الدولة عبر الجمع بين السلط الثلاث "التشريعية والتنفيذية والقضائية" بوصفه الإمام الذي هو واسطة العقد، ومجتمع الشمل، ومهوى الأفئدة، وظل الله في الأرض"[6] وبعبارة أخرى يقولون إن الإسلام دين ودولة، وبناء عليه فإنهم يرفضون أية محاولة

لعلمنة الدولة المسلمة تحت شعار المدنية والتحديث، بل ويقومون في كثير من الأحيان بمهاجمة الكتّاب والمفكرين والتصدي لمصادرة إنتاجهم وإصدار بيانات التكفير في حقهم .مع أن الخلاف بين الإسلاميين وأغلب العلمانيين كما يقول الدكتور محمد عمارة "هو خلاف حول المشروع الحضاري أي حول الدولة الإسلامية وليس حول العقيدة الإسلامية .. لذلك فإن معايير الحديث فيه والحكم على فرقائه ومقولاتهم إنما يكون بمصطلحات الصواب والخطأ وليس بمعايير الإيمان والكفر"(7) فما بالك إذ ما عرفنا بأن الإمامة ليست أصلا من أصول الدين ولا هي من اللابُدّيات بحسب تعبير صاحب" غاية المرام في علم الكلام " .ففي هذا الكتاب يقول الآمدي" واعلم أن الكلام في الإمامة ليس من أصول الديانات ولا من الأمور اللابُدّيات- أي من الضروريات الدينية- بحيث لا يسع المكلف إلا الإعراض عنها، والجهل بها، بل لعمري إن المعرض عنها لأرجى حالا من الواغل فيها"(8)

صحيح هناك من يقول من الإسلاميين بأن فكرة الشورى وما تقوم به في النظام الإسلامي قريبة جدا من دور مؤسسات المجتمع المدني، ويستند أصحاب هذا الرأي على روايات متضاربة ومواقف غامضة حدثت في عصور الإسلام الأولى، وذلك من أجل تكريس مفهوم الإسلام السياسي ودعم النظرة السائدة المعبر عنها أحيانا بشعارات طوباوية من قبيل"الإسلام هو الحل"، أو الترويج لصلاحية النظام السياسي الإسلامي على أنه نظام واعد لكل زمان ومكان، لكن هؤلاء فاتهم أثناء هذه الحملة، بأن الشورى في الإسلام تكون في كثير من الأحيان غير ملزمة للحاكم، إنه يستشير، والقرار في نهاية الأمر يعود له وحده: سواء كان القرار عملًا بما أشار به أهل الشورى أم عملا بخلافه، ناهيك عن أن أهل الشورى غير مضبوطين أيضًا في المنظومة الفقهية الإسلامية، "وإنما يجمعهم تعبير(أهل الحل والعقد) والمقصود بهم كل من له سلطان ما في المجتمع : علمية أو اجتماعية أو دينية ولكن دون تحديد لا للكم ولا للكيف

ولا للجهة ولا للزمن .. ومن هنا كانت الأدبيات السياسية في الإسلام لا تتعدى ذلك النوع المعروف بـــ"نصيحة الملوك"، إذن فالنصح وليس الرقابة ولا الحد من السلطة هو الموضوع الرئيسي في الفكر السياسي في الإسلام"(9)، وفقا لهذه الحقيقة فإن الشورى لا تقوم بدور المحاسبة والتصحيح في المسار السياسي للدولة كما هي لدى منظمات المجتمع المدني في أنظمة الدول الديمقراطية .

في هذا السياق يقول الإمام محمد عبده– وهو من كبار الفقهاء المستنيرين في العصر الحديث – أثناء حديثه عن مشروع النهضة الإسلامية "إن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ولا يرده عن خطئه، ولا يقف طغيان شهوته، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل"(10) ومن خلال هذا الاعتراف الذي يعد تكرارا للأحكام التقليدية السابقة فإن الشورى في الإ سلام لا تعني سوى طلب رأي فئة من الناس وهم في الغالب الفقهاء والعلماء وأكابر القوم، وبالتالي فإنها تختلف من نواح عدة عن الديمقراطية التي تكفل لجميع الناس على اختلاف أطيافهم حرية النشاط السياسي دون خطوط حمراء أو (يافطات) تحذيرية من السلطة الحاكمة، وبتعبير أدق فإن الشورى غير .. والديمقراطية غير كما يقول محمد عابد الجابري.

إن أهم ما تقوم به المجتمعات المدنية بغض النظر عن الإرشادات والمحاسبة هو تأكيد حرية الفرد وضمان حقوقه في إنشاء الجمعيات والنوادي وما رافقها من صحف ومجلات حرة لا تستند إلى أيديولوجية السلطة أو تطبل لها، وهذه المزية لا يمكن توفرها في المنظومة الفقهية الإسلامية المؤسسة وفقا لآراء وأحكام بعض الفقهاء حول طاعة الحاكم الواجبة ما دام في حظيرة الإسلام .

لا شك أن مفهوم المجتمع المدني استنادا إلى منهجي هيجل وماركس قد أُهمل ولم يعد مرتبطا في عصرنا الراهن بتصور ليبرالي أو اشتراكي كما في السابق، فمنذ سقوط أنموذج الدولة البيروقراطية الاشتراكية، وما نتج من تطورات على الساحة الكونية، والعالم يبحث عن مفهوم جديد للدولة المدنية

يعبر عن مجتمع المواطنين الأحرار أكثر منه تعبيرا عن نظرية سياسية معينة ومن خلال هذا التطور يمكن لنا أن نتجاوز ـ بحذر ـ التصور الفقهي الإسلامي الذي يمنح الحاكم أو الخليفة المسؤولية المطلقة أمام الله وحده وليس أمام من بايعوه طوعا أو كرها، ونستخلص بحسب الإمكانات من النصوص الدينية ما يتوافق مع عملية المراقبة والضغط الديمقراطية التي تقوم بها منظمات المجتمع المدني من أجل شق الطريق نحو وضعية ديمقراطية حقيقة .. وهذا بالطبع لن يتم إلا إذا نظرنا في النص القرآني والأحاديث النبوية بمعزل عن الآراء والتفسيرات المأثورة التي تعد من الناحية الذرائعية العائق الأساس في تعثر محاولات التحديث لدى العديد من الحركات الإسلامية المعاصر.

الإسلام والحداثة

يعد مصطلح الحداثة من الإشكاليات الفكرية والسياسية في الخطاب الإسلامي على اختلاف تعبيراته، ومن الصعب أن نعثر على مشروع متكامل أو مقاربة واضحة، ناهيك عن تصور إسلامي يتفق وما جاءت به الحداثة على الأقل من الناحية النظرية، فجميع المحاولات المطروحة في الأوساط الثقافية ما هي إلا اجتهادات فردية قام بها بعض المفكرين الإسلاميين الذين تأثروا بالحداثة الغربية والتحديث الليبيرالي الذي اجتاح العالم الغربي إبان عصر التنوير الأوروبي، وقد بدأت هذه المحاولات مسيرتها في القرن العشرين، خاصة في مرحلة ما بعد الاستعمار، حيث حدثت تحولات في بنية المجتمعات العربية التقليدية من ناحية نظمها السياسية وشكل الدولة، لكن هذه التحولات لم تحقق الحداثة كمشروع مستقل ومتكامل، لأنها أخفقت في تأسيس البنية الثقافية الخاصة بها، وعجزت في الآن ذاته عن إخفاء البنية التقليدية السائدة، وهذا يعكس بطبيعة الحال عن حالة التردد و الفشل في امتلاك أدوات الحداثة، ولعل السبب الأساس الذي أدى إلى خلق الحداثة المجهضة كما يقول برهان

غليون[11] هو سياسية التلفيق التي سيطرت بدرجات متفاوتة على المشروع الفكري للنهضة، فأخذ طرف من التراث وطرف من الحداثة دون تحليل تاريخي نقدي لكليهما يعطل مسار حركة الانتقال من الأنماط التقليدية إلى النمط العصري القائم على الاعترا ف بالحقوق السياسية والاجتماعية والفكرية .

إن المشاكل الفكرية التي يعاني منها الفكر الإسلامي اليوم سببها تعدد المرجعيات في ثقافتنا المعاصرة، فهناك فرق بين مرجعية الفكر الفرنسي مثلا ومرجعية الفكر الإنكلوسكسوني، ونلمس هذا الاختلاف ليس في ميادين الفكر وحسب وإنما حتى في ميادين الفن ونقد الأدب . وفي الوسع ملاحظة هذا التباين بصورة واضحة باستدعاء المعارك الأدبية التي حدثت بين العقاد ممثل الثقافة الإنجليزية (وطه حسين) ممثل الثقافة الفرنسية زمن الحقبة الليبيرالية في مصر .

إن الوعي بأدوات الحداثة واستخدامها بذكاء في التراث الإسلامي يساعد في تفكيك البنى الميتافيزيقيا المتمركزة حول مقولات القدرية من قبل "إن الحاكم يحكم بأمر الله وإرادته وإنه إن ظلم فإنما يظلم بظلم الناس .. فهو ليس مطلوبا منه عدل في رعية ولا نظرا إلى مصالحها، فهو إنما يفعل ما يفعل تحقيقا لمشيئة الله"[12] وغيرها من التعاليم التي تؤيد حكم السلاطين في عصور الإسلام الماضية . ووفقا لهذا المنظور ليس من الممكن في الإسلام إنشاء كيان يتمتع بالقوة والسلطة بمعزل عن الأوامر الموحى بها من الله، وبالتالي فإن هذه الفكرة المتأصلة في التراث الإسلامي تتعارض و أشكال الحداثة التي تطرح الاختلاف والمشاركة في الحكم كشرط أساسي في العقد بين الحاكم والرعية ..

نعم ! يوصف الحكم الإسلامي بالاستناد إلى التاريخ بأنه حكم فردي، لكن هذا التوصيف ليس مما نص عليه لا القرآن الكريم ولا السنة النبوية، إن نظرية الحكم في الإسلام هي قبل كل شيء خلاصة التأمل والتفكير والقياس في النصوص الدينية، قام بوضع قواعدها المنهجية طائفة من الأصوليين في أوقات

مختلفة، أي " إنها قواعد للتفكير .. ولا شـــيء يمنع من اعتماد قواعد منهجية أخرى إذا كان من شـأنها أن تحقق الحكمة من التشـريع في زمن معين بطريقة أفضل"[13]، وهذا لا يمكن حدوثه دون اكتشاف الحداثة داخل النسق الإسلامي كما يقول فضـل عبد الرحمن، وذلك من خلال التعاطي الكيفي مع النصـوص وإعادة قراءتها بطريقة تسـتند إلى منهج التأويل المنفتح، فقراءة الآية الكريمة " وأمرهم شورى بينهم " مثلا يمكن فهمها - انطلاقا من عدم وجود قواعد محددة للمشورة - على " أنها تقضي بخضوع العمليات السياسية بما فيها الانتخابات والمجالس التشـريعية إلى الشـورى في المجتمع بأسـره وعبر السـكان البالغين جميعهم"[14]على نقيض الفهم التقليدي الذي يعطى امتياز الشـورى لفئة معينة بالمجتمع، وقد ظل هذا الفهم لتفسير الآية– للأسف - هو السائد لعدة قرون.

وبناء على ما سبق يتضح أن معظم الآراء الفقهية القديمة التي تُحدد العلاقة بين الحاكم والرعية هي المسـؤولة على عدم تكيف النظام الإسـلامي وفكرة المجتمع المدني، و هذا لا يعني أن الإسـلام كدين، لا يقبل بهذا المفهوم الحداثوي، وإنما تجميد الرأي وقفل باب الاجتهاد الذي حدث في القرن الرابع الهجرى بحجة الأولين لم يتركوا لنا شـيئا في شـؤون الدين والدنيا معا، كان له دور بارز في تأخر الإسلام عن ركب الحضارة المدنية التي اجتاحت الغرب إبّان عصـر النهضـة الأوروبية . كما يمكن القول بأن أحكام الفقهاء وما رافقها من شـروح وتفاسـير مأثورة هي في نهاية الأمر آراء اسـتخلصـتها عقول بشـرية في أوقات وعصـور تختلف من نواح عديدة عن وقتنا الحالي الذي يتميز بإمكانات ورؤى لم تكن متاحة لهم، وأن الحاكم سـواء أكان خليفة أم غيره لا تجوز ولايته بالقوة أو الشوكة كما يقولون.

منظمات المجتمع المدني في ليبيا:

نبذة تاريخية عن تكون الجمعيات التطوعية والنقابات العمالية والأحزاب السياسية في ليبيا منذ ما يعرف في التحقيب الليبي بالعهد العثماني الثاني حتى حكم الإدارة العسكرية البريطانية

عقب انهيار حكم الأسرة القرمانلية بعزل علي باشا القرمانلي عام 1835م، عادت ليبيا مرة ثانية للحكم العثماني مباشرة، بتولي نجيب باشا الحكم في طرابلس، وكانت مدة ولايته أربعة أشهر ونصف، لم يحدث فيها شيء يستحق الذكر سوى سك عملة دون إذن السلطان ومحاولة الاستقلال عن الباب العالي، ثم استُبدل نجيب باشا بوال آخر هو محمد رائف باشا الذي كان حاكما لمنطقة الدردنيل، لكنه عزل لأسباب سياسية أيضا، وكان كل عام تقريبا يعزل حاكم ويتولى حاكم جديد، وقد ظلت ولاية طرابلس على هذا الحال حوالى عشرة أعوام حتى جاء الوزير محمد الأمين عام 1842م وقام ببعض الإصلاحات "فأجرى التنظيمات الخيرية، ورتب القضاءات والمديريات واللواءات، وأسس المجالس والأقلام والدفاتر، وعدّل أموال الجباية، وأجرى نظام تذاكر المرور، وأنشأ المستشفى العسكري الكائن بالمنشية"[15] ثم أنشأ الولاة من بعده بعض المستشفيات والمدارس الثانوية العصرية، وتم تدشين خدمات البريد والتلغراف، وتطوير المطبعة الحجرية وتجديد حروفها فأصبحت جريدة (طرابلس الغرب) تصدر باللغتين العربية والتركية، وأهم حدث في تلك الفترة هو تأسيس مدرسة الفنون والصنائع عام 1879م على أيام الوالي أحمد راسم باشا، وعيّن مديرا لها ضابطا تركيا برتبة (يوزباشي) رغم أنها تأسست بمال أوقاف أهل الخير من الليبيين ومن عائدات بلدية طرابلس وضريبة الحلفا وأثمان شراب اللقبي بالإضافة إلى تبرعات أهل الدواخل كونها تقبل تلاميذها من جميع أنحاء ليبيا، ويُذكر إن فكرة تأسيس المدرسة "بدأت في عهد ولاية علي رضا الجزايري الذي

أعلن منشورا إلى الناس يدعوهم للتبرع لفتح مدرسة أو إصلاحية لتربية الأطفال الأحداث والمشـــردين واليتامى وتعليمهم مهنة تفيدهم في حياتهم"[16] ومن هنا بدأ الاهتمام بإنشاء الجمعيات الخيرية والتنظيمات الأهلية في البلاد، وإن كانت محدودة الأثر، وينحصـــر دورها في الأعمال الخيرية و التعليم الحرفي مثل: النجارة، والنسيج، والسجاد، والطباعة والتجليد، كما شهدت ليبيا عام 1882م جمعية سرية (القرائخانة) تأسست في مدينة طرابلس على يد شخص غريب الأطوار يدعى إبراهيم سراج الدين، وضمت في عضويتها شخصيات مرموقة أمثال: المؤرخ أحمد النائب، حمزة ظافر المدني، وإبراهيم المهدوي، وكان من أهم أهدافها نشر التعليم والتشجيع على إقامة الجمعيات، لكنها لم تدم طويلا، حيث ألقي القبض على أعضائها بتهمة تهييج الرأي العام[17].

وفي إطار إعلان الحريات بعد صدور الدستور العثماني عام 1908م تأسست تنظيمات أهلية في طرابلس مثل: جمعية الاتحاد والترقي والجمعية النســـائية العثمانية 1909م برئاسة حرم والي طرابلس وكان الغرض من تأسيسها تعليم النساء وتربيتهن ومساعدة الفقيرات منهن على الزواج، كما ظهرت الصحافة الحرة التي لا تتبع الإعلام الرسمي مثل صحيفة (أبوقشة) وهي جريدة هزلية انتقدت سياسة الوالي بأسلوب ساخر على طريقة مؤسسها الكاتب التونسي محمد الهاشمي. وصحيفة الترقي التي تعد أول جريدة شعبية سياسية، كانت تدافع عن حرية الفكر بأ سلوب رمزي، وقد تعرض كادرها إلى الا ضطهاد ومرارة المراقبة، لدرجة أنه حصل صدام بين الوالي (أحمد فوزي) ورئيس تحريرها محمد البوصيري، بشأن مطالبة الأهالي بإصلاح التعليم والتنمية الاقتصادية بالولاية، مما أدى إلى توقف صدورها واعتقال كتابها في سجن القلعة[18].

وفيما يتعلق بنظام النقابات العمالية، فقد أكد بعض المؤرخين أن أول نواة عمالية ليبية ظهرت بين الأهالي كانت تعمل لدى شركات الحلفا، ولم يكن لها أية حقوق بما فيها تحديد ساعات العمل التي تستمر أكثر من 14 ساعة في

اليوم، ويتضح من حديث لكاتب إيطالي "إن شيخ البلد كان يشرف على الصنائع جميعها بدون اســـتثناء وهذه كانت تمثلها نقابات وهي بالرغم أنه لم تكن لها أنظمة ولوائح مكتوبة إلا أن نظامها كان دقيقا يقوم على أســـس تقليدية معترف بها في ظل حكومة البلد"[19] وكان لكل نقابة أمين ينتخب من بين أعضائها عن طريق الترشيح أو الانتخاب ويكون تابعا لشيخ البلد، وتتلخص مهامه في مراقبة الأســـعار التي تحددها النقابة و الإشـــراف على التصـــنيع من حيث دقة المنتج وجودته، ومما يدل على معرفة المجتمع الليبي ما يســـمى بنظام النقابة أو تنظيم طوائف الحرفيين بحســـب تعبير عمار جحيدر[20] وجود بعض الأســـواق في مدينتي طرابلس وبنغازي لا زالت تحتفظ إلى يومنا هذا بأســـماء بعض الصناعات والمهن مثل: سوق النجارة، وسوق الغلة، وسوق الحدادة، بالإضافة إلى ما ذكره الفقيه حسن في (يومياته) عن بعض أسماء طوائف الحرفيين مثل: الدباغة، والســـراجة، والخردجية والنوارجية، والخبازة، والرباحة والعوادة، والقزدارة..إلخ

ويمكن القول إجمالا، إن ليبيا عاشـــت نحو 360 ســـنة من حكم الأتراك في فوضـــى عارمة وثورات شـــعبية متوالية نتيجة ســـوء الإدارة العثمانية وتحكم الانكشـــارية بمقاليد الحكم عن طريق عزل الولاة أو الثورة ضـــدهم، وتدهورت أحوال البلاد لدرجة تولى فيها الخياط والقهوجي منصـــب الولاية، مما أثر على المجتمع الليبي ثقافيا واجتماعيا واقتصـــاديا، وأصـــبح الوضـــع على هذا الحال حتى جاءت الحقبة الكولونيالية الإيطالية.[21].

عهد الاحتلال الإيطالي 1943/1911م

لم يتح لليبيين تأسـيس أي نوع من الروابط أو المشـاركة في إدارة البلاد في عهد الاحتلال الإيطالي الذي تم فيه تقييد الحريات، ومنعت قراءة الصـــحف والمجلات، وأقفلت جميع مؤســـســـات الثقافة من نواد ومدارس أهلية، وكان

الناس بما فيهم العمال يساقون عن طريقة السخرة لجلب الحطب ورفع المياه من الآبار ومد الأسواق بالمنتجات والصنائع المحلية لصالح المصانع الإيطالية، ويصعب في هذه الفترة العثور على أي نقابة أو نشاط مدني في ليبيا، وقد اكتفت الحكومة الاستعمارية في السنوات الأولى من الغزو بتأكيد اللغة الإيطالية وتعليمها في المدارس وتطبيق تشريعات الشغل المعمول بها داخل إيطاليا، إلا أنه بتولي الحزب الفاشي الحكم، صدرت مجموعة من القوانين العمالية، منها قانون رقم (2066) الصادر في 20 أبريل 1935م وهو يعتبر أول تشريع عمالي بشأن الحركة النقابية في ليبيا، وقد استمر العمل به في تنظيم الجمعيات والروابط النقابية حتى نهاية الحكم الإيطالي[22] وكما يتضح من المادة الأولى من القانون أنه يخص الإيطاليين المقيمين في ليبيا ولا يشمل الليبيين أصحاب البلاد، ويمكن القول، إن جميع القوانين الصادرة أثناء الاحتلال الإيطالي لم تعترف بأية حقوق للعمال الليبيين، حتى بعد خطاب (موسوليني) في السراي الحمراء الذي سمح فيه لأول مرة دخول الليبيين الحياة النقابية وتكوين النقابات مثل: نقابة المواشي ونقابة عمال الموانئ، كان من الضروري على جميع المنتسبين أن يكونوا من الموالين للحزب الفاشي كشرط أساسي لقبولهم أعضاء في النقابات العمالية، وبذلك تكون الحركة النقابية في ليبيا حركة فاشية، ولم يكن لها أية فاعلية إلا في بعض الحالات، نذكر منها: "ما حدث عام 1938م بمدينة بنغازي، حيث عقدت نقابة الموانئ الإيطالية اجتماعا لدراسة موضوع أجور العمال العرب، ونتيجة لذلك، فقد صدر قرار يقضي بتقليص أجور العمال الليبيين بنسبة 15% بناء على اقتراح من أصحاب الشركات الإيطالية (...) لكن عمال الموانئ الليبيين عقدوا بدورهم اجتماعا وقرروا عدم استلام أي أجر منخفض ورفعوا مذكرة إلى الاتحاد العام للبحارة بجنيو بإيطاليا، والتوقف عن دفع الاشتراكات للنقابة الإيطالية، وكانت النتيجة أن أعيدت إلى العمال الليبيين أجورهم كاملة وفشل قرار النقابة بأمر من اتحاد

البحارة الإيطالي[23].

إن رفض الروابط والاتحادات بجميع أنواعها، وعدم الاعتراف بالمشاركة في الحكم أمرٌ غير مستغرب من حكومة كولونيالية تنظر إلى هذه المنظمات نظرة متوجسة كون أعضائها من السكان المحليين المشككين في شرعية وجودها، وبالتالي فإنها لا تقبل بها إلا إذا كانت خاضعة لأوامرها وتعليماته، وهو ما حدث فعلا على طول فترة الحكم الفاشي وخير دليل على ذلك، قيام السلطات الإيطالية (في إطار سياسية الطلينة) بمحاربة اللغة العربية وإغلاق المدارس والزوايا الدينية ومصادرة الأوقاف، وإنشاء بدلا عنها مدراس إيطالية ومحاولة فرض اللغة الإيطالية في المكاتبات الرسمية وفي أسماء الشوارع والميادين بالمدن الليبية، وإرغام الموظفين الليبيين على خلع الزي المحلي وارتداء الزي الإفرنجي، وإقامة دور الفحش والدعارة وإنشاء الكنائس على سبيل التبشير بالدين المسيحي، وتضييق كل محاولة للتعليم الديني داخل البلاد أو خارجها، وفي هذا الصدد أشار المؤرخ المصري رأفت الشيخ: إلى بعض الإجراءات المتخذة من قبل السلطات الإيطالية منها: إنشاء مدرسة إسلامية عليا في طرابلس نصبوا على مدخلها صليبا كبيرا من أجل تعليم أبناء الليبيين، ممارسة رقابة صارمة على الطلاب المتجهين إلى التعليم الديني في الجامع الأزهر، خشية من مؤثرات التعليم المدني الحديث في مصر[24]. وبذلك، وأدت في وقت مبكر كل محاولة تسعى إلى تكوين منظمة مدنية مستقلة في ليبيا.

عهد الإدارة العسكرية البريطانية 1951/1943م

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية انتهت سيطرة الحكم الإيطالي على ليبيا وحلت محلها الإدارة العسكرية البريطانية بدخول جيوش الحلفاء مدينة طرابلس في يناير 1943م حيث بدأت التنظيمات النقابية في الظهور، فأنشأ مكتب العمل والعمال في مدينة طرابلس في فبراير 1943م الذي كان يقوم في بادئ

الأمر بتزويد القوات البريطانية المقاتلة باليد العاملة، ثم تأسس نادي العمال عام 1944م وانتخب أحمد قنابة رئيسا له "وقد قوبل تكوين هذا النادي بفرح بالغ من الأوساط العمالية حيث عرف الجميع أن أهدافه الحقيقية هي خدمة العمال والمطالبة بتحسين أوضاعهم"[25]، كما نشطت الحركة العمالية في برقة بإنشاء اتحاد عام للعمال في بنغازي عام 1945م، وعندما تم إرغام سلطات الاحتلال على الاعتراف بالتجمعات العمالية، وصدر قانون في كل من ولايتي طرابلس وبرقة، يبيح للنقابات مزاولة نشاطها النقابي وفقا لشهادة تسجيل مرخص بها قانونا، بشرط ألا يتدخل أعضاء النقابة في السيا سية، ومع ذلك، حاولت بعض النقابات مثل اتحاد النقابات الطرابلسية الذي كان يسيره محام إيطالي شيوعي يدعى (تشبيللي) الخوض في الأمور السياسية، فشارك العمال في المظاهرات التي قامت ضد مشروع بيفن سفورزا وانضم كثير منهم إلى حزب المؤتمر للمطالبة باستقلال ليبيا، وفي عام 1950م دخل الاتحاد في صراع مرير مع الحكومة المؤقتة بعد انضمامه إلى اتحاد العمال العالمي وإبعاد المحامي الإيطالي باعتباره شخصية متطرفة ذات ميول يسارية.

كما شهدت البلاد في عهد الإدارة العسكرية البريطانية عديد من الأطر الثقافية مثل تكوين الجمعيات الأهلية وتأسيس الأحزاب، نذكر منها: الحزب الوطني الذي تأسس عام 1944م وقام بمظاهرات واسعة ضد الجالية اليهودية وسلطة الإدارة العسكرية البريطانية بزعامة أحمد الفقيه حسن، وحزب الجبهة الوطنية الذي تأسس عام 1946م على يد كبار أعيان مدينة طرابلس كرد فعل مباشر على مشروع (بيفن ا سفورزا) وحزب الاتحاد المصري الطرابلسي الذي كونه علي رجب المدني ولم يكن له شعبية واسعة، لمناداته باتحاد مع دولة مصر تحت تاج الملك فاروق، وجمعية عمر المختار التي تأسست في مصر عام 1942م من قبل أسرى الحرب وبعض أعيان برقة بمباركة الأمير محمد إدريس السنوسي، وكانت أغراضها وفقا للمادة الثالثة من قانونها الأساسي تنحصر في

الثقافة والرياضة والأعمال الخيرية، وبعد إصدار مفوض الشؤون المدنية البريطاني الإذن بتسجيل الجمعية (كنادٍ للرياضة والثقافة) تأسس نادي عمر المختار رسميا في أبريل 1943م وبدأ نشاطه السياسي واضحا حينما وجه انتقادات لاذعة للإدارة العسكرية البريطانية عبر صحيفة الوطن التي يملكها مصطفى بن عامر ويرأس تحريرها محمد الصابري. وفي أوائل 1945م تكونت رابطة الشباب في بنغازي لمنافسة جمعية عمر المختار، وتعاطف معها عمر باشا الكيخيا، وكان أول رئيس لها هو (سيد غبدالمجيد) وانضم إليها مثقفون من بنغازي ودرنة، نذكر منهم: (رجب النيهوم) رائد الحركة النقابية في برقة وكذلك الشاعر (عبد ربه الغناي) وأصدرت الرابطة جريدة ناطقه باسمها هي جريدة (الاستقلال) سنة 1947م التي غيرت اسمها إلى (صوت الشعب) عام 1948م[26].

وقد كانت كل هذه المنظمات والأحزاب تنادي باستقلال ليبيا ووحدة أقاليمها، والانضمام إلى الجامعة العربية، مع اختلاف في وجهات النظر حول شكل النظام السياسي والإمارة السنوسية مما أدى إلى فتن ومنازعات حزبية، فاضطر الأمير إدريس السنوسي عام 1947م إلى حل جميع الأحزاب السياسية في برقة لتوحيد النشاط السياسي عبر مسار واحد يمثله (المؤتمر الوطني البرقاوي) الذي جرى تأسيسه يوم 10 يناير 1948م لكي يحل محل الجبهة، وما من شك، أن مثل هذا الإجراء كان له تأثير جوهري في وقف نمو منظمات المجتمع المدني في بلاد تسعى نحو الاستقلال وبناء دولة حديثة تواكب العصر، وتواجه التخلف الذي فرض عليها لسنوات طويلة من تاريخها، وتأمل في التخلص من ارتفاع نسبة الأمية الذي بلغ 90% بحسب تقرير بعثة اليونسكو إلى ليبيا عام 1949م[27] جراء إهمال التعليم في العهدين التركي والإيطالي ثم في عهد الإدارة العسكرية البريطانية، وكان من المأمول أن ينتهي وجود الإنجليز في البلاد بانتهاء الحرب العالمية الثانية، لكنهم، آثروا البقاء، فقاموا بفتح

المدارس في طرابلس وبنغازي ودرنة، ووضعوا مناهج دراسية تتفق والسياسية الإنجليزية، وحاربوا وجود الأندية الثقافية إلا ما يتفق مع مصالحهم، ولم يسمحوا بحرية الصحافة فيما عدا جريدتي طرابلس الغرب، وبرقة الجديدة اللتين كان يصدرهما مكتب الاستعلامات البريطاني في كل من طرابلس وبنغازي، واستخدام هاتين الجريدتين لتوجيه المواطنين إلى ما تريده الإدارة العسكرية الاستعمارية[28].

الاستقلال

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بهزيمة إيطاليا تحول شأن المستعمرات الإيطالية إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة وفقا للفقرة الثالثة من الملحق الحادي عشر من معاهدة الصلح المبرمة مع دولة إيطاليا عام 1947م. وبعد سماع أقوال وآراء ممثلي الهيآت ومراعاة لرغبات سكان أقاليم ليبيا (برقة، طرابلس، فزان) منحت الجمعية العامة للأمم المتحدة في 21 نوفمبر 1949م الأقاليم الليبية كافة استقلالها كدولة حرة ذات سيادة شريطة أن يتم تطبيق هذا القرار فعليا في فترة لا تتجاوز أول أيام شهر يناير من سنة 1952م. أي بمعنى أنه إذا لم يتمكن الليبيون من إعداد الدولة الذي يتطلب وضع دستور وتحديد نظام الحكم وتشكيل حكومة فإن قرار الاستقلال الذي تحصلت عليه (بأغلبية صوت واحد) سيفقد فاعليته، لذلك قام ممثلو الشعب الليبي في الأقاليم الثلاثة بتشكيل الجمعية الوطنية (التأسيسية) وهي المخولة في نص القرار الدولي بمهمة إنجاز وضع الدستور ونظام الحكم في ليبيا. وبالفعل ففي يوم 24 ديسمبر 1952م أعلن استقلال ليبيا رسميا بُعيد موافقة الجمعية الوطنية على الدستور الذي يتألف من مئتين وثلاث عشرة مادة، كما تم الاتفاق على اتخاذ النظام الاتحادي (الفيدرالي) لتنظيم إدارة الأقاليم الثلاثة، ومبايعة الأمير محمد إدريس السنوسي كأول ملك لهذه الدولة الوليدة.

النظام الملكي في ليبيا ومؤسسات المجتمع المدني:

"لقد تميز وضع الدولة في الوطن العربي، في الماضي كما في الحاضر بنفي (الشريك) عن الحاكم، وهذا في حين أن الديمقراطية في جوهرها ليست شيئا آخر غير (الشرك) في الحكم"

✍ محمد عابد الجابري

لم يكن لدى ليبيا منذ إعلان استقلالها في يوم 24 ديسمبر 1951م أي دور لما يسمى بمؤسسات المجتمع المدني بمفهومها الغربي الحداثوي رغم وجود بعض الجمعيات التطوعية والنوادي الاجتماعية والنقابات العمالية يعود تأسيسها إلى فترة الحكم العثماني الثاني في ليبيا وبداية الغزو الإيطالي.

ولعل السبب في عدم تفعيل مثل هذه المؤسسات يرجع إلى طبيعة نظام الحكم الذي يشترك والأنظمة التقليدية في عدائه للتنظيمات والجمعيات التي تسعى نحو الإصلاح والرقابة وتوسيع دوائر صناعة القرار والتعايش من أجل المصير المشترك، ففي العهد الملكي في ليبيا (1969/1951م) كانت هناك قوانين تجرم الأحزاب وتشكيل المنظمات بجميع أنواعها، وكانت هناك محاكمات للبعثيين والقوميين والنقابيين، باختصار، لقد بني نظام الدولة في تلك الآونة على التحالفات القبلية والعشائرية "الأمر الذي جعلها تقليدية الهوية والبنية ومرتابة من كل توجه مدني تحديثي"[29] وإلا كيف يمكن تفعيل منظمات مجتمع مدني في دولة عملت منذ تأسيسها بعقلية تعطي العامل الجهوي الأولوية فيما يتعلق بالمناصب السيادية، فعلى سبيل المثال كان معيار الملك محمد إدريس في اختيار رئيس الحكومة ليس الكفاءة والقدرة على إدارة

الحكم، وإنما التوازن بين الأقاليم (طرابلس، برقة، فزان) والدليل على ذلك أنه كلف وزير مالية بحكومة سابقة (متهمة بفساد مالي) بتشكيل حكومة جديدة، وحينما سأله السيد مصطفى بن حليم عن الأسباب التي جعلته يختار السيد محمد عثمان الصيد بتشكيل الوزارة الجديدة؟ أجابه قائلا: "لقد كان الدور على فزان، ذلك أن رؤساء الوزارات الأربع الأولى كان اثنان منهما من طرابلس واثنان من برقة، لذلك رأيت من الإنصاف إعطاء الدور لفزان"[30] هذا العمل ليس غريبا، فالملك رغم اعترافه بالحياة الدستورية منذ إعلان الاستقلال بقصر المنار[31]، إلا أنه كان كثير التجاوز لصلاحياته في عدة مناسبات، نذكر منها ما يلي:

- إجراء تعديل وزاري في حكومة السيد محمود المنتصر دون استشارته ما جعل الأخير يسارع بتقديم استقالته.

- العمل على حل المجلس التشريعي الطرابلسي بتأثير من ناظر الخاصة الملكية (إبراهيم الشلحي) الأمر الذي جعل القضاء الإداري والدستوري بالمحكمة العليا يقضي بعدم دستوريته، على أساس أن الشخص الوحيد المخول في مثل هذا العمل هو رئيس الوزراء الاتحادي، وأن الإجراء السليم لحل المجلس التشريعي هو إصدار مرسوم ملكي يوقعه رئيس الوزراء إلى جوار توقيع الملك. ومما يجدر بالذكر، قد نتج عن حكم المحكمة المشار إليها، قيام مظاهرات في العاصمة طرابلس وبنغازي وطبرق تنادي بسقوط المحكمة العليا وتهتف بحياة الملك. ولعمري، لو كان في ذلك الوقت منظمات مجتمع مدني حقيقية لما أقدم عبدالله عابد السنوسي (ابن عم الملك) على قيادة مجموعة من الغوغائيين ومهاجمة مقر الحكومة والتنديد بسقوط أعلى سلطة في البلد.

من الواضح أن الملك إدريس الذي وضع كل السلطات في يده وحل الأحزاب السياسية بعد أول انتخابات نيابية، لم يكن مقتنعا مثل غيره من الحكام التقليديين بدور المشاركة في الحكم، سواء عن طريق الأحزاب أو

المنظمات المدنية، وقد اعترف بذلك صـراحة في أكثر من مناسـبة، أشـهرها خطابه قبل الاستقلال بالحفل الذي نظمته جمعية عمر المختار في بنغازي 20 يوليو 1944م، وقد جاء فيه: " **إخواني، لا أرغب في وجود جمعيات متعددة ولا أحزاب، مهما كانت الغاية صـالحة (...) إن عدد أمتنا وقلة ثروتنا لا يحملان تعدد الجمعيات، أما ضـرر كثرة الأحزاب فقد أصبح ظاهرا حتى في الأمم التي سبقتنا بمراحل شاسعة في المدنية والحضارة**"[32]. لقد استوعب الملك طبيعة المجتمع الليبي، وعمل منذ فترة الجهاد الوطني على تسيير دفة الحكم بعقلية (رئيس القبيلة) التي توجب احترام الشيوخ والانصياع التام لأوامرهم، " من لا يوقّر كبيرنا ويرحم صغيرنا ليس منّا" لهذا شدد على جمعية عمر المختار الذي رعى تكوينها منذ نشأتها في المهجر على عدم ممارسة السياسية، وقد أعلن في 12 ديسمبر عام 1947م حلها مؤكدا أن قراره كان موجها فقط ضد أنشطتها السيا سية، والدليل أنه سمح لأعضائها بمزاولة بعض الأنشطة التي تنحصر في الأمور الرياضية والثقافية والترفيهية. وما إن جاء شـهر يوليو عام 1951م حتى حلت جمعية عمر المختار رسـميا بقرار وزاري، وصـودرت جميع مؤسساتها وأقفلت جميع التنظيمات التابعة لها مثل الكشـاف ونادي الأهلي وجريدة الوطن، وكان ذلك نتيجة مظاهرات قام بها أنصـار الجمعية على خلفية دفن مسـلم متوفى بالمستشفى المدني، انتهت بالهجوم على منزل المعتمد البريطاني[33]، فاضطرت الحكومة إلى اعتقال بعض الشخصيات البارزة فيها من بينهم رئيس الجمعية مصطفى بن عامر، وطاهر المجريسي وعلي زواوة.

ورغم وجود مؤسسات مدنية طوعية تشارك في حدود ضيقة في بناء الدولة أثناء الحقبة الملكية مثل: حركة الكشافة وقوافل العمل التطوعي من أجل محو الأمية، وجمعية الهلال الأحمر، وصـحف ومجلات وكتل برلمانية معارضـة تحاسب الحكومة وتقوم باستجوابها في القضايا المهمة، ومع ذلك، كان هناك

صدامات سياسية متعددة نذكر منها: ما حدث بين نقابات العمال والحكومة في يونيو أثناء الاضطرابات العامة خلال الحرب العربية –الإسرائيلية، حيث "واجهت الحكومة الليبية خلال تلك الأزمة تحديا قويا من نقابات العمال الراديكالية، فلقد تحدت القيادات العمالية محاولات الحكومة للحفاظ على استمرارية الأوضاع الاقتصادية العادية، ودعت إلى إضراب عام في حقول النفط ومقاطعة السفن الأمريكية والبريطانية. ولقد قاد هذه الحركة نقابيون راديكاليون شبان كانوا قد تولوا قيادة نقابات عمال النفط وعمال الموانئ، مما زاد من النشاط والدور السياسي لهذه النقابات، وكان رد فعل الحكومة قويا وقامت باستعمال قوة الشرطة والجيش لإيقاف الإضراب والقبض على القيادات العمالية الراديكالية، وبذلك نجحت الحكومة في تقليص دور الحركة العمالية كقوة سياسية محتملة"[34]. واعتمدت في المقابل على استقطاب العناصر القبلية والجهوية وتزوير الانتخابات وساندت مؤيديها بمناصرة طرف على آخر.

عليه، وفي ظل هذه الظروف، لا يمكن بناء دولة قوية من خلال مجتمع مدني فعال يجابه بمؤسساته وأحزابه ومنظماته الأهلية التيارات الحاملة للقيم التقليدية، ويقوم بمراقبة السلطة الحاكمة في الأداء والنتائج، فمن أهم وظائف المجتمع المدني بحسب تعبير (غرامشي) هي الهيمنة التي تتم بواسطة المثقفين، وهذا المطلب لن يتحقق في المجتمعات التي يجعل أفرادها الانتماء للقبيلة أو صلة الدم فوق جميع الاعتبارات، وفي هذا الصدد يقول محمد عابد الجابري: "إن المجتمع المدني هو قبل كل شيء مجتمع المدن، وإن مؤسساته هي تلك التي ينشئها الناس بينهم في المدينة لتنظيم حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، فهي إذا مؤسسات إرادية أو شبه إرادية يقيمها الناس وينخرطون فيها أو يحلونها أو ينسحبون منها، وذلك على النقيض تماما من مؤسسات المجتمع البدوي/القروي التي تتميز بكونها مؤسسات طبيعية يولد الفرد فيها منتميا إليها مندمجا فيها لا يستطيع الانسحاب منها مثل القبيلة

والطائفة"[35].

إن الهدف الأساس من منظمات المجتمع المدني هو إيجاد أحسن صيغة ممكن للحد من سلطة الحاكم وممارسة رقابة صارمة على أجهزة الدولة، وهذا الأمر لا يتوفر إلا بوجود مؤسسات أهلية قوية تخضع لها جميع أجهزة الدولة كونها تمثل بصورة مباشرة إرادة المحكومين.

من هنا يمكن القول، إن العهد الملكي في ليبيا لم يشهد مؤسسات مجتمع مدني مستقلة تماما عن سلطة الدولة، وإن وجدت بعض الجمعيات على اختلاف مسمياتها، إلا أنه لم يكن لها أي دور في الأغراض السياسية كالمشاركة في صنع القرار، وحتى جمعية الهلال الأحمر التي تكونت بالأساس من أجل التكافل الاجتماعي وعون الناس الذين يحتاجون إلى الخدمات الصحية والتعليمية، تم اعتماد أول نظام سياسي لها عام 1957م بمرسوم ملكي، وتدخلت الدولة في تمويلها ووضعت قوانين ونظما داخلية لها، بل أصبح وزير الصحة عام 1959م رئيسها الفعلي، وبذا، فقدت الجمعية فاعليتها بحيث أصبحت تعكس النموذج التعاوني الكوربورتاوري (*corporate model*) الذي يبرز هيمنة الدولة على المنظمات غير الحكومية، مما أثر على طبيعة عملها، وأحرجها دوليا في عدة مناسبات، أشهرها ما حدث أثناء (زلزال المرج) عام 1962م حينما طلبت الحكومة من الجمعية عدم قبول تبرعات لصالح الضحايا من منظمة الصليب الأحمر أو أية منظمة دولية[36]، وهذا يؤكد توجس مؤسسات الدولة الرسمية من منظمات المجتمع المدني والأنشطة الأهلية التي تتطلب الاستقلالية عن سلطة الدولة، زد على ذلك، أن نظام الحكم في ليبيا في تلك الحقبة ساهم بشكل كبير في تأصيل مبدأ (الرعايا) لا (المواطنة). بالإضافة إلى تشجيع القبيلة ودعمها بجميع الإمكانات، ويحدثنا بشير المنتصر في مذكراته (شاهد على العهد الملكي في ليبيا) قائلا: "لقد كنت واثقا أن نظام الحكم في ليبيا يقوم على ركيزتين أساسيتين، الأولى: العامل القبلي والجهوي

الذي شجعته بعض الحكومات الليبية والولايات السابقة واستشرى بين فئات كثيرة من الشعب، والثانية العامل القومي (...) وأن أي تجاهل لهذين الاعتبارين السياسيين من طرف أي زعيم أو سياسي ليبي لا يكتب له النجاح في النظام الليبي"(7)، وهو ما حدث فعلا بالعهدين الملكي والجماهيري، ففي عهد المملكة تم التركيز على القبلية باعتبارها الداعم الأساس لشرعية الملك في الوقت الذي ألغيت فيه الأحزاب ولم يعد في البلاد أي تنظيم شعبي له دور فعّال في شؤون الدولة، وكذلك في العهد الجماهيري حاول القذافي من أجل تقوية حكمه دعم القبيلة والدعوة إلى القومية في آن. ولا شك، أن التمسك بالنظام القبلي في ليبيا هو السبب الأساس في عدم وجود مجتمع مدني فاعل، ذلك أن الديمقراطية قد ارتبطت تاريخيًا بتقويض النظام القبلي وانهيار سلطة شيخ القبيلة، بالمقابل قيام دولة المدنية وحق المواطنة.

إذا، لم يكن العهد الملكي من أزهى فترات الحكم في ليبيا، بل كان مرحلة حرجة تعرض فيها الشعب الليبي لإجراءات تعسفية كانت ضد رغباته، كتزوير الانتخابات البرلمانية، وإلغاء الأحزاب وتقييد المنظمات والجمعيات الأهلية، وقد انعكس كل ذلك على إدارة البلاد في جميع المستويات بما فيها المستوى المعيشي للمواطن، مما مهد لظهور محاولات عدة لتغيير الحكم، آخرها حركة 1 سبتمبر 1969م وهو أمر طبيعي في ظروف دولة حديثة العهد بالاستقلال ما زالت في طور الانتقال من مجتمع الأرياف إلى مجتمع المدن.

منظمات المجتمع المدني في ليبيا في عهد القذافي:

"إن الديمقراطية الحقيقية لم توجد أبدا، ولن توجد أبدا، مما يخالف النظام الطبيعي أن يحكم العدد الأكبر وأن يكون العدد الصغير هو المحكوم، ولا يمكن أن نتصور بقاء الشعب مجتمعا على الدوام للنظر في الشؤون العامة، ونستطيع أن نرى بسهولة أنه لا يمكن إقامة لجان من أجل ذلك دون تغيير في شكل الإدارة"

✍ جان جاك روسو

منذ الأيام الأولى من حركة (الضباط الوحدويون الأحرار) عمل مجلس قيادة الثورة (متأثرا بسلسلة الانقلابات العسكرية في تلك المرحلة) على عزل المواطن عن السلطة وإلغاء الواقع القائم ليطرح واقعا آخر بديلا عنه، انطلاقا من تحليله، الذي يرى في نفسه نظاما شعبيا، منتميا إلى الجماهير، بمعنى أنه أراد أن يلغي كل ما يتصل بالنظام الملكي، ويستبد برأيه غير مؤمن بأي تنظيم مدني يسعى للمشاركة في الحكم أو افتكاكه بإيجاد مرحلة انتقالية تمهد لانتقال السلطة بطريقة سلمية، لذلك أعلن عقب البيان الأول بأن مجلس قيادة الثورة هو أعلى سلطة سياسية في البلاد ويمارس أعمال السيادة والتشريع وفقا لنص المادة الثامنة عشرة من الإعلان الدستوري، ولقد جاء في المبادئ الخمسة للحكم الثوري التي أعلنها القذافي خلال اجتماع شعبي يوم 16 أكتوبر 1969م إلغاء الأحزاب السياسية، ومن أجل إضفاء الشرعية على النظام الثوري أسس ما يعرف بالاتحاد الاشتراكي العربي على غرار التنظيم المصري عام 1971م، وحدده بأنه (التنظيم السياسي الشعبي للجمهورية العربية الليبية) لإتاحة الفرصة أمام الشعب بالمشاركة في السلطة إلى جانب مجلس قيادة الثورة في محاولة لضم

جميع قوى الشعب العاملة في إطار سياسي واحد تتحقق من خلاله مصالح الأمة، وإلغاء كل توجه مدني يسعى في الشرك بالسلطة بما فيها التشكيلات الأهلية والأحزاب السياسية، استنساخا لما حدث تماما في مصر عام 1953م عندما أصدر مجلس قيادة الثورة (قانون حل الأحزاب) وإقامة تنظيم (الاتحاد الاشتراكي) كي يملأ فراغ غياب الكتل الشعبية والأحزاب السياسية[38].

وفي عام 1973م أعلن القذافي (نكاية في الشيوعيين والرأسماليين والإخوان المسلمين) النقاط الخمس في مدينة زوارة، ومما جاء فيها: "تطهير البلاد من جميع المرضى أو المعوقين السياسيين، والحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب"، ومن هنا قُفل باب الحوار مع جميع التيارات السياسية باعتبارها مضادة للثورة. يقول القذافي (ردا على سؤال بشأن إلغاء الأحزاب) : "بالنسبة للحزبيين وأعداء الثورة، أعلنت فعلا في خطاب زوارة بأننا أغلقنا باب الحوار معهم بعد أن بذلنا معهم مجهودا جبارا طوال أربع سنوات، بلا جدوى، من ناحية أخرى، تأكد لي أن الثوريين في جميع بلدان العالم حين يتصورون – عن حسن أو سوء نية – أنهم يحكمون بدلاً عن الشعب، فلا بد أنهم يصلون إلى حكم الاستبداد أو حكم القلة (...) لا يمكنني أن أسمح بوجود أي حزب لا بد وأن ينتهي به الأمر إلى السيطرة على الشعب بعد تطويقه وإخضاعه، وبتعبير آخر لا يمكن أن أسمح لأية طبقة أو حزب أو فرد يحكم الشعب الليبي، ولو برضاه، ذلك لأن مثل هذا الحكم سيؤدي حتما إلى الدكتاتورية، وفي اللحظة التي بدأنا فيها نعي أنفسنا، وصار علينا أن نقمع بالقوة أي معارضة للثورة، في تلك اللحظة أقدمنا على عمل إيجابي: فبدلا من أن نتحول إلى طغاة فضلنا إعادة زمام السلطة للشعب بحيث نتفادى أي سبب لوجود معارضة، وباستثناء مجلس قيادة الثورة والوزارات، فإن كل الإدارات والمؤسسات الليبية معرضة للاحتلال من قبل الجماهير (...) وبفضل هذه الديمقراطية الشعبية لا يعود للشيوعية مكان ولا مبرر لوجودها بيننا (...) وطالما أن الشيوعيين والرأسماليين لا يسمحون لنا

بأن ننشط على أرضهم، فلماذا نسمح لهم نحن بالتحرك على أرضنا"[39].

وعن الإخوان المسلمين قال: "الواقع هو أننا لو سمحنا للإخوان المسلمين بالعودة، لبادروا إلى تنظيم حزب، وكما سبق وذكرت لك، لا يمكن أن نسمح بحزب لن يبث أن يسيطر على الشعب، ثم إني لا أرى أن الإخوان المسلمين يمثلون الفلسفة الإسلامية بالمعنى الحقيقي للكلمة، هم في نظرنا عملاء للاستعمار، ولذلك نحن نرفضهم، هم أعداء الاشتراكية والوحدة العربية والقومية العربية، وطالما أنهم من دعاة الوحدة الإسلامية فهم حتما ضد الوحدة العربية (...) وبعد كل هذا، إن الإخوان المسلمين ومثلهم حزب التحرير الإسلامي ليسوا سوى عملاء للغرب"[40].

إن مفردات الإقصاء وتخوين الآخر استخدمها القذافي من أجل إزاحة كل توجه يحاول عرقلة مشروعه المتمثل ليس في حل مشكلة نظام الحكم في ليبيا وإنما في إيجاد حل لكل مشاكل الحكم السياسي الذي يعاني منه العالم كله، لذلك أعلن عام 1977م قيام سلطة الشعب بعد أن حدد في الركن الأول من (الكتاب الأخضر) الطريق الثالث الذي أراده بديلا عن الشيوعية والرأسمالية، وبذا يستطيع الشعب أن يحكم نفسه بنفسه عن طريق المؤتمرات الشعبية، وهي المسار الوحيد للديمقراطية المباشرة المعبرة (دون نيابة أو تمثيل) عن إرادة الجماهير. على خلاف الديمقراطية التقليدية القائمة على المجالس النيابية وتكوين الأحزاب التي لا تصلح لشعوب العالم الثالث، فالحزب هو الدكتاتورية العصرية، وليس أداة ديمقراطية على الإطلاق، لأنه يُمكّن أصحاب الرؤية الواحدة أو المصلحة الواحدة من حكم شعب بأكمله، لذلك نحت القذافي مقولات من قبل: "لا نيابة عن الشعب" "والحزبية إجهاض للديمقراطية" "ومن تحزب خان" ليقدم الحل النهائي لمشكلة أداة الحكم، وهي المشكلة السياسية الأولى (بحسب قوله) التي تواجه الجماعات البشرية[41].

وهكذا، اعتبر القذافي تكوين الأحزاب خيانة وطنية تستلزم عقوبة مشددة

تصـــل إلى حد الإعدام، وجرّم من ينتمي إليها مثله في ذلك مثل الملك إدريس باعتبارها ضـــارة بالمصـــلحة الوطنية، وفي مثل هذا الواقع الذي يحســـب العمل الحزبي لعبة هزلية خادعة تقوم على شـــكل صـــوري للديمقراطية، كيف يمكن تفعيل مؤسسات مجتمع مدني في نظام يحكم بالسلطة الجماهيرية المباشرة؟

لقد سـيطرت الدولة على المؤسـسـات الأهلية مثل الكشـافة والهلال الأحمر ومدرسـة الفنون والصـنائع وعلى مؤسـسـات المجتمع التقليدي كافة، وأصـدرت عـدة قوانين فيمـا بين عـام 1970م إلى 1987م تنظم الجمعيـات الخيريـة والنقابات المهنية وفق شروط على رأسها (الولاء للسلطة).

وبعد صـــدور (الوثيقة الخضـــراء) عام 1988م تم إدماج النقابات والروابط والاتحادات في سلطة الشعب، وهذا يعني، أنه "لا مجال لأي ممارسات سياسية خارج المؤتمرات الشـعبية بصـفتها الاعتبارية، حيث لا يجوز لها طبقا للقانون الســـاري ممـارســـة العمـل الســـيـاســـي، إلا إذا كـان في إطـار النظريـة الجماهيرية"[42]، ومن خلال هذا الإدماج فقدت مؤســـســـات المجتمع المدني فعاليتها واســـتقلاليتها الكاملة، وأصـــبحت مهمتها قاصـــرة على العمل المهني، بحجة ليس هناك ما يمنع الفئات التابعة لها من ممارسـة النشـاط السـياسـي عبر المؤتمرات الشـعبية الأسـاسـية، وبالتالي لا يوجد مبرر لمبدأ (الاسـتقلالية) عن أجهزة الدولة الرسـمية، بل تم تعبئة المنتجين للدفاع عن سـلطة الشـعب ومبادئ النظرية العالمية الثالثة عن طريق تكوين لجان ثورية في كل مؤتمر إنتاجي وهو ما يعرف بثورة المنتجين. وقد نتج عن هذا الوضـــع ضـــعف كبير على مســـتوى المبادرة الذاتية للعمل النقابي الذي أصبح تابعا لأيدولوجية السلطة مما أدى إلى غياب العمل المســـتقل للنقابات والروابط والاتحادات بما فيها الجمعيات الأهلية التي قيّدها قانون رقم[19] الذي يعطي الدولة الحق في الترخيص أو عدم الترخيص لإشـــهار الجمعيات ويراقب نشـاطها أو حلها أو دمجها بالمؤســـســـات الحكومية، وهو ما يتعارض مع مبدأ الاســـتقلالية وعدم الربح والمنفعة والتطوع

في إنشاء منظمات المجتمع المدني.

يتضح مما سبق، أن أنماط التفاعل بين مؤسسات المجتمع المدني وبين الدولة في عهد القذافي تقع ضمن النموذج التعاضدي (كوربورتارية الدولة) وذلك للأسباب التالية:

1- إلغاء الأحزاب وتجريمها بحسب قانون رقم (71) لعام 1972م

2- تحكم الدولة في تنظيم النقابات والروابط المهنية وإلغائها بقرارات وقوانين رسمية والتدخل في عملية اختيار قياداتها من خلال تنظيم (اللجان الثورية)

3- إسهام الدولة في تمويل المنظمات خاصة في مراحل التأسيس

4- تدخل الدولة في سياسية المنظمات وأنشطتها وعلاقاتها الخارجية (على سبيل المثال) المادة 127 من قانون نقابات العمال.

5- توجيه الدولة للمنظمات خدمة لمشروعها الأيدلوجي

ونتيجة لهذه الإجراءات أصبحت منظمات المجتمع المدني جزءا من البنية التنظيمية الرسمية ومن أدوات النظام السياسي في ليبيا، لدرجة تولى بعض قياداتها مناصب مهمة في مؤتمر الشعب العام وفي اللجنة الشعبية العامة (الوزارات) كالتعليم والإعلام والثقافة وظلت البلاد على هذه الحال تحكم باسم الديمقراطية المباشرة عبر الهيكل التنظيمي لمؤتمر الشعب العام.

إلا أنه مع بداية التسعينات حاول القذافي توظيف القبيلة للتخلص من المعارضة في الداخل والخارج، وذلك عن طريق توقيع وثيقة عهد ومبايعة لأثبات الولاء والارتباط بالثورة وقيادتها، ولقد عبر القذافي عن ذلك بوضوح عندما أشار إلى ضرورة قيام القبائل بحصار الخيانة الاجتماعية، الأمر الذي أنتج مؤسسة جديدة ضمن إطار النظام السياسي وهي "القيادات الشعبية الاجتماعية".

وفي عام 1995م اجترح القذافي ما يسمى بـ (وثيقة الشرف) "التي ركزت على فكرة المسئولية الجماعية والعقوبة الجماعية في حالة قيام أعضاء من القبائل بخيانة البلاد والنظام الثوري، كان على زعماء القبائل تحمل مسؤولية تصرفات وأفعال أعضاء القبيلة، وأي فشل في معاقبة المخطئين يؤدي إلى عقوبة جماعية لكل القبيلة أو الأسرة"[43].

وفي غمار هذا الوضع المتردي استشرى الفساد في جميع مفاصل الدولة، وغلبت الوساطة ومصلحة القبلية "على حساب قواعد العمل السياسي التي تزكي الكفاءة والقدرة الإدارية، وتقوم على مبادئ الدولة المدنية الحديثة المبنية على قيم المواطنة والمشاركة والمقدرة، بغض النظر عن الانتماء القبلي"[44]. وبالتالي، لا يمكن قيام أحزاب وكذلك بناء مجتمع مدني في مثل هذه الظروف.

وبعد انتفاضة فبراير عام 2011م تنفس الشعب الليبي الصعداء، وتم تشكيل منظمات مجتمع مدني وصل عددها حوالى 4 آلاف جمعية وأكثر من 70 حزبا سياسيا بحسب دراسة أنجزت عام 2015م[45] ومع ذلك، ما زال هناك اقتناع بأن حمل البنادق هو الحل النهائي لحسم الصراع السياسي في ليبيا، بدلا من الحوار والتفاوض على قيم جديدة ومجتمع جديد.

على سبيل الختم:

إن نظام الحكم في ليبيا سواء بالعهد الملكي أو القذافي لا يقبل الاختلاف في الرأي ولا يسمح بظهور قوى أهلية قادرة على التطور بمعزل عن إرادة الدولة، كما أن غياب الحياة الحزبية والبرلمانية ساعد في تعطيل عملية تحديث المجتمع الليبي لعدة عقود رغم اعتماد ميزانيات ضخمة لمخططات تنموية مثل: الخطة الخمسية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للسنوات (1963/1968م) والخطة الثلاثية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للسنوات (1973/1975م) وخطة التحول الاجتماعي والاقتصادي للسنوات (1976/1980م) يرجع هذا

بسبب عناية هذه المخططات بمظاهر التحديث المادي المتمثل في توفير السكن للمواطنين وشق الطرق وامتلاك مواد صناعية حديثة مثل الثلاجة والتلفزيون والسيارة، ولم يتم الاهتمام بتحديث العقل الليبي، لأن امتلاك الحداثة (في أقل تعريف لها) لا يكون عن طريق التحول الكمي، وإنما بالتحول الكيفي الذي يطرأ على النظام الاجتماعي بالمجتمع. إذ إن "إدخال أساليب التصنيع الحديث في المجتمعات النامية يستلزم مجموعة من التغيرات في التربية والدين والقيم والعائلة والحكومة وتنظيم المجتمع المحلي، والتحرك الاجتماعي، ونظام المواصلات، والعلم والتكنولوجيا، والديموجرافيا، والتنظيم الاجتماعي الشكلي وغير الشكلي"(46) وهذا بالطبع لم يحدث في ليبيا على طول تاريخها، ومما يؤكد غياب هذا الاستحقاق هو شعارات القذافي (العدالة الاجتماعية، الوحدة العربية، محاربة أعداء الثورة، وتحرير فلسطين) وأحاديثه في بداية حكمه في الصحف العربية والدولية، فها هو يقول عام 1975م لمراسل صحيفة النهار فؤاد مطر: "...فأبلغت الناس أنه في مدة عشر سنين على الأكثر ستحل مشاكل الفرد الليبي من مشكلة المجاري إلى الزراعة إلى الصناعات الاستهلاكية إلى محو الأمية"(47)، ويمكن أن نضرب الأمثلة الكثيرة الدالة على اهتمام السلطة بأساليب الحداثة الخدمية (واجبة الانتقال) وتهميش حداثة الفكر لدى جميع أفراد الشعب، مع أن متطلبات تنمية الفكر يجب أن تقدم على أية متطلبات إنمائية أخرى "وأن أهلية أي بلد لاستعمال رأسمالها الطبيعي استعمالا فعالا تتوقف على توفر الرأسمال الإنساني والعكس بالعكس"(48)، وليس من مبالغة القول إنه كان في إمكان القذافي الذي امتلك ميزانية هائلة (أكثر من ألف تريليون دولار) ووقتًا كافيًا وفرصة كبيرة أن يقوم بنهضة شاملة للمجتمع الليبي على جميع المستويات، لكنه، لم يفعل، وإنما عمل على خلق مجتمع استهلاكي يعتمد على الريع النفطي ويأخذ بأسباب الحداثة (الشكلية) مما عطل العقل الليبي ثقافيا وقيميا وأخلاقيا، وأعاد "إحياء المنظومة القيمية

التقليدية وجعل البداوة بكل ما تعنيه من وسائل إنتاج وقيم قبلية صحراوية نظاما اجتماعيا بديلا لكل ما هو تحديثي"(49) وهو ما سارع في تقويض الدولة وتخلف المجتمع، فانتصرت الخيمة وهيمنت البدونة normalization على جميع مقومات المجتمع الليبي بما فيها هوية المجتمع التي ضاعت بين العصبية القبلية، فأضحى الولاة للقبيلة أهم من الولاء للوطن، ذلك أن المجتمع القبلي يختلف عن المجتمع المدني وما اتصل به من مؤسسات تستحوذ على حق حماية المواطنين، أما المجتمعات القبلية فإن السيطرة على القوة ليست بعيدة عن متناول الناس، فالقبائل تعيش في الحالة التي دعاها هوبنز حالة حرب، وهو ما تحقق فعلا بعد انهيار جماهيرية القذافي. وبذا، دفع الشعب الليبي ثمنا باهظا بسبب غياب الاقتناع بأهمية التحديث وصهر البنية القبلية المتنافرة في مجتمع جديد يقوم على حق المواطنة والاختلاف، وبكلمة أخرى، إن الذين حكموا ليبيا لم يكونوا أصحاب مشروع نهضوي حقيقي، وليس لديهم رأسمال ثقافي، وبالتالي، هم أول من سيحا سبهم التاريخ على الفوضى العارمة والفشل الكبير. وهذا لا يعني أن الشعب مُبرًّأ من كل ما حدث. فالشعب أيضا لا يخرج من دائرة الإدانة، أليس الاستبداد (كما يقال) من صنع الشعوب. فلنترك، إذن، الكلام للقذافي، ففي خطابه الارتجالي بقسم التربية الفنية والموسيقية بجامعة الفاتح عام 1985م نكشف بجلاء كيف كانت علاقته بالشعب في تلك الفترة، ونظرا لطول الخطاب ولهجته العامية سنختار بعض الفقرات على سبيل الختم بغض النظر عن مدى صدقها:

"أما إذا كان واحد يبحث عن مجد شخصي له، فهو مريض، حتى صورة معمر، جسّدوا أشياء في التربية الفنية حول الحاجات التي نبغيها، ولا تجسدوني أنا (...) وكل الأغاني التي على معمر وتضعونها في الإذاعة كل يوم، هذه والله لا تعني حاجة، بل إن ضررها أكثر من نفعها، وخاصة بالنسبة للأطفال الصغار الذين يجب أن يتمسكوا بالحرية (...)

هؤلاء قد يكبرون ولا أكون موجودا، فماذا يعملون بهذه الأغاني (...) وأنا الآن لو نسير وفق ما تفعلون أنتم، نبدو منسجما وتدغدغون عواطفي، معنى هذا أنكم بهذه الطريقة تريدون أن تفسدوني".

"هل جئت لأقول: يا ناس تعالوا أنا ملازم في الجيش، وقمت بالثورة، نبغيكم تغنون لي في الإذاعة أو نبغيكم تعملون لي صورة كبيرة مكان إدريس السنوسي أو نبغيكم تقولون إن: أنا كل شيء!! هذا جنون ومرض.."

"إنني لا أنسجم حين أستمع إلى اسمي في الإذاعة أو إلى أغنية عني، فلماذا تمارسون العسف علي، أريد أن أكون حرا مثلما أنتم أحرار"(50).

الهوامش:

1. حديث مرسل. انظر الحافظ الدارقطني في *كتاب* "التتبع. 1.182" والذهبي في السير 4.355، وابن حجر في "تهذيب التهذيب .10.296"
2. انظر "الأحكام السلطانية والولايات الدينية" للإمام الماوردي، باب عقد الإمامة.
3. نصر حامد أبو زيد "الخطاب والتأويل"، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، الطبعة الثانية، 2005 م. ص *.36*
4. لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر كتاب ابن خلدون "التعريف بابن خلدون"، وكتاب أستاذنا الدكتور محمد عبد الكريم الوافي "منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب"، منشورات جامعة قاريونس – بنغازي الطبعة الثانية، 1998م ص274
5. اليونسكو/المؤتمر العالمي للتعليم، داكار *2002* م. مداخلة السيدة مونيك فويلو، رئيسة لجنة الجمعيات المستقلّة.
6. انظر رسالة المؤتمر الخامس للإخوان المسلمين عام*1938* م
7. محمد عمارة "أزمة الفكر الإسلامي المعاصر" منشورات دار الشرق الأوسط، الطبعة الأولى*1990* م ص *.48*
8. نصر حامد أبو زيد، المرجع السابق ص *.159*
9. محمد عابد الجابري، "وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 4، لبنان،2011م، ص117، 121
10. نقلا عن محمد عمارة، المرجع السابق، ص74
11. انظر برهان غليون، نقد السياسية: الدولة والدين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت الطبعة الأولى*1991* م.
12. أحمد أمين "يوم الإسلام" دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى *2009*م، ص*106* ، *.108*

13. محمد عابد الجابري، المرجع السابق ص .62

14. على عبد الأمير علاوي"أزمة الحضـــارة الإســـلامية"، ترجمة: عطا عبدالله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى2011 م، ص227، بتصرف

15. أحمد بك النائب الأنصاري (المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب) دار الفرجاني، طرابلس الطبعة الأولى 2015م ص 281

16. رأفت غنيمي الشـــيخ (تطور التعليم في ليبيا في العصـــور الحديثة) دار التنمية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1972م ص155

17. إدريس المسماري، رضا بن موسى (مؤسسات المجتمع المدني والثقافة في ليبيا) مجلة رؤى العدد الثالث/ ديسمبر 2012م ص 32

18. علي مصطفى المصراتي (صحافة ليبيا في نصف قرن) منشورات دار الكشاف، بيروت، الطبعة الأولى 1960م ص59

19. محمد يوسف الغرابي، محمد عبدالله المير (نشأة وتطور الطبقة العاملة في ليبيا) مطبعة دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى 1981م ص16

20. عمار جحيدر (أبعاد نظرية لتاريخ ليبيا الاجتماعي في العصر الحديث) مجلة البحوث التاريخية، الســنة الســادسة، العدد الأول، منشــورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي 1984م ص 29

21. الطاهر أحمد الزاوي (ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهـد التركي) دار الفتح للطبـاعـة والنشـــر، بيروت، ط1، 1970، ص209 (بتصرف)

22. محمد يوســـف الغرابي، محمد عبدالله المير (الحركة العمالية في ليبيا إبان الاحتلال الإيطالي) الجزء الثاني، منشورات مطابع ستارف فوتوليتو، روما 1983م ص31

23. محمد يوسف الغرابي، محمد عبدالله المير (نشأة وتطور الطبقة العاملة

في ليبيا) مرجع سابق ص ص 27/26

24. لمزيد من التفاصيل يراجع: رأفت غنيمي الشيخ، مرجع سابق ص236/235

25. المرجع السابق، ص34.

26. مفتاح السيد الشريف(ليبيا نشأة الأحزاب ونضالاتها) منشورات دار الفرات، بيروت/لبنان الطبعة الأولى 2010م ص168

27. *Unesco; Report of the mission to Libya,p13* نقلا عن رأفت غنيمي الشيخ، مرجع سابق ص 300

28. رأفت غنيمي الشيخ، مرجع سابق ص 274 (بتصرف)

29. المنصف وناس، ليبيا التي رأيت ليبيا التي أرى (محنة بلد)، الدار المتوسطية للنشر الطبعة الأولى 2018م تونس ص 67

30. مصطفى بن حليم (ليبيا انبعاث أمة وسقوط دولة) منشورات الجمل كولونيا/المانيا 2003م هامش صفحة 277. ويراجع أيضا: بشير السني المنتصر(مذكرات شاهد على العهد الملكي الليبي) طبعة خاصة، 2008م ص110.

31. من ضمن ما جاء على لسان إدريس السنوسي يوم إعلان الاستقلال" وإنه لمن أعز أمانينا، كما تعرفون، أن تحيا البلاد حياة دستورية صحيحة، وسنمارس من اليوم سلطتنا وفقا لأحكام الدستور. راجع كلمة الملك يوم الاستقلال.

32. مفتاح السيد الشريف، مرجع سابق ص 184/183

33. محمد بشير المغيربي (وثائق جمعية عمر المختار- صفحة من تاريخ ليبيا) منشورات مؤسسة دار الهلال، القاهرة الطبعة الأولى 1993م 290

34. محمد زاهي المغيربي (المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في ليبيا) مجلة عراجين أوراق في الثقافة الليبية، العدد 2، يونيو 2004م ص183

35. محمد عابد الجابري (الديمقراطية وحقوق الإنسان) مركز دراسة الوحدة العربية، ص ص117/117

36. لمزيد من التفاصيل يراجع: أم العز علي الفارسي (أنماط التفاعل بين الدولة والمنظمات غير الحكومية في ليبيا دراسة حالة جمعية الهلال الأحمر الليبي 1994/1957م) رسالة ماجستير في العلوم السياسية، جامعة قاريونس 1995م

37. بشير السني المنتصر، مرجع سابق، ص 274.

38. لم ترجع الأحزاب السياسية في مصر إلا في عهد السادات الذي طلب استفتاء الشعب من أجل عودتها، وكانت المفاجأة أن الأغلبية تؤيد وجود أحزاب باعتبارها طريق السلامة وتصحيح الأخطاء، فاضطر الرئيس السادات حينئذ للموافقة على عودة الأحزاب عام 1977م وإن كانت مقيدة بشروط.

39. ميريلا بيانكو (القذافي رسول الصحراء) دار الشورى/ بيروت، الطبعة العربية الأولى 1974م ص ص 151/150

40. ميريلا بيانكو، مرجع سابق، ص151.

41. *Muammar Al Qadhafi, The Green Book, Part One, Martin Brian and O'keeffe I London I First Published 1976 P 7.*

42. محمد سالم دراه، "الأطر الاجتماعية والسياسية والقانونية لمؤسسات المجتمع المدني في ليبيا – جدلية العلاقة مع الدولة" مجلة عراجين، العدد الثاني يونيو 2004م ص 113.

43. آمال سليمان محمود "القبيلة والقبلية: بديل للمجتمع المدني" مجلة عراجين، العدد الرابع يناير 2006 ص29

44. فوزية بريون "الجذور التاريخية للمسألة الليبية" مجلة عراجين، العدد التاسع فبراير 2016م ص156

45. المنصف وناس، مرجع سابق، ص241

46. حسن صعب "الإنسان العربي وتحدي الثورة العلمية التكنولوجية" دار العلم للملايين، بيروت/ لبنان، الطبعة الثانية يناير 1981م ص153

47. من أحاديث العقيد: معمر القذافي في الصحافة العربية والعالمية، الكتاب الثاني يناير 1975م ص87

48. حسن صعب "تحديث العقل العربي- دراسات حول الثورة الثقافية اللازمة للتقدم العربي في العصر الحديث" دار العلم للملايين، بيروت/ لبنان، الطبعة الثالثة 1980م ص ص 58/57

49. المنصف وناس، مرجع سابق، ص 128

50. محاضرة قائد الثورة في قسم التربية الفنية والموسيقية، كلية التربية بجامعة الفاتح 15 يونيو 1985م منشورات المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، الطبعة الأولى 1985م ص ص 45/42/34/33

في مواجهة الموت
انتشار بعض الأوبئة عبر التاريخ
دولة ليبيا أنموذجا

"إن المرض يقع في الدار أو المحلة من ثوب أو آنية، فالقرط يتلف من علّقه بأذنه ويبيد البيت بأسره، ومن البيت ينتقل المرض إلى المباشرين ثم إلى جيرانهم وأقاربهم وزائريهم حتى يتسع الخرق، وأما مدن السواحل فلا تسلم أيضا إن جاءها المرض عبر البحر عن طريق وافدٍ من مدينة شاع عنها خبر الوباء.."

✍ الطبيب الأندلسي (ابن الخطيب)

على سبيل التقديم:

تستدعي جائحة (كورونا)، القادمة من بلاد الخطا (وهو اسم عربي أطلق على أجزاء من بلاد الصين)، استذكار الأوبئة الفتاكة التي عانى منها جميع أجناس البشر دون استثناء، إلى درجةٍ جعلت أحد الأطباء المعاصرين يعلّق مازحا على حادثة دخول وباء الأنفلونزا إلى العالم الجديد، عام 1493م، قائلا: " إنّ اكتشاف الأميركتين يمثل خطوة مهمة نحو المساواة في توزيع الأمراض حول العالم"[1]. من هذا التعليق، الذي جاء على سبيل السخرية، نرصد اليومَ عبر شاشات التلفزة كيف انتشر وباء كورونا، بشكل مخيف، بين شعوب العالم، وبات الناس يتحدثون عنه في كل الأوقات؛ منهم من يؤمن بنظرية المؤامرة،

ويقول بالإرهاب البيولوجي، ومنهم من يعتقد أنه عقابٌ إلهيّ على خطايا الناس، فيما يظن آخرون أنّ الفيروسات مخلوقات قادمة من الفضاء؛ لكي تقضي على البشر، وتغزو كوكبهم الفريد.

وانطلاقا من مقولة (أبقراط) " المرض داء طبيعي تجب مكافحته بوسائل طبيعية"، نرى محاولات الإنسان، منذ العصور القديمة، في التصدي للأوبئة بحسب الإمكانات والأدوات المتاحة؛ ففي الفترة الهلّينستية، كان التطبيب والتداوي في معابد اسكليبوس، وهو ابن الإله أبوللو؛ كما تقول الأساطير الإغريقية، حيث كان المرضى ينامون في حرَم المعبد، يشفيهم هذا الإله عن طريق الأحلام. وفي حضارات أخرى، يتم العلاج عن طريق الكُهان والسحرة؛ مثلما هو حال الحضارة البابلية؛ فالإله مردوخ (إله بابل) ما يلبث أن يفرض نفسه، ومن حوله عدد من الشياطين مسؤولة عن الأمراض التي يعانيها الإنسان، وكانت كل مخالفة من البشر، مهما كانت صغيرة، كفيلة بأن تنزل المرض كعقاب على الخطيئة، وقد عثر في ألواح التشخيص التكهني قبل حوالى 2000 سنة قبل الميلاد، على صلاة لأحد المخطئين تقول: "لقد أصابني الدنس. احكم في قضيتي، واصدر قرارك في مسألتي. انتزع المرض البغيض من جسدي. بدّد كل ألم في لحمي وعضلاتي"[2]. وقد ظل الركون إلى المشعوذين ورجال الدين والشامات هو السمة البارزة لدى كثير من الشعوب القديمة ردحا طويلا من الزمن.

تبادل ثقافات/ تبادل أمراض:

منذ اللحظة الأولى، التي وضع فيها (كولومبوس) قدمه العالم الجديد، نشأت علاقات جنسية بين البحّارة القادمين ونساء البلد الأصلي (الهنود الحمر)؛ وبذلك انتقلت أمراض جنسية كثيرة، أشهرها مرض السِّفلس (الزهري)، الذي يُعتقد أن سكان أمريكا الأصليين كانوا يمتلكون مناعة ضده منذ زمن سحيق،

لكن عندما انتقل المرض إلى أوروبا (عن طريق الغزاة الإسبان)، انطلق الزهري، بشكل وبائي، عبر الحرب التي دارت بين فرنسا وإسبانيا، وما نتج عنها من سلب واغتصاب؛ فأطلق عليه الناس وقتها "المرض الفرنسي". وتجدر الإشارة إلى أن هذا المرض حمل أسماء بلاد كثيرة: المرض الإسباني لدى هولندا، المرض المسيحي لدى تركيا، المرض البرتغالي لدى الهند. ويلاحظ، في هذه الحال، أنّ المهزوم غالبا ما كان يربط المرض باسم المنتصِر كنوع من الاحتقار. وفي المقابل، نقل الأوربيون إلى الهنود الحمر أنواعا كثيرة من الأمراض والفيروسات، كانوا يحملونها وهُم معتادون عليها منذ قرون، ولم يكن للهنود مناعة ضدها، ولاسيما الحمى التي راح ضحيتَها في كاليفورنيا سبعون ألف نسمة، ووباء الجدري، الذي أباد أكثر من نصف سكان إمبراطورية الأزتك خلال شهرين، وقد غصت شوارع العاصمة (تينوكتتلان) بالجثث؛ الأمر الذي جعل (كورتيس) يقول: "لم يكن باستطاعة أي شخص أن يضع قدمه إلا على جثة أحد الهنود"[(3)]. وفي سنة 1529م، انفجرت الحصبة، وقتلت ثلثي الناجين من وباء الجدري. وختمها عامَ 1600م وباء التيفوس، الذي قتل وحده مليونين من البشر في المكسيك. وفي ذلك الوقت، كان قد قضِي على 90% من سكان أمريكا الأصليين نتيجة الأوبئة، إضافةً إلى عمليات الإبادة الجماعية، وظروف العمل الشاق في الحقول والمناجم. ونظرا لهذه الأسباب، جلب الإسبان العبيد من إفريقيا للعمل في مناجم الفضة، فحملوا، بدورهم، إلى العالم الجديد الملاريا والحُمّى الصفراء.

الطاعون أو الموت الجارف

حينما ظهر وباء الطاعون، وأنزل الرعب بالناس، وقف بعضُهم حِيا له مشدوها، مشلول الحركة، يقيم القُداس، ويحرق البخور. وهناك من كان يقول باللعنة؛ وعليه، أضفى الشاعر اليوناني الأشهر (هوميروس) مصدرا إلهيا على

الطاعون حينما أصاب الجيش الإغريقي. ومن جهة أخرى، يعزو بعض مؤرخي العصور الوسطى بداية تصدع الإمبراطورية البيزنطية إلى وباء (الطاعون)، الذي اجتاح القسطنطينية زمنَ الإمبراطور جُستنيان؛ مما سمح للحضارات الأخرى باستعادة أراضيها. وفي الحضارة الإسلامية، مات خَلق كثير من وباء الطاعون في الشام (طاعون عمواس)؛ فاضطر المسلمون، وعلى رأسهم الخليفة عمر بن الخطاب، إلى أن يفر من قدر الله إلى قدر الله، مستذكرا ما رواه البخاري من أن أسامة بن زيد سأل النبي (ص) عن الطاعون، فقال: "إِذَا سَمِعْتُمْ الطاعون بأَرْضٍ فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها"[4]. هذا، وقد سجل المؤرخون المسلمون؛ أمثال الطبري والبلاذري وابن كثير وغيرهم، طواعين كثيرة اجتاحت المسلمين زمن الدول الإسلامية المتعاقبة، ولعل أشد هذه الطواعين فتكا طاعون البصرة الجارف سنة 64هـ، الذي أودى بحياة 200 ألف نسمة، إلى درجة أن رجلا "أدرك زمن [هذا] الطاعون (بحسب رواية ابن الجوزي) قال: كنا نطوف في القبائل، وندفن الموتى، فلما كثروا لم نَقْوَ على الدفن، فكنا ندخل الدار قد مات أهلها، فنسد بابها. قال: فدخلنا دارا، ففتشناها، فلم نجد فيها أحدا حيّا؛ فسدَدْنا بابها، فلما مضت الطواعين، كنا نطوف على القبائل ننزع تلك السّدد التي سددناها"[5]. وفي سنة 130هـ، وقع طاعون في البصرة مرةً أخرى، قتل من أهلها زُهاء ثلاثين ألفا؛ كما جاء لدى الطبري[6]. وكثيرا ما يلاحَظ أن وباء الطاعون يُطْلقه العرب على جميع الأمراض التي تعم عددا كبيرا من الناس، وتسبب موتا جماعيا، بخلاف المرض المعروف الذي ينتقل عن طريق الفئران والبراغيث والحشرات الصغيرة إلى الإنسان؛ فها هو ابن سينا؛ صاحب "القانون في الطب"، وهو الكتاب الذي وصفه (وليم أوسلر) بـ"الإنجيل الطبي" في المشرق والمغرب، من القرن الثاني عشر إلى القرن السابع عشر[7]، يصف الطاعون قائلا: "مادة سُمّية تُحدث ورماً قتّالًا، يحدث في المواضع الرخوة والمغابن من البدن، وأغلب ما يكون تحت الإبط أو خلف الأذن أو عند

الأرنبة."[8]

وفي سنة 1348م، وهو عام انتشر فيه مرض الطاعون انتشارا مخيفا في أجزاء كثيرة من العالم، وقتل ربع سكان أوروبا، وأصبح الناس لا يعرفون ما يجب فعله أمام كثرة الموتى، خرج ملك تارسيس إلى (البا با) معلنا أن الانتقام الإلهي يَحيق بشعبه؛ بسبب معتقداتهم الخاطئة. كما خرج، في تلك الفترة، أستاذ من جامعة مونبُولِييه بنظرية تقول إن "نظر المريض هو المسؤول عن انتشار الطاعون؛ وبالتالي، "قد نصح الكهان أن يطلبوا من المريض إغماض عينيه قبل المعاينة"[9]. هذا، وقد شبه الأوروبيون مرض الطاعون بالدخان القاتل المصبوب من السماء، أو البخار السامّ المنبعث من الشُّهُب الساقطة.. لقد كانت المفاهيم الإيبوقراطية، المتعلقة بالهواء، هي السائدة لدى العقل القروسطي؛ حيث كانوا يعتقدون أنّ الأوبئة تحْدُث نتيجةً للتأثير الضارّ للهواء الفاسد على الإنسان، وهو أصل المصطلح الإيطالي (Influenza)، الذي يستخدم، إلى يومنا هذا، للتدليل على نزلات البرد[10]، وهو الأمر الذي فُسر من خلاله انتقال وباء الطاعون؛ فها هو المؤرخ التونسي ابن خلدون يرجع تفشي وباء الطاعون إلى "فساد الهواء بكثرة العمران، وبكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة (...). فإذا كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة"[11]. لكن، في المقابل، نجد الطبيب العربي ابن الخطيب ينشر، في سنة 1348م، وهي أكثر السنوات هولا وفظاعة لجائحة الطاعون، رسالة علمية عن العدوى، وعن انتشار المرض، سمّاها "مقنعة السائل عن المرض الهائل"، يقول فيها إن مَنْ يخالط المصاب بهذا المرض يهلك، ويسلم من لا يخالطه. وكتب، في الوقت نفسه، طبيب عربي آخر من غرناطة قائلا إن "نتائج تجاربي الطويلة تشير إلى أن من خالط أحد المصابين بمرض سار، أو لبس من ثيابه، ابتُلي مباشرة بالداء، ووقع فريسة عوارضه نفسها"[12]. وقد كان للعرب، في ذلك الوقت، بيمارسْتانات للعلاج والاستشفاء، كما كان لديهم نخبة ممتازة من الأطباء، أصبحوا، فيما بعدُ، أساتذة لأشهر أطباء الغرب

في عصــــر النهضـــة. ففي الوقت الذي كانت فيهِ أوروبا تكافح الأوبئة بالبخور والدجل كان الطبيب الســـرائري أبو بكر الرازي يكتب في وصـــف ومعالجة الجدري والحصبة، ويفرق، لأول مرة في التاريخ، بين كلا المرضين. كما أنه يعد أول من تفطن إلى أنّ الفئران تنشــر وباء الطاعون. وتجدر الإشـارة، هنا، إلى أن بؤرة الطاعون الأولى كانت من الصـــين؛ ومن ثم، انتشـــرت بين عرب شـــمال الجزيرة العربية، ثم تركيا، وانتقلت، فيما بعْدُ، عبر التجار إلى الموانئ الأوروبية، ووصـــلت إلى إفريقيا كذلك. لقد قتل هذا الوباء أكثر من 25 مليون شـــخص خلال العصـور الوسـطى في أوروبا. وفي أفريقيا، ذكر ابن الخطيب أنه، في يوم واحد، بلغ عدد الموتى من الطاعون في مدينة فاس المغربية وحدها أربعة آلاف نسمة. وفي العصور الحديثة، تعاقبت الطواعين في شمال أفريقيا بشكل مخيف؛ ففي تونس العاصمة مثلاً، تفشى الطاعون سنةَ 1643م، ودام سبع سنوات؛ فترة حكم (الداي أحمد خوجة). وبعد حوالي أربعين عاما، تفشـــى الوباء مرةً ثانية في عهد (علي رايس داي)، واســتمر ثمانية أشـهر، ذهب ضـحيته في العاصـمة وحدها حوالي ستين ألف شخص. وفي سنة 1705م، تفشى وباء الطاعون مرةً ثالثة، و اســتمرّ ســتة أشـهر متتالية، وقد بلغ عدد الموتى، في اليوم الواحد، سـبع مئة ضحية. وفي شهر يونيو 1784، عاد وباء الطاعون مرة رابعةً إلى تونس، ولم ينحســر عنها ســوى في شــهر ســبتمبر من الســنة الموالية[13]. ويحدّثنا المؤرخ التونســي ابن أبي الضــياف عن صـولة هذا الوباء قائلا: "وقع بالمملكة طاعون جارف، وهو المعروف، عند أهل الحاضرة، بـ"الوباء الكبير"، ومات بسببه أعيان من الحاضرة، وأثّر في عمران البلاد نقصا فادحا. وفي أول ظهوره، صدر أمرٌ من الباي بحرْق ثياب الموتى وكسـوة بيوتهم، وغلقها"[14]. ولقد اتخذت السـلطات التونسـية، في تلك الآونة، تدابيرَ صـحية طَوال مدّة تفشـي وباء الطاعون؛ فمثلا، كان لا يُسمح بتمرير الخبز المستجلب من إحدى المَخابز إلا بعد أن يبرد تماما، واللحم والخضـروات كانت تغمر في أوانٍ مملوءة بالماء عدةَ سـاعات، وينظِّف

السمك والدجاج بالخل. ورغم هذه الإجراءات، فإن وباء الطاعون عاد إلى تونس مرةً أخرى، سنة1818م، عبر القوافل التجارية القادمة من الجزائر؛ إذ يحدثنا المستشرق ألفونص روسو (وهو أحد أحفاد المفكر السويسري الشهير جان جاك روسو) عن هذا الوباء قائلا: "كان تضارب آراء الأطباء في الإيالة حول مدى صحة انتشار هذا الوباء الشنيع (...)، غير أن الطاعون لم يلبث أن تفشّى بعد أيام معدودة في جميع أحياء العاصمة (التونسية) على نحوٍ لا مثيل له، وأخذ يَقضي كلَّ يوم على حوالي خمس مئة شخص، ثم بدأ الوباء ينحسر بعد ثمانية أشهر(...)، ولكن ـ للأسف ـ عاد إلى التفشي من جديد في شهر يناير سنة 1820م، وإنْ كان ذلك على نحو أقل حِدّة، قبل أن يُمْحى ضرره تماما في شهر يوليه من تلك السنة. ويذهب إحصاء رسمي، أُجري في تلك الفترة، إلى أن عدد ضحايا هذا الوباء قد بلغ في العاصمة وحدها قرابة الخمسين ألف ضحية"[15]. إجمالاً، فإن عدد ضحايا وباء الطاعون، في جميع أنحاء العالم، وصل إلى 200 مليون شخص. وقد كانت آخر أسوأ موجة له في التاريخ طاعون لندن العظيم، الذي أسفر عن مقتل مئة ألف نسمة خلال سبعة أشهر، وكان من ضمن إجراءات الحكومة الإنجليزية للقضاء على هذا الوباء إنشاء المزيد من المَحاجر الصحية في الموانئ والقرى الإنجليزية[16]. ومثل هذه الإجراءات لم تكن جديدة، بل عرفها العالم الأوروبي في العصور الوسطى أثناء جائحة الجذام؛ حيث بلغ عدد مستشفيات العزل الخاصة بالجذام حوالى 19000 في العالم المسيحي فيما بين بداية القرون الوسطى ونهاية الحروب الصليبية، وقتما كان يقال للمذنبين: إذا ما أغلق أحدُكم الباب في وجه المجذوم تُفتح أمامه أبواب الخلاص. وفي هذا الصدد، يذكر الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو قول قِدّيس من كنيسة فيينا لأحد مرضى الجذام: "يا صديقي، إنه ليرضي الله أن تكون مصابا بهذا المرض، وإنها لعناية منه أن يعذبك على الشرور التي ارتكبتها في هذا العالم" [17]

ومن ضـــمن الأمراض المُعدية الأخرى، التي شـــاعت في كل أرجاء العالم، الكوليرا القادمة من أفغانســـتان، وهي الأشـــد فتكا؛ حيث انتقلت إلى روســـيا والدول الإسـكندنافية، ثم وصـلت إلى فرنسـا سـنة 1832م، ومنها انطلقت إلى باقي دول العالم. ومن المحتمَل أن يكون انتشـــار الكوليرا في تونس تمّ عن طريق فرنسـا؛ فها هو المؤرخ التونسـي أحمد بن أبي الضـياف يصـف لنا تلك الكوليرا بعد حوالى 17 سـنةً من دخولها إلى باريس: " في 2 ديسـمبر 1849م، ظهر في المملكة التونسـية مرض وبائي، يعبَّر عنه في أرض الحجاز بـــ"الريح الأصـفر"، وأصـله من أمراض الهند، وعُبر عنه في بلادنا بـــ"الكوليرا" (...)، وصورته، والعياذ بالله، أن يصيب الإنسان إسهال وقيء؛ فيصفرّ لونه، ويسودّ، ويموت في ساعات أو قليل من الأيام"[18]. كما ذكر ابن أبي الضياف أنه مات، بسبب الكوليرا في تونس، أكثر من مئتيْ نسمة في اليوم؛ الأمر الذي جعل شيخ الإسـلام يجمع أربعين شـريفا اسـمهم محمد، يجتمعون في جامع الزيتونة من الصباح إلى الظهر، ويقرأون سورة يس أربعين مرة، ويدْعون الله بدعوات حرّرها لهم[19].

وباء الأنفلونزا (المرض الخطير):

حينما اجتاح أمريكا وباء الأنفلونزا الشـهير، في نهاية الحرب العالمية الأولى سـنة 1918م، على نحو غير مسـبوق في أي مكان من العالم، تصـور حينئذٍ الأطباء أن نوعا من الأوبئة انتقل من مزارع الخنازير إلى الفلاحين بمنطقة "ميدل وسـت". وما إن فرضـوا الرقابة الطبية على المكان حتى انتشـر الوباء في شـتى أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، وحتى ارتفع عدد الموتى إلى 20 مليون نسـمة؛ فاضـطرّ الأطباء إلى إعادة النظر في كل ما كتبه العلماء عن مرض الأنفلونزا منذ بداية اكتشـافه. وبالرجوع إلى الطب اليوناني، وبوجه خاص إلى كتابات أبقراط، وَجَدوه يصف الأنفلونزا بـــ"المرض الخطير"، وذلك في القرن

الرابع ق.م. وفي العصور الوسطى، عثروا على مؤلفات عديدة تصف أنواعا من الحمى، وتصف، كذلك، ارتباط الأوبئة بتأثير النجوم في الأفراد، إلا أن أطرف وصفٍ لحالات الأنفلونزا في أوروبا، خلالَ عصر النهضة، هو ذلك الذي جاء في رسالة بعث بها (لورد سيسيل)، عام 1662م، إلى زميله اللورد الكبير، الذي يمثل الملك: "أحيط شرفكم علما بأن المَلِكة قد أصيبت، فور دخولها، بمرض جديد شاع في هذه المدينة، وأطلقوا عليه هنا اسم (الصداقة الجديدة)، وقد أصيب به بلاطكم كله". ثم يصف له أعراض المرض، ويذكر عدد القتلى، ويُحْصي من أصابتْه العدوى من اللوردات، ويختمها قائلا: " أما أنا، فإنني أشعر بالخجل؛ لأنني أفلتُّ من هذا الوباء"[20].

وعلى أيّ حال، يبدو أن تصنيف الأنفلونزا إلى أنواع محصورة (الإسبانية، هونغ كونغ، الخنازير، الطيور) ليس ذا معنى؛ فمع تقدم العلوم الطبية والبيولوجية، ولا سيما تلك التي تقوم على دراسة الكروموزومات وما تحتويه السلالات، اتضحت الصورة بشكل نهائي؛ فالفيروس في حالة تطور مستمر، وهو يبدأ كفيروس يصيب الحيوان، سواء أكان خنزيرا أم طائرا، إلا أنه عندما ينتقل إلى الإنسان يغيّر شكله؛ نتيجةَ تفاعل جديد ينشأ عن تلاحم الفيروس الحيواني ببروتين جديد بمجرد دخوله جسمَ الإنسان، وما من شك في أنّ هذه النتائج قلبت نهائيا مبدأ تصنيف الأنفلونزا إلى أنواع محدودة، كل نوع ينتمي إلى المنطقة التي انتشر فيها، ثم هاجر منها وانتقل، وصار غير علميّ القول: هذه أنفلونزا كذا أو كذا؛ ذلك أنه، في كل مرة، يتخذ الفيروس شكلا جديدا، لا تربطه أدنى صله بالشكل السابق.

الدكتور ماندريللا وحمّى لاسا:

في بداية السبعينيات، كان الدكتور الألماني (برنارد ماندريللا) في بعثة طبية في غابات نيجيريا. وفجأةً، مرض زميله الطبيب الشاب (ايفون زاورفالد)؛ إذ

شَعَر بألم في ظهره، ثم في صدره، وانتابته حمّى شديدة؛ فهبّ الدكتور ماندريللا لمساعدته؛ حيث وجد أن الهواء لم يعد يصل إلى رئتيه. ففي بداية الأمر، اعتقد ماندريللا أنّ زميله مصـــاب بالتيفوس؛ فحاول إجراء عملية له، لكنه انتفض مذعورا عندما رأى الدم لم يتخثر، وقال: يا إلهي، إنها حمى اللاّسا.. إنها مرض خطير، ليس له من لقاح. إن هذه الحمى اللعينة أفْتَكُ من الطاعون والكوليرا، وقد تشكل تهديدا حقيقيا مخيفا للبشر. وبعد وفاة الطبيب الشاب بعشرة أيام، عرف (ماندريللا) أنه أصـــيب أيضـــا بالمرض، وكان عليه أن ينتظر نجدة طبية، ولكن الألمان امتنعوا عن نقله إلى ألمانيا. ورفض الســويســريون مدّ يد العون له مخافةَ أن يُحتجز ركاب طائرتهم في المحجر الصـــحي عند وصـــولهم. وحتى الوحدات الطبية الوحيدة المؤهلة للقيام بمثل تلك المهمة، وهي تحت تصـــرف البروفســور (جوردي كاســال) بالولايات المتحدة الأمريكية، لا تريد المجازفة، بعدما مات عدد من الأطباء، الذين أشـــرفوا على بعض حالات حمى لاســا. وهكذا، ظل الدكتور (ماندريللا) فريســة الموت البطيء في مســتشــفى البعثة الطبية الألمانية في نيجيريا، إلى أن تطوع لنقله زميلُه الدكتور (أوفه برنكمان)؛ طبيب المناطق الحارة في هامبورغ؛ حيث نقله إلى ألمانيا بمساعدة طاقم طائرة إنقاذ، وثلاث ممرضـــات نيجيريات. وهناك اســتقبلهم بعض الصِّـــحافيين المغامرين، الذين قاموا بتغطية عملية الإنقاذ الدرامية. وما إن وصـــلت الطائرة حتى خرجت الممرّضات اللائي حَمَلْن (ماندريللا) إلى المحجر الصحي، وهنّ ملثمات بالأقنعة الطبية الواقية، و مغلّفات بملابس عازلة من الرأس إلى أخمص القدم.

لقد اكتُشــف هذا الوباء لأول مرة في التاريخ سـنةَ 1969م، في قرية (لاسـا) النيجيرية، وكان أول من أصـــيب به في العالم الغربي ممرضـــة أمريكية، تدعى (لورا واين). وسُـــجلت، نتيجةَ هذا الوباء، وفاة أكثر من مئة شـــخص ما بين 1970 و1972م، أكثرهم من نيجيريا وليبيريا وســيراليون. وفي زمن انتشـــار

الوباء، اعتقد سكان أفريقيا الغربية أنّ سببه الفئران والخفافيش. وبعد التجارب، التي أجراها الأطباء، تبين أن أعراض المرض تظهر بعد 15 يوما في الحلق والفم، بعد أنْ تبتدئ عادةً بارتفاع الحرارة، والشعور بالدُّوار، ثم تنشأ آلام في الظهر.. وهنا تكون الأعراض مشابهة تماما لأعراض الأنفلونزا وفيروس كورونا، ولا سيما فيما يتعلق بالعدوى، التي تأتي عبر العطس والملامسة وأدوات الطعام والشراب. وحينما اختبر الأطباء نقاطا/ بُقعا من الدم الموبوء مجهريا، بدا الفيروس وكأنه كرة تنس سوداء، مُحاطة بشعيرات مسننة كأنها نصل خنجر قديم[21]. وإلى يومنا هذا، لم يتوصل العلماء إلى لقاح (حمى لاسا) للبشر، رغم ما تحصده من الأرواح سنويا؛ حيث بلغ معدل الإماتة العامّ للحالات المصابة بها إلى 5000 حالة في كل عام، موزعة بين نيجيريا وليبيريا وسيراليون.

إيبولا المخادع:

"نحّوا مخاوفكم جانبا، ولا تُخيفوا أنفسكم؛ فما زال بالإمكان النجاة من الموت بعد الإصابة بإيبولا".. بهذه الكلمات خاطب مغني راب ليبيري جموعا من سكان أفريقيا الغربية، خلال تفشي فيروس إيبولا بغينيا سنة 2014م، معتقدا أن الموسيقى خير وسيلة في توعية المجتمعات المحلية بخطر الإصابة[22]. وعلى الرغم من أن هذا الوباء محدود المدى مقارنة بالأوبئة الأخرى، إلا أنه أخطرُ من حيث التشخيص؛ فقد تمكن فيروس إيبولا من "تطوير خططه" في خداع نظام المقاومة المناعية لدى الإنسان؛ إذ أصبح بمقدوره التنكر بزِي خلية غير مصابة ليستنسخ نفسه في نسخ طبق الأصل كثيرة جدا. وحدده المجهر بسِلك طوله 970 نانومتر (مليون جزء من المليمتر). وقد اكتُشف هذا الوباء لأول مرة سنة 1976م، في إطار جائحتين اثنتين ظهرتا في آن معاً، إحداهما في السودان، والأخرى في الكونغو الديمقراطية قرب نهر إيبولا، الذي حَمَل الوباء اسمه. ويقول الأطباء إن فيروس إيبولا ينتقل عن طريق لَمْس دم الحيوانات

المصابة بعدوى المرض؛ مثل قِردة الشمْبانزي وخفافيش الفاكهة. وأول ما يشعر به المصاب بها صداع شديد، والتهابٌ في الحلق؛ ومن ثمَّ التقيؤ والإسهال والاختلال في وظائف الكلي. وتبلغ نسبة الوفاة بسببه نحو 50% تقريبا من المصابين، ولا يوجد ـ حتى الآن ـ علاج مرخّص به، ومجرّب ضد مرض الإيبولا؛ كما تقول "منظمة الصحة العالمية" (WHO). أما فيروس كورونا، الذي انتشر عالميا بسرعة هائلة، فقد حصد حتى هذه الساعة أرواح أكثر من ربع مليون شخص عبر العالم، وما يزال العالم يبحث عن لقاح له، ولكن دون جدوى.*

ليبيا والأوبئة: حفر في الذاكرة:

تحتل ليبيا موقعا استراتيجيا مميَّزا على ساحل البحر الأبيض المتوسط؛ فهي تقع في وسط الشمال الأفريقي، وتبلغ مساحتها 1750 كلم^2، أي أكثر من 18% من مساحة الوطن العربي في إفريقيا[23]، وتشكل الصحراء الجزء الأكبر منها، وتأتي في الترتيب الرابع من حيث المساحة بين دول قارة أفريقيا بعد السودان والجزائر والكونغو (زائير)، أي تزيد مساحتها سبعة أضعاف مساحة إيطاليا مُستعْمِرَتها سابقا، ومناخها معتدل في السهل الساحلي، دافئ شتاء، ويميل إلى الحرارة صيفا، وتهطل فيها الأمطار بمعدلات مختلفة خلال فصول الشتاء والربيع والخريف. أما عدد سكانها، فكان يزيد قليلاً عن المليون نسمة؛ حسب إحصاء 1954م، وهو أول إحصاء أُجري فيها بعد إعلان استقلالها في 24 ديسمبر 1951م أما عدد سكانها اليوم يقرب من سبعة ملايين نسمة، وكان من المفترَض أن يزيد عدد السكان فيها أضعافاً مضاعفة، ولكن سوء الحالة الصحية إبان الحكم العثماني، وتفشي الأوبئة، وحرب إيطاليا، أودى بحياة الكثيرين.

ما من شك في أنّ ليبيا، مثل بقية دول العالم، تعرضت، عبر تاريخها الطويل، إلى سلسلة من الأمراض والأوبئة المدمرة؛ نتيجةً لسنوات القحط والجفاف التي مرت بها في فترات تاريخية متباينة. ومع أن المصادر المتوفرة لا تسعفنا بكثير

من المعلومات عن تاريخ الأمراض الخطيرة في ليبيا في العصـر القديم، إلا أننا نستطيع القول إن أول إشارة تاريخية صريحة إلى تفشي الأوبئة في ليبيا جاءت على لسان (ثوسي ديدز)، في معرض حديثه عن وباء أثينا سنة 430 ق.م؛ حيث ذكر أنّ انتشـار المرض (الذي يحمل بعضـا من أعراض حمى التيفوس) بدأ في إثيوبيا، ثم انتقل إلى مصـر وليبيا؛ ومِن ثمَّ انقض فجأة على مدينة أثينا، وخلّف أعداداً كبيرة من الموتى، إلى درجةٍ أصبح معها الناس غير مبالين بالعادات التي التزموا بها في الدفن؛ فاضطروا إلى الالتجاء إلى المحرقة[24]. وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ الإغريقي توكوديديس الذي كان معاصـرا للوباء، وقد أصـيب به: "كان الأطباء عاجزين تماما عن مقاومته، وذلك لجهلهم بطبيعته، وتزايدت حوادث الوفاة فيما بينهم، لأنهم عرضـوا أنفسـهم أكثر مما يجب للعدوى، فلا الدواء ولا أي علم دنيوي آخر كان في مقدوره مواجهة الآلام، حتى ولا شفاعات المصلين ومشورة الأنبياء والالتجاء إلى الدين"[25] وفي خلال سنة واحدة قضى الوباء على نحو مئة ألف نسمة وكان الحاكم بركليز من بين ضحاياه.

وفي سـنة 324 ق.م، خلال هجوم المغامر الإسـبرطي (ثيبرون) على مدينة قورينى، حلت المجاعة في ليبيا، وراح ضـحيتها أعداد غفيرة من أهل قورينى، وكانت السـبب الرئيس (كما يقول المؤرّخون) في احتلال (ثيبرون) بعضَ مدن الساحل الليبي الشرقي مدة قصيرةً. وفي عام 125 ق.م انتشر في الجبل الأخضر وباء قاتل بين الماشية عن طريق الجراد القادم من وراء البحار، تسبب في موت آلاف الناس، فاضـطر في حينها سـن قوانين لمكافحة الجراد، وكانت عقوبة المخالف من المواطنين الذين يتقاعسـون في إبادة بيض الجراد وفقسـه بنفس عقوبة المتخلف عن الجندية[26] أي أنهم يعاملون معاملة الهاربين من تأدية الخدمة العسكرية الإجبارية.

وإبان العصور الوسطى، وقعت مدينة طرابلس تحت حصار الجيش الشيعي بقيادة ابن عبيد الله المهدي سنة 912م ويبدو أن الحصار دام طويلا فأدى إلى

فناء الأقوات وانتشـــار المجاعة لدرجة أن ســكان المدينة اضـــطروا إلى أكل الميتة[27] وفي عام 1146م، بُعيد انهيار حكم أســرة بني خزرون في طرابلس حدثت مجاعة رهيبة بين الناس بسبب شح الأمطار، وقد نجم عن هذه الكارثة ســيطرة النورمانيين على مدينة طرابلس[28] ولا بد أن توالي ســنوات الجدب والجفاف على البلاد نتج عنه تفشـي الأوبئة، فالبقعة التي يحل فيها الجفاف لا تخلو من القحط والأمراض، خاصـــة في المجتمعات البدائية التي تعتمد فيها الزراعة على مواسم هطول الأمطار.

وفي بداية العصور الحديثة، تعرضت ليبيا إلى موجات كثيرة من الأوبئة، كان من بينها وباء الطاعون الذي أصـــاب أهل طرابلس ســـنة 1523م أثناء الحكم الإســباني، وســجل خســائر فادحة في الأرواح. مما زاد في معاناة الناس الذين يرزحون تحت وطأة الضرائب، بسبب ظلم الإسبان. وحينما تولي القائد العثماني درغوث باشــا الحكم المباشــر لولاية طرابلس عام 1556م اجتاح وباء الطاعون جميع أنحاء مدينة طرابلس، ومات الكثير من ســكانها بما فيهم الأرقاء المســيحيين[29] وحاول درغوث باشـــا تخفيف آلام الناس عن طريق تشــجيع الزراعة، وإنعاش التجارة وذلك بالاعتماد على الغنائم التي يأتي بها من غزواته على البلاد الأوروبية، ورغم ذلك، فقد كان زعماء الجبل وقبيلتا أولاد ســليمان والمحاميد يرفضــون الخضــوع لحكمه. ووفقا للمصــادر المتاحة بين أيدينا لم تسـجل البلاد انتشــارا يذكر للأوبئة لمدة تصـل إلى مئة عام، ففي ســنة 1654م تفشى وباء الطاعون في برقة أثناء ثورة أهالي ضواحي بنغازي ضد الأتراك؛ مما جعل الوالي يوســف بك، الذي ظل محاصَـرا عدة أشــهر في قلعته، يضــطر إلى الفرار. وقد كان هذا الوباء واحدا من الأ سباب التي أدت إلى انسحاب الأتراك من مدينة بنغازي، لكنهم عادوا إليها بعد انحســار الوباء؛ حيث أرســلت القوات التركية قوة متكونة من خمس مئة فارس، بقيادة ابن الفا ضل الأندلسي ومحمود الكيخيا، وهو علجٌ أصـلُه من جزيرة ســردينا[30]، فقاموا بمحاصـرة المدينة حتى

تمكنوا من الاستيلاء عليها، بعد معارك طاحنة بين الطرفين؛ فاضطرّ أهالي بنغازي إلى الاستسلام شريطةَ أن تُصان أرواحهم وأعراضهم.

وفي عهد إبراهيم مصرلي أوغلي، الذي قال عنه المؤرخ الليبي أحمد بك النائب إنه "كان حازما، معظِّما لحُرمات الله"[31]، انتشر وباء الطاعون، سنة 1675م، بواسطة حُجّاج عائدين من مكة على ظهر متن سفينة مصرية، فأزهق من الأرواح قُرابة ستين ألف نسمة، وكانت النساء والأطفال، على الخصوص، من بين أكثر ضحاياه. وفي عام 1690م، عاد وباء الطاعون مرةً أخرى إلى ليبيا، وفتك بأرواح عدد كبير من أهالي مدينة طرابلس وضواحيها في عهد محمد الإمام داي، الملقب بـ"شائب العين"، واستمر عدةَ أشهر في جميع أنحاء الولاية، وكان من بين الذين ماتوا بهذه الجائحة "الراهب الأب (دي مونريال)؛ رئيس الإرسالية الكاثوليكية، كما مات معه راهبان آخران قضى عليهما الوباء، بينما كانوا يقومون بمعالجة الأسرى النصارى، الذين انتقلت إليهم العدوى في السجون"[32]. وفي سنة 1733م، إبان حكم أحمد باشا القرمانلي، تفشّى وباء الطاعون في مدينة طرابلس، وقَتل نحو أربعة آلاف نسمة خلال شهرين تقريبا، وقد تضررت منه القنصلية الفرنسية كثيرا؛ وبحسب ما ذكره القنصل الفرنسي شارل فيرو، الذي عاش في طرابلس ما بين 1878 و1884م، "أنه من بين الأربعة عشر شخصا، الذين كانوا يقيمون بها (أي: بالقنصلية)، لم تنجُ منهم سوى مدام (ريمونديس)؛ زوجة القنصل"[33]. لكن، من جهة أخرى، يذكر حسن الفقيه حسن في يومياته أنه بلغ ضحايا هذا الوباء في مدينة طرابلس وضواحيها حوالى عشرة آلاف نسمة[34]، ولقد أطلق عليه (وباء القُماش) ولا نعلم من أين جاء بهذا الاسم الذي يفهم منه أن تفشي المرض ربما كان عبر الأقمشة. كما ذكر حسن الفقيه أوبئة أخرى غريبة مثل: (شتاتة، بلوقة، صمهود، سخانة، جدة محمد باشا، عثمان باشا) وواضح من أسمائها أنها تدل على شخصيات ربما كان أصحابها أول من مات من المرض، هذا، وقد ظلت الأوبئة تضرب بأطنابها

في ليبيا من حين إلى آخر، وتقضي على كثير من السكان، خاصة كلما اشتدت المجاعة نتيجةً لسـوء الوضـع الاقتصـادي والنظام الاجتماعي بالولاية، وقلة الأمطار التي تؤدي في كثير من الأحيان، إلى حدوث مجاعات تجرّ خلفها الأمراض.

وفي عهد علي القرمانلي الذي كان ضعيف الإرادة بسبب سيطرة الانكشارية على زمام الحكم، أصيبت البلاد بقحط شديد وانتشرت الفوضى في كل مكان و"صار السلب والنهب بالسبل والأسواق"[35] واندلعت الحروب الأهلية بين القبائل مثل حرب قبيلتي أولاد سليمان والفرجان عام 1767م، كما على أيامه انتشرت المجاعة في طرابلس مدةَ عامين؛ مما أدى إلى تفشي وباء الكوليرا، الذي قتل في طرابلس وحدها حوالى خمس مئة نسمة، وهاجر أكثر من أربعين ألفا من سكانها إلى مصر وتونس وبقية الدول المجاورة. وبعد ثمانية عشر عاما تقريبا؛ أي في سنة 1785م، انتشر في ليبيا (عن طريق إيالة تونس) وباء الطاعون، وهو من أفظع الطواعين التي عاثت وأثرت في طرابلس وضواحيها كثيرا، وأول ما ظهر في مناطق الداخل، ثم انتقل إلى مدينة طرابلس، ويُقدر عدد ضحاياه، في منطقة المنشية وحدها، بحوالي سبعة وعشرين ألف نسمة، وتوجد معلومات وفيرة عن صولة هذا الوباء، نجدها في كتب الرحّالة والقناصل الأجانب المعاصرين له؛ فها هي السيدة (ليدي ورثلي) تسجل، في يومياتها لشهر أغسطس من عام الوباء، "أن المدينة، في ظروفها الراهنة، تمر بحالة مرعبة من المجاعة، حتى إن المرور بشوارعها، على الأقدام أو فوق ظهور الخيل، أصبح شيئا مخيفا مفزعا؛ بسبب الجوعى الذين يموتون كلَّ يوم على الطرقات"[36]. كما وصفت مس توللي (التي عاشت عشر سنوات في طرابلس) هجمة الوباء قائلة: "لقد هاجم الوباء المدينة منذ شهرين، فكم نفسا تُرى أزهق خلال هذه المدة القصيرة؟ ثلاثة آلاف مخلوق.. نعم ثلاثة آلاف وارتهم جبانات طرابلس، وخسرتهم البلاد إلى الأبد. إنهم يبلغون حوالي ربع سكان

المدينة. ومع ذلك، فإنّ نقمة الوباء على طرابلس تزيد وتزيد، والوفيات ترتفع أعدادُها وترتفع"(37). وبهذه المناسبة، يذكر الرحالة الإسباني باديا لبليك، المعروف باسم "علي بك العباسي"، الذي تمكّن من الإقامة في طرابلس مدة شهرين، بعد انقضاء الوباء بنحو عشرين عاماً، أنه " أنقص الطاعون كثيرا عددَ السكان بالمدينة؛ إذ قضى، في الغالب، على أُسَر بكاملها، وما يزال يشاهد المرء، حتى الآن، بعض المنازل المهجورة أو المنهارة بسبب هذا الوباء"(38). وفي الوقت الذي لم تقم فيه السلطة الحاكمة باتخاذ أيّ إجراءات صحية؛ لمنع تفشي الوباء في جميع أنحاء الولاية، كان النصارى القاطنون في المدينة يغْلقون أبواب بيوتهم، ويفرضون على أنفسهم الحَجْر الصحي. كما قاموا باستعمال التوابل ونبات الكافور كمطهّرات، وأخْلَوا منازلهم من الحيوانات الداجنة خِشيةَ أنْ يكون ريشها أو فرْوُها واسطة لنقل العدوى. وفي هذا الصدد، تقول مس توللي: "لقد أعددنا كثيرا من الجِرار للاستعمال في تطهير الدار، ونحن نملأ ثلث الجرّة بالنخالة، ثم نعبّئ الباقي بثلاثة أنصبة متساوية من الكافور والمرّ وعود الندز كما نقوم بحرق هذا العطر مع كَمية قليلة من كُحل البارود في غرف الدار كلَّ يوم"(39). أما فيما يتعلق بالعائلات اليهودية، فإنها زادت من شِرّة الوباء؛ عن طريق دفن موتاها في بيوتها تهرباً من دفع الضرائب، التي فرضها على اليهود عميدُ الجالية اليهودية؛ بُغية التخلص من دفن جثث الفقراء من اليهود؛ إذ إنه، في وقت ذُروة الطاعون، ارتفعت نفقات دفن الموتى، كما أصبح الخشب الذي تُصنع منه التوابيت نادراً؛ ولذلك، لم تعد الجثث تُدفن على حِدَة، بل صارت، لكثرتها، تُحمل على ظهور الجمال، ثم تُدْفَن جماعيا، دون أن تقام صلاة الجنازة على أصحابها. وانتشرت رائحة العفونة نتيجةَ كثرة الموتى في الشوارع لعدة أسابيع، ووصل عدد الوفيات في اليوم الواحد 290 حالة، إلى درجةِ أن مس توللي، وهي شاهدة عيان على هذه الكارثة، (قالت): "إن الوباء، الذي يلتهم أرواح أهل هذه البلاد، في الوقت الحاضر، لَهُو أشد فتكاً من مثيله

الذي انقضّ على القسطنطينية منذ بضعة قرون. كما أنه أودى بأرواح خَلْق يَعْدِلون ضِعْف الذين هلكوا في تونس حين كانت تلك المدينة تُخْرِج 500 نعش كل يوم. ولقد أُخرجت أكثر من 200 جثة من بوابة طرابلس هذا اليوم! هذا مع العلم أن مجموع سكانها يتجاوز 14 ألفا، في حين يبلغ تونس 30 ألفا"[40]. ويبدو أنّ هذا الوباء كان له تأثيرٌ مدمّر على ولاية طرابلس عدّةَ سنوات؛ نتيجةَ ما جرّه عليها من أضرار فادحة على المستويات الاقتصادية والاجتماعية، كما أسهم في التعجيل بانهيار الأسرة القرمانلية الحاكمة؛ وذلك عن طريق انتشار الفوضى، واشتعال الحروب بين قبائل ترهونة وورشفانة والمحاميد، وقد كانت نتيجة هذه الظروف جميعها هو فقْد السلطة الحاكمة السيطرة على زمام الأمور في البلاد. وفي هذا الشأن، يقول قنصل فرنسا فليير، وهو معاصر لأحداث تلك الآونة، وقد ترك لنا وصفا مهمّا للحالة التي كانت عليها البلاد آنذاك: "لم يعد باشا طرابلس يَسُوس اليومَ سوى رعايا متمردين، وفيافيَ مجدبةٍ، وخرائب مهدّمة. وحتى المدينة، التي يقطنها هو نفسه، لم تعد سوى أكوام من الأنقاض (...). ولقد أدى توالي سبع أو ثمانٍ من السنين العِجاف إلى ارتفاع معدل الوفيات، وإلى هجرة الناس من البلاد. ثم ثَنّى الطاعون؛ فزاد الطين بِلّة. وليست طرابلس الآن سوى صحراء موحشة". ثم وصف لنا حالة الجدب والمجاعة في البلاد قائلا: "(...) ومما يُدلّل على مدى تفشي الفقر والإملاق أنّ الذهب والفضة المصنعة صارا يباعان بأقل من قيمتهما الفعلية في أوروبا، بمعدل 20% و25%"[41]. ومن اللافت للنظر أنّ جميع الذين عاصروا هذا الوباء، أو الذين جاءوا بعد انحساره عن طرابلس، يؤكدون أنه كان سببا في تردّي الأوضاع الاقتصادية، وهجرة السكان. وبذلك، يتضح أن بيئة ليبيا، في تلك الأزمان، كانت بيئة طاردة، وهو ما يفسر لنا اليومَ حجم عدد سكانها الضئيل مقارنةً بعدد سكان الدول المجاورة لها.

غير أنه من الإنصاف أن نذكر، ونحن بصدد الحديث عن الفترة القرمانلية،

أنه في عهد يوسف باشا الذي حكم إيالة طرابلس عام 1796م، شهدت ليبيا ربما لأول مرة في تاريخها الحديث ما يعرف بالحجر الصحي (الكرنتينة) فقد جاء في ملفات الوكالة الصحية بمرسيليا عدة إجراءات وقائية اتخذها يوسف باشا للحد من انتشار الأوبئة والأمراض المعدية في ليبيا، فعلى سبيل المثال، جاء في الخطاب المرسل بتاريخ 1807/2/3م إلى محافظي الصحة العمومية بمرسيليا "أن يوسف باشا عندما علم بوصول سفينة روسية إلى ميناء طرابلس توفي أحد أفرادها بالوباء، أمر بوضع السفينة والحمولة في الحجر الصحي لمدة عشرين يوما" كما جاء في خطاب آخر مرسل بتاريخ 1809/8/24م أنه "...يوم 9 الجاري، وصلت سفينة أخرى من اسميرن على متنها شخصان قد مات الأول خلال الرحلة، والثاني أثناء الإرساء، بحيث إن الباشا الذي انزعج من النتائج قد أمر بإعادة رفع الحمولة وعودة المسافرين إلى السفينة، بعدما تم إنزالهم والإقلاع الفوري للسفينة التي توجهت إلى مالطا". كما ذكرت بعض المراسلات المشار إليها آنفا حزمة من الإجراءات الاحترازية التي قام بها يوسف باشا بالاتفاق مع قنصلي بريطانيا وفرنسا يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- إنشاء محاجر صحية بين بنغازي ومصراتة يحجر فيها كل المسافرين القادمين من مصر.
- عدم استقبال السفن إلا بعد التأكد من سلامة كل الأفراد الموجودين على متنها من أي أمراض معدية.
- أية سفينة يوجد بها مرضى لا يمكن لها الدخول إلى الميناء خاصة إذا كانت أجنبية، أما إذا كانت ليبية، يجب تطبيق الحجر الصحي على أفرادها.
- السفن القادمة من مصر وعلى متنها حجاج من رعايا الدول المجاورة مثل تونس والجزائر ومراكش يتم توجيهها إلى موانئ كل حسب بلادها.
- كل القوافل القادمة من مصر عن طريق البر يتم حجرها في نواحي

مصـراتة ويجبر أفرادها على الحجر الصـحي، ويجب أن تبقى بضـاعتها معرضـة للشمس لمدة 20 يوما[42].

ويبدو أن هذه الإجراءات ظلت مستمرة طوال سنوات حكم يوسف باشا كما هو واضح من نسبة الوفيات بين السكان، حيث لم تسجل إيالة طرابلس في تلك الآونة زيادة ملحوظة في معدل الوفيات بسبب الأوبئة والأمراض الفتاكة.

وفيما بين 1836 و1837م، عاد وباء الطاعون إلى مدينة طرابلس وضواحيها، و"كان يموت كل يوم، من الأهالي، ما يتراوح بين 35 و 40 شـــخصـــا. وهجَر بعض السكان المدينة، وخرج القناصل وبعضُ أفراد الجالية الأوروبية إلى مالطا وإيطاليا. وبلغ الوباء أقصى عُنفه في فبراير 1837م. وقد ذكر أحد القناصل، في رســائله، أن ســكان المدينة قد هبطوا من ســبعة آلاف نســمة إلى أربعة آلاف نســمة"[43] فقط. ومن حســن الحظ، توجد إحصـــائية دقيقة عن الوفيات والإصـابات الناتجة عن هذا الوباء في تقرير مؤرخ في مايو 1837م كتبه قنصـل سردينيا إلى السلطات الصحية في مدينة جنوى، ومما جاء فيه:" لقد بقيت هذه البلاد، بثلث عدد السـكان الذين كانوا يســكنونها في الماضــي، فإذا أحصــينا الإصابات في هذه المدينة وضواحيها، والمقاطعات الداخلية مثل الزاوية والجبل وغريان وفزان التي ســرى إليها الوباء، دون أن نعلم به إلا بعد مضــي فترة طويلة من الزمن، فإن عدد الضـــحايا يرتفع إلى رقم 80700 تقريبا، وهو رقم جدير بالثقة التامة، إذ قام القاضــي بإحصــائه بغية تســجيله في الحوليات، بعدما ورد عليه في التقارير المكتوبة من مختلف قضاة المقاطعات"[44].

وفي عهد الوالي التركي أحمد عزت باشـــا، الذي حكم طرابلس مدّةَ أربع سنوات، ولم يكن، في عهده، ما يُذكَر سوى تفشي داء الكوليرا في جميع أنحاء الولاية ســنة 1850م، وفتَكه بالناس فتكا شــديدا طَوال ثلاثة أشــهر، ومات في مدينة طرابلس وحدها – بســببه – ثماني مئة شـخص، و" هو رقم مرتفع بالنسـبة لسـكانها الذين تقلص عددهم منذ الأسـابيع الأولى لتفشـي الوباء؛ فلم يعُد يزيد

عن خمسة آلاف نفس؛ وذلك نتيجةً لهرب قسم كبير منهم إلى جزيرة مالطا، وإلى تونس"[45].

أما في برقة، فقد انتشرت أمراض العيون والدفتيريا بين سكانها بسبب الرطوبة ونمط البيوت المصنوعة من الحجارة المخلوطة بالطين، وفي عام 1820م تفشى فيها عن طريق الإسكندرية وباء الطاعون، وعزا الناس حينها سبب انتشاره إلى تربية المواشي، وأول ما دخل في درنة، وأدى إلى تخفيض عدد سكانها من سبعة آلاف إلى خمس مئة نسمة كما يقول الطبيب الإيطالي باولو دي لاشيلا[46]، ثم انتشر الوباء بسرعة فائقة في ربوع برقة، وقضى على عدد كبير من سكانها، ويحدثنا الأخوان بيتشي عن صولة هذا المرض:" خلف الوباء بدرنة مآسي رهيبة كما تدل على ذلك أعداد المنازل المهجورة حولها، ففي العام قبل المنصرم نقل إليها هذا المرض اللعين عن طريق الإسكندرية، مسببا أعدادا كبيرة من حالات الوفاة التي خفت وطأتها نتيجة لتلك الإجراءات السريعة التي قام بها البي[47] من ذلك حرق ملابس جميع الذين تعرضوا للإصابة إلى جانب تنظيف وتهوية المنازل، والعمل على تنظيف جميع الشوارع (...) واستمرار تدفق المياه بجل شوارعها إلى تكاثف آثار تلك الاحتياطات الوقائية التي أدت إلى التخلص منه"[48].

وفي عام 1876م انتشر في برقة مرض الطاعون، عن طريق إحدى السفن الأجنبية التي رست في ميناء بنغازي، وكان سكان مدينتي بنغازي والمرج أكثر ضحاياه، فاضطر يومذاك حكام ولاية طرابلس الغرب إلى فرض الحجر الصحي على كل المسافرين القادمين من هاتين المنطقتين، وواضح أن الأتراك في سنواتهم الأخيرة اهتموا كثيرا بمسألة الحجر الصحي مما ساعد على تخفيف انتشار الأوبئة نسبيا يومذاك، وقد جاء في جريدة طرابلس الغرب (على سبيل المثال) أن الحجر المفروض على الحجاج كان يستمر لمدة خمسة عشر يوما في مراكز الحجر الصحي في ميناء طرابلس (الكرنتينا) وتجبر السفن الناقلة

للحجاج بأمر من والي طرابلس على البقاء في الميناء لمدة عشرين يوما.

وفي مستهل القرن العشرين، نهاية الاحتلال العثماني الثاني لِلِيبيا على وجه الخصوص، كانت الأمية منتشرة في ليبيا، والأمراض تفتك بأرواح المئات كلَّ شهر؛ بسبب إهمال الولاية؛ مما أدى إلى تعرضها لمرض الكوليرا سنة 1901م، وفي تلك الآونة، قامت الصحف الوطنية بانتقاد الوضع الصحي للبلاد من أجل القيام بحملة توعية صحية، وقد جاء في مقال نشر في جريدة العصر الجديد من عام الوباء: "وبعد أن حفظنا الله من ذلك الضيف اللئيم الطاعون الذي لم يكد ينزل علينا حتى ارتحل عنا ولسان حاله بالوعيد يهددنا قائلا: إني عابر سبيل أتيت منذرا لإدارة البلدية بأنها إذا لم تقم بوظيفتها التي أولها تنظيف المدينة سعيا وراء حفظ صحة الأهالي في ولاية طرابلس، فهي المسؤولة وحدها عن ذلك أمام القانون والحكومة الدستورية ولا يقبل عذر بعد ذلك"[49] الأمر الذي جعل حكومة الولاية تطلب ثلاثة أطباء من نِظارة الداخلية؛ كما يُفهَم من وثيقةٍ مؤرخة في2 أبريل 1902، جاء فيها: إن هذه الولاية (طرابلس الغرب) بقيت احتياجاتها الصحية مهملة ومنسية أسوةً بشؤونها واحتياجاتها الأخرى. وإنّ المصائب الكثيرة والمؤلمة، التي تعرض لها سكانها؛ من جرّاء فقدان الأطباء، وبخاصة في الفترة التي استحكمت فيها آفة الكوليرا الهائلة، في العام الماضي. وبالنظر إلى الاحتياج الشديد (...)، طلبنا الإسراع بإرسال ثلاثة من الأطباء"[50]. والجدير بالذكر أنّ ليبيا تعرضت لوباء الكوليرا في أكثر من منطقة، في بداية القرن العشرين، من بينها طرابلس ودرنة وبنغازي. ففي بنغازي، على سبيل المثال، انتشرت الكوليرا عن طريق إيطاليا، وراح ضحيتها 4023 نسمة، فيما بين 15 يوليو 1910 و12 يناير1911م، وَفقا لما جاء في السِّجِلات التركية الرسمية[51]. وفي بداية الحملة العسكرية الإيطالية على طرابلس، انتشرت الكوليرا بين صفوف القوات الإيطالية؛ مما زاد من الصعوبات التي صادفتها إيطاليا في احتلال طرابلس[52]. وقد كان (جيوليتي) رئيس وزراء إيطاليا الأسبق

على علم بتفشي هذا الوباء بين جنود الحملة منذ المناورات الاستعدادية الأولى في ولايتي (بيمونتي وجنوى) في إيطاليا، وقد حاول أن يؤجل قيام المناورات العسكرية، إلا أن رئيس أركان الحرب كان مصرا على عدم إيقافها رغم إصابة مجموعة من الفيالق بالجيش الإيطالي(53). وما إن بدأ الإنزال على شواطئ المدينة حتى تفشى وباء الكوليرا بين جنود الحملة، فمات منهم خلال الثلاثة الأشهر الأولى حوالي 375 رجلا وذلك مقابل 466 قتلوا في المعارك، ولقد نقل الوباء بالتالي إلى سكان طرابلس وحصد عددا كبيرا من أهلها، وتشير بعض الوثائق التاريخية أنه في أسبوع واحد قضى وباء الكوليرا على 110 شخصا من 186 شخصا أصيبوا به(54)، وفي هذا الصدد يصف الجنرال سالسا هجمة الوباء قائلا: "اتخذ الوباء شكلا مفزعا (...) فالأماكن المخصصة للحجر الصحي البحري كان بها أكثر من طاقتها من المصابين المتراكمين في كل مكان، ونفس الشيء كان يقع في المستشفى المدني، وكثيرا من المساجد والفنادق وأسواق الغلال وغيرها كانت مليئة بالعرب الذين وفدوا من ضواحي طرابلس وقد حشدوا في المدينة بسبب الحرب. ففي هذه المراكز التي يتجمع فيها الناس البؤساء كان الوباء يحصد الكثير من الضحايا، كثيرون ماتوا بمرض مجهول وقد تركوا في الشوارع حتى يحين الليل فيلقى بهم في ساحة المستشفى المدني"(55)

أما في مدينة درنة، فقد ظهرت فيها الحالات الأولى من الكوليرا في بداية 1913م؛ عن طريق الجنود الإيطاليين بالمعسكرات، وبعدئذٍ انتشرت داخل المدينة، وقتلت عددا كبيرا من الناس؛ ومن ثمّ انتقلت إلى باقي مدن شرق ليبيا. وفي تلك السنة، منعت الحكومة الإيطالية الأهالي من أداء فريضة الحج؛ بدعوى أن الوباء منتشر في الحجاز(56). ويحدّثنا الأستاذ وهبي البوري، في كتابه "مجتمع بنغازي في النصف الأول من القرن العشرين"، عن تفشي وباء الطاعون بهذه البلدة سنة 1914م؛ حيث قال، في معرض حديثه عن صولة الوباء في بَرْقة، إنه كان يموت العشرات في كل يوم في منطقة دريانة، كما ذكر أنه مات

بمنطقة بوفاخرة ثلاثة أرباع سكانها، وحصد من أرواح بنغازي المئات، ولا سيما في منطقتي سيدي حسين وزرايب العبيد. ومن بين الإجراءات التي قامت بها الحكومة الإيطالية لمكافحة المرض تطهيرُ منازل المرضى، وحرق ملابسهم وإنشاء محاجر صحية في منطقة جليانة، كما أمَرَت بتبليط أرضية محالّ الجمارك والفندق البلدي والسجون، واستعملت مادة الجير بكثرةٍ في مكافحة الوباء؛ حيث كان يستهلك منها قرابة مئة طن في الشهر[57]. هذا، وقد انطلقت يومئذٍ حملة واسعة من أجل القضاء على الفئران، بوصفها المصدر الأساس لتفشي المرض.

ومن جهة أخرى، يذكر بعض المؤرخين أن وباء الكوليرا الذي تفشى في كل مناطق ليبيا أكثر من عشرة سنوات جاء من مصر، وليس من جنود الحملة الإيطالية، وقد سبق وأن نبه إليه قبل دخوله إلى ليبيا بسنوات قليلة الطبيب العراقي سليمان غزالة، الذي كان يعمل في إدارة الحجر الصحي بطرابلس الغرب، حيث جاء في الرسالة الموجهة إلى صاحب الدولة بتاريخ 2/23/ 1896م ما يلي: "بسبب ظهور وباء الكوليرا بمصر، نفيدكم ببعض الاحتياجات الصحية التي يجب اتباعها على حجاج بيت الله الحرام(...) فإنه يتوجب على السفن التي تقلع من الموانئ العثمانية مثل بيروت وطرابلس الغرب، تطهير ملابس الحجاج وحاجياتهم بالمحاجر الصحية بهذه الموانئ وذلك بتبخيرهم بواسطة آلة (إي تو) وكذلك حجرات السفن وتجدد المياه المخصصة للشرب"[58] لكن الباب العالي تغاضى عن الأمر كالعادة، وبعد عدة سنوات أمر بترحيل الطبيب غزالة وزوجته صاحبة جريدة (فرنسا الأدبية) من طرابلس لمواقفه الوطنية تجاه ليبيا.

وأثناء فترة الجهاد الليبي ضد الغزو الإيطالي، تفشى في إقليم برقة بسبب سوء التغذية وباء الجُدري، وحصد عدداً كبيرا من الأرواح. ولعل الذي خفف من حدّة هذه الكارثة جزئيا قيام السلطات الإيطالية بعمليات تلقيح جماعية

مضادة للجدري، وتشييد المستشفيات والمصحات الطبية في بنغازي ودرنة وطبرق والمرج، ولكنهم - في الوقت نفسه- أهملوا تحصين السكان من بقية الأوبئة الأخرى؛ لذا، تفشى بينهم مرض الطاعون سنة 1917م الذي أحدث نقصا ملحوظا في تعداد سكان برقة، بالإضافة إلى انتشار عدة أمراض أخرى فيما يعرف بالمعتقلات على وجه الخصوص، و كان من بين هذه الأمراض وباء التيفوس الذي ينتشر بالمناطق التي تعزُّ فيها المياه، وأهلك ألوف الأهالي؛ ففي 1933م، تفشى في معتقل سلوق مرض حمى الهف (التيفوس اللطعي)؛ وقضى على عشرات الموتى يوميا، بل كل ساعة، حتى إنه حفرت خنادق للدفن الجماعي[59]، الأمرُ الذي جعل المفوض المدني لمدينة بنغازي يرسل إلى إدارة الشؤون المدنية بروما رسالة، مما جاء فيها قولُه: "ما لبث الوضع أن ازداد سُوءا في مخيم سلوق، وليست هناك علامات على ا ستقرار الوباء على ما وصل إليه، ولو تدريجيا (...). فخلال شهر فقط، زاد عدد الخيم الموبوءة بنسبة 70 خيمة (...). ويبدو لي، أنا والسيد مدير الصحة، أن فترة الانتظار، التي ظلت تُلِحّ على مراعاتها إدارتُكم، قد انقضت، دون أن يتلاشى التيفوس اللطعي، بل أخذ في الانتشار. أرجو من إدارتكم الموقّرة موا فاتي بالتعليمات اللازمة، وتزويدي بالوسائل الضرورية للقضاء على الوباء"[60]. وقد قامت السلطات الإيطالية وقتَها بعزل معتقل قبيلتي العبيد والعرفة، الذي كان أكثر المعتقلات تعرضا لتفشي الوباء، بوصف ذلك من التدابير الأساسية للحد من انتشار المرض، دون أن تكلّف نفسَها معالجة المرضى، وتلقيحهم من الفيروس. ومن ضمن الأمراض التي انتشرت، أيضاً، في المعتقلات، بشكل كبير، مرضُ "العشاء الليلي"، الذي تفشّى في معتقل البريقة، وأدى إلى فقدان عدد كبير من المعتقلين بصرَهم، وبلغ معدل الوفيات بين الأطفال والشيوخ جرّاءَه 90%؛ مما دعا الحكومة الإيطالية الفاشيستية إلى نقل مقر المعتقل من مكان إلى آخر[61]. ويُذكر، في هذا الصدد، أنّ الجنرال باريلي لم يكن يصدّق مقدار عدد الموتى، الذي وصل إلى 130

نســمة يوميا؛ لذلك كلّف أحد الأطباء بالوقوف عند مقبرة معتقل البريقة؛ ليفحص كل جثة، ويضع ختْم (ميت) عليها، قبل دفنها، حتى يتأكد من صحة عدد الموتى.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية 1939ـ1943م تعرض ســكان طرابلس وضــواحيها لمزيد من المعاناة بســبب نقص المواد الغذائية المســتوردة من الخارج، وانعدام العناية الصحية اللازمة في البلاد، مما أدى إلى تفشي الأمراض بين الناس نذكر منها: حمى التيفود، الدرن، السل، والجذام وغيرها من الأمراض المعدية[62].

وعقب انتهاء الحرب، أي في فترة الإدارة الإنجليزية تفشــى في برقة عن طريق طرابلس مرض الجدري، فأدخلت الســلطات الإنجليزية المصــابين في الحجر الصــحي بمســتشــفى المرج، وقد جرت حملات تطعيم واســعة شــملت حوالى 120000 مواطن، كما انتشــر في الوقت ذاته أمراض خطيرة أخرى من بينها الدرن والسـل والتيفود والملاريا خاصـة في مناطق الواحات مثل الجغبوب والكفرة ومرزق وغات وذلك بسبب وجود مستنقعات حاضنة لبعوضة (الأنوفيل) الحاملة لجرثومة الملاريا. وقد ســبب الجفاف الذي داهم ولاية طرابلس الغرب في صــيف 1947م في انتشــار المجاعة والقحط والأوبئة الفتاكة فأودى بحياة الكثيرين، فهبت مصــر للمســاعدة، وتبرع الملك فاروق شــخصــيا بمبلغ 4000 جنيه، وأرسل الباخرة المصرية (فوزية) محملة بالمؤن والإسعافات الطبية، وقيمة عشــرة آلاف جنيه من الحكومة المصــرية، وقد شــارك في هذه الحملة: جمعية الهلال الأحمر المصــري وشــخصــيات مرموقة من مصــر وليبيا نذكر منها: حاييم دُرة اليهودي، لملوم باشــا، علي العنيزي، عز الدين ناصــوف، حيث بلغ مجموع هذه التبرعات حوالي 15 ألف جنيه[63]. وفي هذا الصــــدد يقول عبدالحميد البكوش (الذي أصبح رئيس وزراء ليبيا فيما بعد) "وقد شاهدت الناس يموتون جوعا عامي 1948/1949م إثر ســنوات متتالية من الجفاف، وكنا نعيش على

معونة القمح الخارجية، ولا أنسى خروج سكان مدينة طرابلس في احتفال لتحية الباخرة المصرية التي أحضرت شحنة من الرز هدية"[64] وتجدر الإشارة أنه في السنوات التي سبقت الجفاف تعرضت طرابلس إلى هجمات الجراد، فقامت الإدارة البريطانية بإصدار إعلان رقم 94 لسنة 1945م ينص على إلزام المواطنين بضرورة مكافحة الجراد، ورغم كل هذه الترتيبات الوقائية إلا أن الجراد أهلك المحاصيل الزراعية وقضى على الآلاف من الثروة الحيوانية إضافة إلى ارتفاع معدل وفيات السكان في طرابلس، حيث بلغ معدل الوفيات فيها من (الأطفال) على سبيل المثال نسبة 33.3% سنة 1949م. الأمر الذي جعل من الإدارة البريطانية (على سبيل تخفيف معاناة السكان) تقوم بتوفير بعض المواد الغذائية خاصة الشعير الذي كان يوزع على المناطق والمخيمات حسب نظام الأفراد (الجرامات).

وفي عام 1948م حاولت الإدارة الإنجليزية مكافحة الأمراض الخطيرة من خلال محاصرة الحالات المصابة وتنفيذ حملات التطعيم، والتشديد الأمني على منافذ البلاد، وقد سجل التقرير العام للإدارة العسكرية البريطانية لسنة 1947م حملات تطعيم شملت 140331 شخصا من الأمراض الخطيرة، كما تم في موسم الحج لعام 1948م إجراء الكشف الصحي والتطعيم لعدد 72 حاجا من برقة، غادروا برا إلى مصر ومنها إلى مكة، وعند العودة تم حجرهم في محجر صحي وجرى رشهم بمبيد (ddt) قبل أن يسرحوا[65] ونتيجة لهذه الإجراءات لم تظهر حالات جديدة تذكر مما جنب ليبيا انتشار وباء جماعي فيها.

ورغم مساوئ الإدارة العسكرية البريطانية في ليبيا على كل الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلا أنه يمكن القول بأن برقة شهدت تطورات نسبية في مجال الخدمات الصحية، حيث تم افتتاح أقسام الأشعة والتحاليل وأمراض النساء والولادة في بنغازي، وتجهيز قسم الأمراض النفسية في منطقة مسة،

واستيراد معدات صحية لوازم الحجر الصحي، وقام (الصليب الأحمر) البريطاني بخدمات الرعاية الصحية للأم والطفل في مدينتي بنغازي ودرنة، كما تم تحت إشراف أطباء الجيش البريطاني تخصيص أحد مستشفيات الجيش البريطاني لسكان مدينة طبرق[66] وفي المجمل، أصبح في برقة إلى جانب أفراد الطاقم الطبي البريطاني خمسة مستشفيات بها 541 سريرا و34 مستوصفا، أجريت من خلالها في عام 1948م (على سبيل المثال) أكثر من ألف عملية جراحية مختلفة، سجل منها 40 عملية من جراء انفجارات ألغام الحرب العالمية الثانية.

وعقب استقلال ليبيا تفشى بصورة واسعة بين الأطفال مرض التراخوما، وسبب في فقدان البصر لعدد كبير منهم، ووفقا للتقارير الطبية المنجزة يومذاك أنه أصيب حوالى 75% من الأطفال، كما بلغ نسبة الوفيات من مرض الدرن حوالي 500 لكل 1000 طفل. لقد كانت الخدمات الصحية متواضعة جدا في حقبة الخمسينات، فمثلا: لم يزد عدد جميع الأطباء في عام 1959م عن 180 طبيبا في جميع أنحاء البلاد. وبعد ظهور النفط تحسن الوضع الصحي بارتفاع عدد المستشفيات الحديثة وعدد الأطباء، مما انعكس على نسبة الوفيات بين الأطفال، فمثلا، في عام 1973م انخفضت نسبة الوفيات إلى 130 لكل 1000 طفل[67].

على سبيل الختم:

بناءً على ما سبق، فإن الشعب الليبي يُعد من أكثر الشعوب التي تعرضت للأمراض والأوبئة، ولا سيما في القرنين التاسع عشر والعشرين. ورغم الإمكانات البسيطة، وحالة البؤس المستشري في البلاد يومَها، فقد اهتدى الليبيون؛ بواسطة طب الأعشاب التقليدي، إلى عدة طرق لمكافحة الأمراض. فعلى سبيل التمثيل، كان يُستعمل لمرضى (الملاريا) زيت الكافور وجذور نبات تمر العبيد (بلح الصحراء)، وكان مرضى (الأنفلونزا) تُحرق لهم أوراق نبات

(أذخر) النجيلي، ليتم استنشاق الدخان المتصاعد منها، كما كان نبات الزنجبيل يُستخدم لعلاج مرض الطاعون. ومادة الطرونة (النطرون) في مكافحة (الديزنتاريا)[68] وهي مادة طبيعية على هيأة أملاح تكثر في بحيرات أوباري بمنطقة فزان في ليبيا، تجمع في شهر يوليو فقط في كل سنة، وكانت تصدر إلى إيطاليا وفرنسا أيام العهد الإيطالي[69] كما استعمل الليبيون نبات الشاي للوقاية من أمراض الكوليرا والتيفوس. ومادة الجير في تبييض جدران البيوت، وحينما يفشل طب الأعشاب في حالاتٍ؛ مثل علاج مرضى السل والدفتريا، يُلجأ في العادة إلى العلاج بواسطة الكيّ؛ حيث يقوم المعالِج بكيّ المصاب بالسل في الضلع الرابعة من الأضلاع الصادقة، ليبقى المريض بعْدَها ينفث الدم والصديد ثلاثةَ أيام، ثم يشفى. أما المصاب بالدفتريا، فكان يقوم بكيّه على مستوى رأسه بمسمار[70]. وكانت أكثر الأمراض التي تعالج بالكي عند الليبيين هي أمراض الرأس والعيون والأمراض المجهولة التي يعبر عنها في وقتنا الحالي بالأورام الخبيثة.

على هذا النحو، استطاع الليبيون مواجهة الموت، بين الفينة والأخرى، رغم الفقر المدقع، وتفشي الأوبئة، إلى أنْ نالت ليبيا استقلالها. وتمّت مكافحة الأمراض المستوطنة بواسطة التطعيم الإجباري؛ فانخفضت نسبة الإصابة بالأمراض الخطيرة، ولا سيما الدرن والملاريا والتراخوما والجذام. وتوجد رسالة ثناء مؤرخة في 19 أبريل 1962م مرسلة من السفارة الأمريكية إلى السيد/ مدير برنامج استئصال الملاريا بالمملكة الليبية جاء فيها: "يسعدني أن أرفع لكم رسالة خاصة من رئيس الولايات المتحدة وأن أثني على ليبيا في حملتها لاستئصال الملاريا من أراضيها، ليبيا (...) كانت من أوائل دول الشرق الأوسط وإفريقيا التي شرعت في حملتها ضد الملاريا، والآن وبعد عملية أربع سنوات يبدو أن ليبيا على عتبة التخلص من هذا المرض"[71] وبالفعل لم تمض عشرة أعوام حتى أصبحت ليبيا خالية تماما من مرض الملاريا بعد أن كانت في قائمة

الدول بها، ويعود ذلك إلى التطور الملحوظ في الخدمات الصــحية في حقبة الستينيات وبداية السبعينيات من القرن المنصرم، حيث ارتفع عدد المستشفيات والمؤسسات الصحية العامة، فعلى سبيل المثال، ازدادت مراكز مكافحة الدرن من 5 مراكز في بداية الســتينيات إلى 14 مركزا عام 1972م[72] الأمر الذي نتج عنه انخفاض معدل الإصابة بهذا المرض الخطير.

وفي الختام، يتضــح مما تقدم، أن هناك جملة من العوامل المســاعدة في تفشـــي الأمراض الخطيرة في ليبيا، منها: انتشـــار الجهل إبان الحكم العثماني الذي اســـتمر ما بين 1551م إلى 1911م، ســـياســـية المعتقلات في العهد الإيطالي، تردي الأوضاع الاقتصادية في جميع أنحاء البلاد جراء تتابع موجات الجفاف والمجاعة وعدم الاهتمام بالزراعة. يضـــاف إلى ذلك تجارة القوافل وعبورها المتواصل للصحراء بين المشرق والمغرب.

هذه هي أهم العوامل التي ساعدت في انتشار الأوبئة والأمراض القاتلة في ليبيا عبر تاريخها الطويل.

الهوامش:

1. كانت الأنفلونزا هي الوباء الأول الذي أصاب سكان "العالم الجديد" في سنة 1493م؛ حيث انتقلت من الخنازير التي كان تحملها سفن كريستوفر كولومبوس. راجع: جان شارل سورنيا في (تاريخ الطب: من فن المداواة إلى علم التشخيص)، ترجمة: إبراهيم البجلاتي، من منشورات سلسلة "عالم المعرفة"، الكويت، (العدد 281) يناير2002) ص121
2. جان شارل سورنيا، مرجع سابق، ص21
3. الصادق النيهوم (أطلس الرحلات)، الجزء الرابع، من منشورات دار المختار، جنيف/ سويسرا، 1979م، ص10
4. محمد بن إسماعيل البخاري (صحيح البخاري)، الجزء السابع، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده، ميدان الأزهر بمصر، د.ت، ص168
5. ابن الجوزي (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، الجزء السادس، دار الكتب العالمية، بيروت، د.ت، ص26
6. الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، الجزء السادس، من منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، د.ت، ص130
7. ابن سينا (الرسالة الألواحية)، تحقيق: محمد سويسي، الدار العربية للكتاب، تونس/ ليبيا، الطبعة الأولى، د.ت، ص11
8. ابن حجر العسقلاني (فتح الباري في شرح صحيح البخاري)، تحقيق:عبد العزيز بن باز، الجزء الحادي عشر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 2019م، ص263
9. زيغريد هونكه (شمس العرب تسطع على الغرب)، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، من منشورات المكتب التجاري، بيروت، الطبعة الثالثة، 1979م، ص274

10. انظر: جان شارل سورنيا، مرجع سابق، ص369
11. ابن خلدون (المقدمة) دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الرابعة، د.ت، ص302
12. زيغريد هونكه، مرجع سابق، ص276.
13. لمزيد من التفاصيل، راجع البارون ألفونص روسو (الحوليات التونسية: منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر) ترجمة: محمد عبد الكريم الوافي، من منشــورات جامعة قاريونس، بنغازي/ ليبيا، الطبعة الأولى، 1992م
14. أحمد بن أبي الضــياف (إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان)، الجزء الثالث، من منشــورات كتابة الدولة للشــؤون الثقافية والأخبار، تونس، الطبعة الأولى، 1963م، ص ص 14-15
15. البارون ألفونص روسو، مرجع سابق، ص 332
16. جان شارل سورنيا، مرجع سابق، ص190
17. ميشــيل فوكو (تاريخ الجنون في العصـر الكلاسـيكي)، ترجمة: سـعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضــاء - بيروت، الطبعة الأولى، 2006م، ص26
18. أحمد بن أبي الضياف، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ص 128-129
19. أحمد بن أبي الضياف، مرجع سابق، الجزء الرابع ص ص 133-134
20. يراجع مجلة "الوطن العربي"، باريس، العدد 55، من 3 إلى 9 مارس 1978م، ص76
21. يراجع مجلة "الحوادث"، بيروت، العدد 912، مايو 1974م، ص80
22. محســن العتيقي (إيبولا الإرهاب البيولوجي)، مجلة "الدوحة"، العدد 84، أكتوبر 2014م، ص156
23. محمد المبروك المهدوي، جغرافيا ليبيا البشــرية، منشــورات جامعة

قاريونس، بنغازي، الطبعة الثانية 1990م ص9

24. جون كاري (وقائع ومشاهير)، ترجمة: محمد المغربي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، مصراتة/ ليبيا، الطبعة الرابعة، 2004م، ص21
25. أرنولد توينبي (الفكر التاريخي عند الإغريق) ترجمة: لمعي المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية 1990م ص215
26. يوحنا بطرس ثريغه (تاريخ قورينا) ترجمة: سليمان إبراهيم الجربي، مجلس الثقافة العام، سرت، الطبعة الأولى 2006م ص 222
27. الطاهر أحمد الزاوي (تاريخ الفتح العربي في ليبيا) دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، 1963م ص185
28. إتوري روسي (ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م)، ترجمة: خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ليبيا/تونس الطبعة الثانية، 1991م ص103
29. إتوري روسي، مرجع سابق ص222.
30. شارل فيرو (الحوليات الليبية: منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي)، ترجمة: محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، الطبعة الرابعة 1998م، ص153.
31. أحمد بك النائب الأنصاري (المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب)، دار الفرجاني، طرابلس/ ليبيا، الطبعة الأولى، 2015م، ص 200.
32. شارل فيرو، مرجع سابق، ص 225.
33. شارل فيرو، مرجع سابق، ص298
34. حسن الفقيه حسن، (اليوميات الليبية) تحقيق: محمد الأسطى وعمار جحيدر، الجزء الأول، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2001م ص672

35. يقول المؤرخون: إن عهد علي القرمانلي كان عهد قلاقل وفتن، ذلك بسبب استسلامه للانكشارية الذين كانوا يحكمون البلد باسمه، يراجع: الطاهر أحمد الزاوي، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، دار الفتح للطباعة والنشر/ بيروت، الطبعة الأولى 1970م ص226

36. إتوري روسي، مرجع سابق ص326.

37. ريتشارد توللي (عشر سنوات في بلاط طرابلس)، ترجمة: عمر الديراوي أبو حجلة، الناشرون دارف المحدودة، لندن، الطبعة الأولى، 1984م، ص199.

38. خليفة محمد التليسي (حكاية مدينة: طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب)، الدار العربية للكتاب، د.ت، ص 143.

39. ريتشارد توللي، مرجع سابق، ص190.

40. ريتشارد توللي، مرجع سابق ص ص 193-194.

41. شارل فيرو، مرجع سابق. ص ص 338-339.

42. مراسلات الوكالة الصحية بمرسيليا نقلا عن: امحمد سعيد الطويل، الوقاية الصحية في إيالة طرابلس الغرب خلال العهد القرمانلي، مجلة تراث الشعب، العدد 3-4 السنة التاسعة عشرة، 1999م ص69

43. خليفة محمد التليسي، مرجع سابق، ص147

44. إتوري روسي، مرجع سابق ص428

45. شارل فيرو، مرجع سابق، ص 471.

46. باولو دي لاشيلا (أخبار الحملة العسكرية التي خرجت من طرابلس إلى برقة عام 1817م) ترجمة: الهادي مصطفى أبولقمة، منشورات دار مكتبة الفكر، طرابلس/ليبيا الطبعة الاولى، 1968م ص77

47. هو(حاكم بنغازي ودرنة) البي محمد ابن يوسف باشا القرمانلي

48. هنري بيتشـــي، وفريدرك بيتشـــي (الأخوان بيتشـــي والســاحل الليبي 1821-1822م) ترجمة: الهادي مصـــطفى أبولقمة، منشـــورات جامعة قاريونس، بنغازي، الطبعة الأولى 1996م ص ص 298-299

49. تيسير بن موسى (المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني- دراسات تاريخية اجتماعية) الدار العربية للكتاب، ليبيا/ تونس، الطبعة الأولى 1988م ص 271

50. محمد امحمد الطوير (تاريخ الزراعة في ليبيا أثناء الحكم العثماني)، الدار الجماهيرية للنشـــر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 1991م، ص109.

51. Cholera epidemics in the ottoman empire during 1910-1913 and relevant events, https:/www.ncbi.nim,gov/pubmed/11625085.

52. يراجع: مصـــطفى عبد الله بعيو (المختار في مراجع تاريخ ليبيا)، الجزء الثالث، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثالثة، 1975م، ص61

53. فرانشـــســـكو مالجيري (الحرب الليبية 1911-1912م، ترجمة: وهبي البوري، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس 1978م ص190

54. تيسير بن موسى، مرجع سابق ص270

55. فرانشسكو مالجيري، مرجع سابق ص204

56. محمد فؤاد شكري (السنوسية دين ودولة)، مراجعة: يوسف المجريسي، مركز الدراســـات الليبية/ أكســـفورد، بريطانيا، الطبعة الأولى، 2005م، ص481.

57. يراجع: وهبي البوري (مجتمع بنغازي في النصـــف الأول من القرن العشـــرين)، نشْـــر مجلس الثقافة العام، ســـرت/ ليبيا، الطبعة الأولى، 2008م، ص ص 146-147. والجدير بالذكر إن بنغازي أكثر مدن شرق

ليبيا التي تعرضـــت للأوبئة الفتاكة، ففي عام 1829 انتشـــر فيها وباء الكوليرا عن طريق مصـــر، وفي عام 1858م تفشـــى مرض الجدري بين سـكانها وقتل ثلاثة آلاف شخص من العرب و120 يهوديا و16 مسيحيا في الوقت الذي لم يوجد في المدينة سوى ،ميدلية واحدة يديرها صيادلة عســكريون أتراك عام 1895م يراجع: إبراهيمَ المهدوي "حكاية مدينتي بنغازي دراســة وثائقية" الناشــر مكتبة فبراير، بنغازي/ليبيا الطبعة الثانية 2013م ص107.

58. يراجع: عبدالكريم أبو شــويرب، طبيب يناهض المحتل و يدعو إلى الحرية، مجلة تراث الشعب، العدد 3ـ4 السنة التاسعة عشرة، 1999م ص 27.

59. عبدالسـلام محمد شلوف (سلوق عرين الأسـود) مجلة الثقافة العربية، العدد الخامس/السنة السادسة والعشرون مايو1998م ص93

60. جورجو روشـا وآخرون (عمر المختار وإعادة الاحتلال الفاشـي لليبيا)، ترجمة: عبد الرحمن سـالم العجيلي، من منشــورات "مركز دراســة جهاد الليبيين للدراســات التاريخية"، الجماهيرية العظمى، 1988م، ص 168، ويُراجع أيضـــاً: أنجيلو ديل بوكا (الإيطاليون في ليبيا)، الجزء الثاني، ترجمة: محمود علي التائب، من منشــورات "مركز دراســة جهاد الليبيين للدراسات التاريخية"، 1995م، ص ص 239ـ240.

61. يراجع: يوسـف سـالم البرغثي (المعتقلات الفاشـيستية بليبيا: دراسـة تاريخية)، من منشورات "مركز دراسة جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، الجماهيرية العظمى، 1985م، ص 98.

62. يراجع: منصــور علي الشــريف (الخوف والجوع والمقابر في مدينة طرابلس ـ الظروف السـياسـية والاجتماعية الصـعبة وآثارها على سـكان مدينة طرابلس حتى ســنة 1950م)، اللجنة الشــعبية العامة للثقافة

والإعلام، الجماهيرية، الطبعة الأولى 2008م ص 111

63. مفتاح السيد الشريف (ليبيا نشأة الأحزاب ونضالاتها) دار الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى 2010م ص 288

64. ا سمهان ميلود معاطي، القحط والجفاف وأثره في النزوح السكاني في ولا ية طرابلس 1947ـ1948م مجلة كلية الآداب جامعة الزاوية/ ليبيا، العدد الثامن والعشرون- ديسمبر 2019م ص 101.

65. أحمد محمد القلال (سنوات الحرب والإدارة العسكرية البريطانية في برقة 1939ـ1949م) منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، الطبعة الأولى 2003م ص 332

66. أحمد محمد القلال، مرجع سابق، ص 331.

67. مصطفى عمر التير(التنمية والتحديث – نتائج دراسة ميدانية في المجتمع الليبي) منشورات معهد الإنماء العربي، جامعة قاريونس، الطبعة الأولى 1980م ص 57

68. جو نا ثان كودري "يوميات الطبيب جو نا ثان كودري في قلعة طرابلس الغرب 1803ـ1805م، ترجمة: عبدالكريم أبو شويرب، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، 1982م ص68

69. النظرون: مادة تتكون من أملاح كربونات الصوديوم وهي ثلاثة أنوا ع: (الطرونة والنطرون الترموناتريت) وأحسن الأنوا ع الذي يستخدم في الفردغة. يراجع: جمال الدين الدناصوري (جغرافية فزان- دراسة في الجغرافيا المنهجية والإقليمية) دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، 1967م ص 294.

70. يراجع: عبد السلام حمد الحبوني (أنساب قبائل العرب)، تحقيق: خالد بدر العبيدي، من منشورات شركة رواد المستقبل، برقة/ بنغازي، الطبعة الثانية، 2020م، ص ص 368ـ369.

71. رسالة من السفارة الأمريكية مؤرخة في 19/أبريل/1962م موجهة إلى السيد/ خليفة المسلاتي مدير برنامج استئصال الملاريا بالمملكة الليبية.

72. يراجع الكتاب السنوي الثالث، خطة التنمية الثلاثية عام 1975/1973م الجمهورية العربية الليبية، إعداد: إدارة الإعلام بالهيئة العامة للسياحة والمعارض.

"ليبيون أم أمازيغ"
قراءة في كتاب الأمازيغ عبر التاريخ
نظرة موجزة في الأصول والهوية للدكتور: العربي عقون

"إن البلاد الواقعة في عمق الداخل أعلى سرت وقورينا – وهي منطقة قاحلة جرداء- يشغلها الليبيون"

✍ سترابو

صدر عن مؤسسة التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع كتاب من الحجم الصغير تحت عنوان: الأمازيغ عبر التاريخ نظرة موجزة في الأصـــول والهوية، الطبعة الأولى عام 2010م الرباط، المملكة المغربية. يتناول هذا العمل، تاريخ الأمازيغ عبر العصـور، من حيث الأصـول واللغة بالإضـافة إلى الهوية، وقد جاء الكتاب دون أبواب أو فصـول، وإنما على هيأة مقالات منفصـلة، وهي كالتالي: مقدمة، مدخل، اللغة الليبية، أصـــول الأمازيغ، أهمية الدراســـات الألســـنية، آليات الاستعراب، الأمازيغ يعربون أنفسهم، خاتمة.

يذكر الكاتب في المقدمة، أن مســألة الهُوية في إفريقيا تثير إشــكالا عميقا، بســـبب التعامل مع التاريخ بشــكل انتقائي، وذلك بالتركيز على فترات وحذف أخرى، بالإ ضافة إلى تكريس حالة الا ستلاب التي جعلت بعض شعوب إفريقيا الشمالية يتنكرون لذاتهم، وينافحون من أجل انتماءات مصطنعة، مشيرا في ذلك إلى التاريخ المدرســي الممتلئ بمغالطات كثيرة، مثل تقديم الشـعب الأمازيغي على أنه شعب عربي بالمعني العرقي. وهي أعمال مشبوهة يقف خلفها بحسب قوله بعض نشطاء السياسة البائسين[1]. ونحن بدورنا نستغرب مثل هذا الحديث،

فعروبة البربر تطرق لها عدد كبير من المؤرخين، عرب وأجانب، مثلما تناول دعاة النزعة البربرية في فرنسا مسألة انتساب البربر من الناحية العرقية إلى سكان أوروبا. وكلا الفريقين كانت له حجج تاريخية ولغوية وأنثروبولوجية، وقد استند أصحاب الرأي الأول إلى ما ذكره الطبري وابن خلدون والمسعودي وغيرهم من المؤرخين العرب. فالطبري ينسب البربر إلى عمليق بن لوذ بن نوح، وجعلهم أخلاط من كنعان وعمليق[2]، ويذهب ابن خلدون إلى أن البربر هم بقايا سكان فلسطين فيقول: **"وكان بين بني فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل حروب كثيرة، وكان بالشام كثير من البربر إخوانهم، ومن سائر أولاد كنعان يضاهونهم فيها، ودثرت أمة فلسطين وكنعان وشعوبها لهذا العهد، ولم يبق إلا البربر"**[3]، أما المسعودي يرى أن البربر من غسان وغيرهم، تفرقوا إثر سيل العرم[4] وصاحب المسالك والممالك يقول: **"كانت دار البربر فلسطين ومليكها جالوت، فلما قتله داود، جلبت البربر إلى المغرب حتى انتهوا إلى لُوبية، ومراقية، فتفرقت هناك (...) ونزلت لواته أرض برقة"**[5].

وفي العصر الحديث يقر المؤرخ الأمريكي وليم لانجر في تاريخه "موسوعة تاريخ العالم" بوجود هجرات متعددة من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام إلى إفريقيا، ويفند فكرة هجرة البربر من أوروبا[6].

أما أصحاب الفريق الثاني يستندون إلى أقوال المستشرقين وعلماء الأنثروبولوجية الفرنسيين على وجه الخصوص، وتتلخص آراؤهم في أن البربر ليسوا ساميين مثل العرب، وقد سبقوا العرب إلى شمال إفريقيا، وينتسبون عرقيا إلى السكان الذين يعيشون في أوروبا، ومهما يكن من الأمر، فالبربر بالمفهوم الاثني لا وجود لهم، ومن الخطأ انتسابهم إلى أمة أو جنس بعينه، رغم وجود بعض الأدلة الأنثروبولوجية والتاريخية التي تشير إلى أصلهم السامي، لكنها مع ذلك، لا تكفي في الكشف عن انتسابهم العرقي بشكل واضح.

وفي خضم الحديث عن تاريخ الأمازيغ وعلاقتهم بالفراعنة عد الباحث

القبائل الليبية التي ذكرت في النقوش الفرعونية مثل: الليبو والتحنو والتمحو والمشواش ضمن قدماء الأمازيغ[7] الأمر الذي يدعو إلى التساؤل، من أين جاء بهذا الرأي؟

يبدو أن كثيرا من البحاث الأمازيغ يخلطون بين الليبيين الشرقيين وهم سكان ما يعرف بدولة ليبيا اليوم، والليبيين سكان شمال إفريقيا أصحاب الحرف أو اللغة الليبية (التيفيناغ) المتأثرة باللغة البونية الفينيقية الأصل بحسب تعبير أوريك بيتس[8]، ويجب الإشارة إلى أن ليبيا كمدلول جغرافي لم يكن في زمن الفراعنة يعني شمال إفريقيا، وإنما كان المصريون يطلقونه على القدر الذي عرفوه من إفريقيا، وهي المنطقة المحصورة ما بين وادي النيل شرقا وإقليم طرابلس، ويظهر أن التسمية جاءت في عهد الأسرة التاسعة عشرة الفرعونية زمن مرنبتاح، حينما احتكوا بجيرانهم أولئك الليبيو، فأطلقوا على سكان الجهة الغربية من نهر النيل اسم (الليبيون) ومن ثم أخذ الإغريق التسمية كما هي من المصريين، ففي العصور الكلاسيكية، كان الإغريق يستخدمون ليبيا للدلالة على إقليم برقة، خاصة لدى هوميروس واسكيلوسو بنداروس، وكذلك الجغرافي العظيم سترابو ذكر: "إن البلاد الواقعة في عمق الداخل أعلى سرت وقورينا – وهي منطقة قاحلة جرداء- يشغلها الليبيون"[9] أما في عهد هيرودوتس أخذت ليبيا مفهوما مغايرا، وأصبحت تعني من دلتا النيل إلى المغرب الأقصى، وبعدما جاء الرومان أطلقوا على الجزء الشمالي من قارة إفريقيا اسم (ليبيا) ودعوا جميع سكان هذه المنطقة (الليبيين). وفي آخر عهدهم عاد اسم ليبيا يطلق على برقة ومصر الغربية.، ففي ملحمة بونيقة (مثلا) نجد الشاعر اللاتيني سيليوس ايتاليكوس يفرق بين سكان شمال إفريقيا، فأهل المغرب الأقصى يسمون لديه (المور) وأهل المغرب الأوسط يسمون لديه النوماديين، أما تعبير الليبيين فالمراد منه أهل ما يعرف ليبيا اليوم، "والدليل على هذا اسماء القبائل التي ذكرها مثل: الجرامنت والنساMونيين، والكينوبيين، والاسبوتيين والادرماخيداي وغيرهم،

وليس هذا فقط بل هو يعدد مدنهم المعروفة كصبراتة ولبدة وأويا بتركيباتها الاجتماعية والعرقية، بل يدمج معهم (المتليبين) من الإغريق والصقليين في قورينا وبرنيق، ويتحدث عن الليبيين في سرت ومعبد آمون سيوة، والصحراء الشاسعة والشمس الحارق"[10]، ورغم كل ذلك، نجد بعض الكتاب الأمازيغ يؤكدون- دون انتباه لما طرأ على اسم ليبيا من تبدلات تاريخية-أن شيشنق مؤسس الأسرة الفرعونية الثانية والعشرين أمازيغي ،وافتعلوا التقويم البربري بمناسبة توجه شيشنق إلى مصر وجعلوه بداية للسنة للبربرية. وفي الواقع أن شيشنيق لم يدخل مصر عن طريق الغزو، وإنما كان من نسل قبيلة المشواش التي نزحت من الصحراء الغربية (ليبيا اليوم) إلى مصر واستقرت فيها مدة ستة أجيال، وتمصرت تمصيرا تاما واعتنق أفرادها الديانة المصرية، واستخدموا مرتزقة لدى بعض ملوك الفراعنة، وازداد نفوذهم في الجيش، حتى حاز شيشنق على رتبة رئيس الحامية الحربية، وعندما مات الملك (بسوسينس) استولى على العرش في تانيس وزوج ولي عهده وكان يسمى (اوسركون) من ابنة الملك وكانت تسمى (ماعت كا رع) ليجعل مركز العائلة شرعيا[11]. وبذا، تمكن أفراد هذه الأسرة من تأسيس ما يعرف في تاريخ الفراعنة بالأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين. وبعيدا عن الاستطراد، فإن جميع الأخبار التي وردت عن القبائل الليبية قبل زمن هيرودوت جاءت عبر النقوش الفرعونية، وهي "في الواقع تقارير حربية سجلها الجانب الآخر"[12]، لا يظهر فيها سوى الملامح الجسمانية لليبيين، وعاداتهم وأسلحتهم، وملابسهم، فهي بالتالي، ليست تاريخا بالمعنى العام، ولم تشر ولو على سبيل التلميح إلى أمازيغية هذه القبائل.

وفيما يتعلق بالبربر، يقول الباحث: إن كلمة (بربر) ليست يونانية الأصل[13]، وإنما عربية، مستندا في ذلك إلى كلام ابن خلدون عن حكاية إفريقش الذي سمع القوم يتحدثون ولم يفهم من حديثهم شيئا فقال: ما أكثر بربرتكم[14]، وبذا سمّوا (البربر). وهذا استنتاج خاطئ، فكلمة (بربر) سابقة لعهد العرب وقبل

الفتح الإسلامي بقرون عديدة، فهي ترجع إلى اللفظ اليوناني القديم berber ومنها جاءت جميع الكلمات الدالة على متعلقاتها في اللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة، وهي في الأصل تعني: الأجنبي، الغريب، المختلف لغة وعادات، غير اليوناني، ثم صارت عند الرومان كل ما ليس رومانيا، ثم تحولت إلى كل ما لم يكن نصرانيا عند انتشار المسيحية[15] وللأسف، يظهر أن تأكيد الأصل العربي لمعنى البربر يعود إلى الفكرة المتأصلة عند بعض الأمازيغ وهي أن المستعمر (العربي) هو من أطلق على أهل شمال إفريقيا لفظ البربر.

وفي معرض الحديث عن اللغة الأمازيغية يرى الباحث أن اللغة الأمازيغية أو الليبية كانت منتشرة في عموم شمال إفريقيا من النيل إلى الأطلنطي وطواها النسيان عند أهلها بسبب انتشار الإسلام في القرن السابع، وأنها (أي اللغة الأمازيغية) كانت كاملة الحضور عبر القرون السابقة، وتراجعت اليوم أمام حركة استعراب يدعمها الدين والمدرسة والإدارة، ومما جاء في كلامه "أن تعرض البلاد للسيطرة الأجنبية وزوال النخبة أدى إلى ضعف الوعي بأهمية الوحدة الإثنية واللغوية (...) فالأمازيغي هو كل من ليس ذا أصول أجنبية، أي الذي ليس بونيا ولا لاتينيا ولا ونداليا ولا بيزنطيا ولا عربيا ولا تركيا ولا أوروبيا"[16].

نفهم من هذه المقاربة، أن الأمازيغ من أصل عرقي إثني واحد، وأصحاب لغة واحدة، وأن حركة الاستعراب التي جاءت مع الإسلام كانت السبب المباشر في تراجع الأمازيغية واندثارها، لكن الحقيقة غير ذلك، فعلم دراسة الجماجم القديمة، ودراسة جذور السلالات أثبت بأن البربر لا يؤلفون جنسا مستقلا بذاته، وإنما يمثلون عدة أنواع عرقية (إثنية) وكذلك اللغة، فلا وجود للغة واحدة بينهم، وإنما عدد كبير من اللهجات البربرية تقدر بخمسة آلاف لهجة. وفي هذا الصدد يقول المؤرخ أندريه باسي (وهو كاتب فرنسي بذلت بلاده أموالا طائلة ليثبتوا وجود اللغة الأمازيغية) أنه "لم تقدم البربرية أبدا لغة حضارة، لا في الماضي ولا في الحاضر، كما أنها لم تقدم لغة موحدة موزعة على مجمل البلاد،

كما لم يكن لها آداب مكتوبة، أو مدارس تعلم فيها، لقد كانت وما زالت لغة محلية، لقد فتتت البربرية إلى لهجات متعددة، مجزأة حسب كل قرية، لدرجة أنه لا توجد لهجات للبربرية، ولكن يوجد لها واقع لهجوي، بل إن التفاهم بين جماعة بربرية وأخرى قليل ومعدوم"[17].

وبناءً على ما سبق، فإن ما دعاه الباحث بالحرب الأيدولوجية ضد اللغة الأمازيغية، تحت غطاء معاداة الاستعمار لا توجد إلا في خياله، بل على العكس تماما، فالمناداة بالنزعة البربرية الانفصالية جاءت مع الاحتلال الفرنسي لشمال إفريقيا، ففي الجزائر مثلا، أوجد الفرنسيون من العدم النزعة البربرية، ومنحوا مجموعة من الجزائريين الجنسية الفرنسية، وقاموا بإنشاء الأكاديمية البربرية في باريس حتى ينقسم الشعب الجزائري إلى شعبين، شعب يتكلم البربرية و شعب يتكلم العربية، ويضمنوا بالتالي هيمنة اللغة الفرنسية كلغة مشتركة بين الشعبين. وهو ما صرح به الجنرال ديغول عشية ا ستقلال الجزائر" ستبقى الجزائر فرنسية من عدة أوجه، وستحافظ على الطابع الذي اكتسبته مثلما احتفظت فرنسا بالطابع الروماني" ويقول في مكان آخر من (مذكرات الأمل) "وهل يعني ذلك أننا إذا تركناهم يحكمون أنفسهم -يقصد الجزائريين- يترتب علينا التخلي عنهم بعيدين عن أعيننا وقلوبنا، طبعا لا، فالواجب علينا مساعدتهم لأنهم يتكلمون لغتنا ويتقاسمون معنا ثقافتنا"[18] وبالفعل، عمل الاستعمار الفرنسي على محاربة اللغة العربية طوال فترة الاستعمار الذي استمر لمدة قرن وثلث قرن، من أجل القضاء على كل رغبة في تشكيل شخصية وطنية أصيلة، ولذلك منع تدريسها في المدارس وأصدر قراراً يعتبرها لغة أجنبية، وترتب على ذلك تعدد النزعات داخل المجتمع الجزائري، "وأثيرت قضايا قديمة تجسدت في التقسيم اللغوي العنصري، مثلا إمكانية منافسة اللغة القبائلية البربرية غير المكتوبة للغة العربية في بلاد القبائل، وأن الفرنسية هي لغة الخبز والعربية لغة الكلام، وقد روّج المناهضون للتعريب في البادية أن الأطفال رضعوا البربرية في أحضان

أمهاتهم"[19] وقد استمرت معاناة اللغة العربية حتى بعد الاستقلال من طرف التيار الفرانكوفوني، رغم أن القوانين الجديدة للدولة الجزائرية المستقلة تنص كلها على أن اللغة العربية هي اللغة الوطنية الرسمية للدولة الجزائرية إلا أن سيطرة التيار الفرانكوفوني على مفاصل الدولة جمد قانون تعميم استعمال اللغة العربية مع بداية الأزمة السياسية عام 1992م باعتبارها لغة غير عصرية، وهي العامل الأساس في تأخر الجزائر ثقافيا وفكريا.

ويصف الباحث الآراء التي تؤكد نشوء المجموعات الأمازيغية من الغزو والنزوح والهجرة بالنظرية الإشهارية، محاولا التوسل إلى منهاج الأنثروبولوجيا والألسنية، وإن كان بشكل انتقائي، وفيه كثير من المغالطات التاريخية، نذكر منها على سبيل المثال، قوله: إن قبائل الجرامنت الليبية هم أجداد أمازيغ الصحراء[20]. وهو رأي لا أساس له من الصحة، فأصل الجرامنت ما يزال مجهولا، والنظرية الدارجة حول جذورهم العرقية تذهب إلى أنهم كانوا ضمن أوائل المهاجرين القادمين من صقلية وسردينا نزلوا في برقة، وامتزجوا بالليبيين ثم اضطروا في ظروف غامضة إلى التوغل في دواخل ليبيا، ولعل ما ذكره (استرابو) وغيره من الكتاب الكلاسيكيين **"أن الجرامنتي كان يتزوج عدة زوجات"** ينقض ما جاء به الباحث، فالطوارق (الأمازيغ) مثلا، لا يعرفون تعدد الزوجات، لأنهم "يجلون النساء إلى حد أنهم يقيمون نظام الإرث على جهة عصبية الأم وينتسبون للأم بدلا من الأب، ولا يتزوج الواحد منهم أكثر من زوجة واحدة"[21]. وهنا، تجدر الإشارة إلى أن عادة تعدد الأزواج لم تكن منتشرة بين شعوب الجرامنت وحسب، وإنما لدى جميع القبائل الليبية منذ زمن الفراعنة، فالمصادر اليونانية تجمع بأن الليبي قد عرف تعدد الأزواج، وهو الأمر الذي جعل هيرودوتس نفسه يوصف المجتمع الليبي بالإباحية[22] وكذلك النقوش الفرعونية تؤكد هذه العادة، ففي معبد الكرنك من عصر مرنبتاح يظهر أمير الليبيو مع نسائه وعددهن اثنتا عشرة امرأة، وفي لوحة بعنخي نقرأ أن الملك

نمرود ـ وهو من قبيلة المشـواش التي يجزم الباحث بأمازيغيتها ـ يرسـل زوجته الملكة (نس تنت) إلى زوجات الملك بعنخي لتلتمس العفو عنه، **ولما دخل بعنخي قصـر نمرود أمر بأن تمثل في حضـرته كل زوجات الملك وبناته،** وهذا النص يقطع بتعدد زوجات هذا الملك الليبي الأصـل[23]،ويؤكد من ناحية أخرى، وجود تشـابه كبير بين القبائل الليبية في العادات والتقاليد الاجتماعية، مما يستدعي القول، بأن الشعوب التي كانت تسكن منطقة ما يعرف بدولة ليبيا اليوم في العصـرين الفرعوني واليوناني على وجه الخصـوص، ليس لها علاقة بالليبيين الغربيين المنتشـرين على طول شـمال إفريقيا، أولئك الذين يُطلق عليهم في عصرنا الحديث، على وجه التعميم اسم (الأمازيغ).

وفي سـياق الحديث عن أهمية الدراسـات الألسـنية يشـير الباحث إلى بعض الكتابات التي وصـفها بالسـياسـوية المؤدلجة، والكاريكاتورية السـاذجة على طريقة (شكسبير الشيخ الزبير) ويقصد على وجه الدقة، اجتهادات عثمان سعدي ومقارباته فيما يتعلق بعروبية اللغة الأمازيغية، لذلك نجده يسـخر من جعل ثامطوث (المرأة) من الطمث وأزكاز (الرجل) من ركيزة البيت، وبغض النظر عن أهمية تلك المقاربات، ولعل أشـهرها مقاربة الكاتب الليبي علي فهمي خشـيم الذي أثبت: أن اللغة البربرية ليسـت إلا لهجة عروبية ترجع إلى شـقيقاتها الأخريات"[24].

نقول: لا يحق للباحث أن يبيح لنفسـه ما لا يبيحه لغيره، فها هو يرجع ـ على طريقة الشـيخ زبير ـ جذور بعض الكلمات الأمازيغية إلى اللغة اللاتينية مثل: (الروضـا وأورثو) ويورد آراء برتولون القائلة: إن اللغة الليبية هي لهجة هلينية نقلها التراقيون، بـل نجـده، يثبـت بـأن الأمـازيغيـة لم تكن أبـدا لغة دخيلة، ويستغرب من استمرار بعض الشعوب العربية والمستعربة في الشرق الأدنى على مسـيحيتها، في حين ظل الملايين من غير العرب ـ بحسـب قوله ـ مثل الزنوج والأتراك والأفغان والهنود وهم من أشـد المسـلمين تمسـكا بالإسـلام محافظين

على لغتهم وهويتهم الثقافية[25]، باختصـــار، أراد الباحث القول: إن الهوية الأمازيغية واجهت لعدة قرون محاولات عدة لطمسها على حساب انتشار اللغة العربية والإسـلام، وهو ما أكده صـراحة، ودون خجل، حينما تطرق إلى آليات الاسـتعراب والانقلاب الجذري في البنية السـوسـيولوجية لأفريقيا الشـمالية بمجيء الفتوحات الإسلامية، فقد كان نشر الإسلام المحاولة الأولى للتعريب. وهدف الفتوحات الإسـلامية من أجل الغنيمة ونهب ثروات البلاد، مثلما حدث في سـبيلطة حيث قتل القائد البيزنطي غريغوار "ونهبت البلاد وأخذ الفاتحون غرامة ثقيلة من المدن الإفريقية البيزنطية، وانسـحبوا راضـين عن النتيجة التي حققوها 648م إذ لم يكن للعملية هدف غير الذي حققته"[26]. ثم أخذ يميز بين نشـر الإسـلام وفرض العروبة، وفي رأيه أن الفتح الحقيقي لإفريقيا حدث في عهد معاوية بن سـفيان. أما تحول أمازيغ الأرياف (زناتة، وصـنهاجة، وكتامة) إلى الإسـلام يكتنفه الغموض، وكان اعتناق الإسـلام بالنسـبة لرؤسـاء بعض القبائل لأسـباب سـياسـية أكثر من الاقتناع، إذ إن الإسـلام بحسـب رأيه، بدا لسكان إفريقيا الشمالية مثلما بدا للمسيحيين الشرقيين في شكل أحد المذاهب المسيحية المنشقة، وأ شار إلى المذهب الآريو سي، وزعم بأن مؤ سسه أمازيغي الأصـل[27] في حين أن مؤسـس المذهب الآريوسـي ولد في قورينى عام 270م لأب اسـمه أمونيوس من أصـل ليبي بربري بحسـب شـهادة القديس ابيفانيوس أسقف سلاميس، ولم تذكر المصادر التاريخية أصله الأمازيغي، ولعل الذي دفع الباحث إلى هذا القول، هو اعتقاد دعاة النزعة الأمازيغية بأن جميع الشخصيات الليبية في التاريخ لا بد وأن تكون من الأ مازيغ، لدرجة أنهم جعلوا باتوس الإغريقي مؤسـس مدينة قورينا في برقة أمازيغي الأصـل. وفي الواقع، ليس كل الليبيين من أبناء مازيغ، وفي هذا الصدد "نذكر رأي البلاذري في تنسيب الليبيين إلى بر بن قيس، ونقول: ما جعل الله لكنعان ابنا اسـمه (مازيغ) وإنما له (مصرايم: جد المصرين، وفلشتيم: جد الفلسطينيين، ولوبيم: جد الليبيين حسبما

ذكرته أسفار التكوين"[28].

ويختم الباحث (أليات الاستعراب) بقوله: "كان الدعاة الموفدون من أبناء المذاهب المضطهدة في الشرق إلى الشمال الأفريقي (...) قد أسهموا في نشر الإسلام في صفوف القبائل خاصة القبائل الزناتية، وعزلوا بعض الأمازيغ عن باقي المسلمين، وإذا كان المذهبان الصفري والإباضي قد تزعما النزعة الاستقلالية للمسلمين الأمازيغ وخاصة زناتة، فإن أتباعهما ظلوا على الدوام قوة دينية صغيرة ولكنها نموذجية وصارمة في الإيمان وفي الأخلاق"[29]وهذه غلطة لا تغتفر، فالمذهبان الصفري والإباضية لم يعزل اتباعهما عن باقي المسلمين، وإنما الخلافات العقدية والمذهبية كانت السبب في انكفاء هذه المذاهب على نفسها منذ سقوط الدولة الرستمية في تاهرت على يد الفاطميين، وليس هناك أية نزعة ا ستقلالية بربرية عن العرب المسلمين كما زعم الباحث، ولولا أن كثيرا من الناس لا يتبعون التاريخ قد يظنون صحة هذا الرأي. وفي الواقع، إن الدولة الرستمية التي اشارة إليها لم تؤسس على قاعدة بربرية، والدليل، إن مؤسسيها الأوائل كانوا كلهم عربا، والجدير بالذكر إن البربر أنفسهم أسس عدة دول في المغرب بعد فتح الإسلام ولم يحدث طوال القرون الأربعة عشر أن طالب زعيم واحد بربري، بإقامة دولة على أساس بربري، بل على العكس، "لقد عمل الرستميون طوال فترة حكمهم التي دامت أكثر من قرن وربع قرن، على نشر علوم العربية والإسلام، وبناء المساجد من طرابلس حتى وهران، وفي سائر المدن والقرى، واتخذوها مدارس وجامعات لتحفيظ القرآن الكريم ونشر علوم العربية (...) بل وكان أول إمام لهذه الدولة (عبدالرحمن بن رستم) ألف كتابا في تفسير القرآن"[30] وكانت لهم مراكز فكرية في مناطق: جادو، وجربة، وتاهرت، وجبل نفوسه الذي ظهر فيه علماء بارزون من أمثال: مهدي النفوسي، وأبو الحسن الأبدلاني، وعمروس بن فتح، وإلى يومنا هذا، مايزال أتباع المذهب الإباضي في جبل نفوسة، ينعمون بالهوية الليبية ولم يحاربوا أو يعزلوا، وإنما

عاشوا لعدة قرون في ليبيا التي تقام فيها الشعائر الدينية على المذهب المالكي.

وفي مقال(الأمازيغ يعربون أنفسهم) يقول الباحث: "اتخذ التعريب مناحي عديدة، فقد كانت الأرضية مهيأة له بوجوب نطق العديد من المفردات باللغة العربية لإعلان الانضمام إلى الإسلام، وكان التعريب الفترة الأولى (القرن السابع إلى القرن الحادي عشر) لغويا وثقافيا وفي الأساس حضريا أي داخل المدن"[31] لكن بعد الهجرة الهلالية تم تعريب قسم كبير من الأمازيغ في المناطق الداخلية، بسبب اختلاط العنصر البدوي الهلالي، وفي خضم الحديث عن تغريبة بني هلال برزت النزعة الشعوبية لدى الباحث، لدرجة أنه تعجب من أن يحدث تحول إثنو- سوسيولوجي في شعب يعد بالملايين من قبل بضعة آلاف من البدو، وذكر عدد الوندال الذي كان 80000 بحسب معلومات فيكتور الفيتي وهو عدد مساو تقريبا لعدد الأعراب الذين اكتسحوا إفريقيا في القرن الحادي عشر، متسائلا: ماذا بقي من الوندال بعد قرنين من غزوهم لإفريقيا، أما آثار اكتساح الأعراب للمغرب فهي قوية بادية للعيان[32]

إن الرد الحاسم على هذا الكلام، يعود بنا للتساؤل الذي طرحه الأستاذ عثمان سعدي على أحد دعاة النزعة الأمازغية في الجزائر، لماذا بعد قرون طويلة من الإسلام والتعريب عاد الأتراك أتراكا، والفرس فرسا، رغم أن الأمتين التركية والفارسية تقعان على أطراف الجزيرة العربية، بينما تعرب البربر في نصف قرن فقط، واستمروا عربا حتى الآن، رغم بعد المسافة بين الجزيرة العربية والمغرب العربي"[33]

ربما الجواب: أن البربر من أصل سامي، وهناك تشابه بينهم وبين العرب في كثير من العادات والتقاليد، بل اللغة أيضا، فقد أكد ذلك لانجر W.LANGER بقوله: "تتصل اللغة المصرية القديمة باللغات السامية ولغات البربر بأصل وأحد"[34] وعلى هذا الأساس، لا يوجد ما يستدعي العجب من تمسك البربر باللغة العربية، ألم يكن هؤلاء القوم من حُماة اللغة العربية وأنصارها عبر القرون،

وظهر فيهم علماء أجلاء تبحروا و نبغوا فيها، نذكر منهم: زين الدين بن معطي أول من نظم قواعد النحو العربي في ألف بيت وقلده الكثيرون منهم ابن مالك، وهذا ابن آجرُّوم الصنهاجي صاحب الآجرومية، وهو أشهر متن للمبتدئين في علم النحو، ومؤلفات ابن معط اللغوية، وكتابات أبي موسى الجزولي وغيرهم.

ويمضي الباحث على هذه الوتيرة في الحديث عن امتداد حركة الاستعراب بين قبائل البربر منذ بداية الفتح الإسلامي إلى ما بعد استقلال دول شمال إفريقيا، ويفهم من كلامه، أن الا ستعمار الفرنسي ساهم بشكل كبير في ترسيخ الهوية العربية، خاصة في الجزائر، وهذا غير صحيح على الإطلاق، فالنزعة البربرية Berberisme الفرنكوفيلية جاء بها الآباء البيض الذين أسسوا الأكاديمية البربرية في باريس، لمحاربة اللغة العربية، فها هو لوغلاي المشرف على التعليم في الجزائر يقول: **علموا كل شيء للبربر ما عدا العربية والإسلام.** كما ركز الاستعمار الفرنسي على تأسيس نخبة مفرنسة تؤمن بالأصل الروماني/ الآري للبربر، كي يقطع المغرب عن أصوله المشرقية، ويتم ربطه بأوروبا سياسيا وحضاريا، وفي هذا الصدد يقول لافيجري " **إن رسالتنا تتمثل في أن ندمج البربر في حضارتنا التي كانت هي حضارة آبائهم**"(35). ومن هذا المنظور شن الاستعمار الفرنسي حربا على اللغة العربية، وأغلق معاهد العلم والإدارة، ولم يبق سوى ثلاث مدارس، بغرض الترجمة وتقلد الوظائف الدينية، ولم تبدأ فرنسا بإدخال اللغة العربية إلى المدارس الجزائرية بصفة فعلية إلا في عام 1957م أي بعد استفحال الثورة ضدها، وذلك في محاولة أخيرة منها لترضية الرأي العام الجزائري(36)

وفي الختام، يشير الباحث إلى ما أسماه بـ (تفاعل الاستعراب) الذي حدث بسبب الهجرة نحو الجهات المستعربة خاصة من الجبال نحو مدن الداخل، ويقول: "مع أن هذا الا ستعراب كان يمكن أن يتفاعل وأن يتسع دون أن يطمس الركيزة الثقافية الأولى للشعب، وإذا أضفنا عشرات الآلاف من المعلمين الذين

استقدمتهم بلدان الشمال الأفريقي (خاصة ليبيا والجزائر) من الشرق الأوسط بعد استقلالها على امتداد سنوات لتعريب شعبها الأمازيغي نعرف حجم ما تواجهه اللغة الأمازيغية التي تحتضر الآن وتعيش آخر أيامها"[37].

والسؤال الذي يطرح نفسه، أي شعب أمازيغي في ليبيا تم تعريبه بعد الاستقلال؟

إن أفضل إجابة على هذا السؤال، استدعاء بعض ما رواه الكتاب والرحالة الذين زاروا ليبيا، يقول العبدري: "**وعرب برقة اليوم أفصح عرب رأيناهم، وعرب الحجاز أيضا فصحاء، ولكن عرب برقة لم يكثر ورد الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره، وهم إلى الآن على عربيتهم**"[38] وعن سكان الجبل الأخضر يقول الرحالة الحشائشي الذي زار ليبيا عام 1895م "**وسكان هذا الجبل أعراب بادية لسانهم طلق فصيح بالعربية**"[39] وقبيل استقلال ليبيا بسنتين ذكر الكاتب اللبناني: نقولا زيادة في كتابه: برقة الدولة العربية الثامنة بأن جموع سكان ليبيا عرب "**أكثر من أبناء أي قطر عربي آخر**"[40]. أما فيما يتعلق باستقدام الآف المعلمين بحسب قوله من الشرق الأوسط، نقول: إن هؤلاء المعلمين لا يتجاوز عددهم في واقع الأمر المئات، وجاء أكثرهم من مصر بعد الاستقلال من أجل تعليم أبناء الشعب الليبي في جميع مراحل التعليم، وقد تكفلت الحكومة المصرية على سبيل المساهمة في بناء دولة ليبيا برواتبهم الأساسية، وبهذه المناسبة، طلبت الحكومة الليبية من الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر انتداب ستة أساتذة من خيرة علماء جامعة القاهرة، فوافق على انتدابهم سنتين من أجل إنشاء الجامعة الليبية، التي تعرف اليوم باسم جامعة بنغازي.

ختاما، أود أن أقف قليلا عند الكلمة التي اختتم بها الباحث كتابه بقوله: "إن الهوية هي أساس متين تقوم عليه الأمم والدول، تبنى الفرد المخلص للوطن المنافس للآخرين في بنائه، الهوية تساهم في خلق مجتمع منسجم يمتلك ثقافة

التعاون والتكامل (...) وكل أمم العالم المتقدم بنت قوتها على هويتها، أما الشعوب التي فرطت في ذاتها وهويتها فقد انتجت أجيالا لا تشعر بانتمائها إلى وطنها"[41]

يتبين من ذلك، أن الباحث يرى لازماً أن التقدم وبناء الأمم والانتماء للوطن لا يتحقق إلا بالهوية المتمثلة في التمسك باللغة البربرية أو الأمازيغية بحسب قوله.

السؤال هنا، أفلا يترتب عليه، والحالة هذه، أن يجيبنا لماذا البربر في المغرب العربي يرفعون لواء اللغة الأمازيغية ضد اللغة الوطنية للشعب الجزائري منذ أربعة عشر قرنا، ولا يرفعون الشعار ذاته في مواجهة اللغة الفرنسية المسيطرة على الحياة الثقافية والاقتصادية في الجزائر، بل نجدهم يستخدمون اللغة الفرنسية في وسائل الإعلام والتعليم، وليس الأمازيغية التي يطالبون بجعلها رسمية، الأمر الذي يدعو إلى القول بأن الصراع بين اللغة العربية والبربرية هو صراع مفتعل، ومن وحي الاستعمار الفرنسي والسياسة المعروفة بالنعرة الأمازيغية ليست في الجزائر وحسب، ولكن في جميع دول المغرب العربي[42]

عموما، فإن هذا الكتاب لم يقدم شيئا جديدا فيما يتعلق بتاريخ البربر عبر التاريخ، وصاحبه على ما يبدو متأثر إلى حد كبير بكتابات وآراء دعاة النزعة البربرية التي كان مهندسها الحاكم الفرنسي العام بالجزائر شاتينيون، وذلك باعتبار الأمازيغية التي ليس لها وجود هي هوية الشعب الجزائري من أجل تدمير الوحدة الوطنية، وبقاء اللغة الفرنسية مهيمنة على الجزائر والمغرب العربي على حساب الإسلام والعروبة، بالإضافة إلى تزوير التاريخ، خاصة حول ما جاء في تاريخ ليبيا وهُوية شعبها.

الهوامش:

1. العربي عقون "الأمازيغ عبر التاريخ نظرة موجزة في الأصـــول والهوية" دار التنوخي للطباعة والنشــــر والتوزيع، الطبعة الأولى الرباط 2010م ص 6
2. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الأول ص207
3. ابن خلدون "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصـــرهم من ذوي الشـــأن الأكبر" تحقيق: خليل شــــحادة، دار الفكر/ بيروت الطبعة الثانية، المجلد السابع، ص 6
4. المرجع السابق، ص183
5. إحســــان عباس، محمد يوســـف نجم "ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات" دار ليبيا للنشر والتوزيع/ بنغازي ص15
6. يراجع في هذا الشـــأن موســـوعة تاريخ العالم للمؤرخ الأمريكي وليم لانجر، الجزء الأول، الطبعة العربية ص26
7. العربي عقون، مرجع سابق، هامش ص 7
8. Oric bates; The easten libyens. London, first edition 1914 – new edition 1970 p211
9. علي فهمي خشـــيم "نصـــوص ليبيـــة" دار مكتبـــة الفكر، طرابلس/ليبيا، الطبعة الثانية، صفحة 89
10. علي فهمي خشـــيم "بحثا عن فرعون العربي ودراســـات أخرى" الدار العربية للكتاب، ليبيا/تونس 1985م ص265 بتصرف
11. أحمد فخري "مصر الفرعونية"مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة 1971م ص395
12. فوزي فهيم جاد الله "مســـائل في مصـــادر التاريخ الليبي قبل

هيرودوت" بحث نشــر في مجلد (ليبيا في التاريخ) أعمال المؤتمر التاريخي 16ـ23 /1968م الجامعة الليبية كلية الآداب، ص 45

13. العربي عقون، مرجع سابق، هامش ص 7

14. يعتقد كثير من الكتاب ومن بينهم علي فهمي خشـيم إن حكاية افريقيش والبربر أول من ذكرها ابن خلدون، ولكن هذا ليس صــحيحا، فالحكاية متواترة قبل زمن ابن خلدون، فالبلاذري وهو من رجال القرن الثـالـث الهجري ذكرهـا على النحو التـالي: "وقـال ابن الكلبي كـان إفريقيش بن قيس ابن صـيفي الحميري غلب على افريقية في الجاهلية، فســميت به، وهو قتل جرجير ملكها، فقال للبرابرة، ما أكثر بربرة هؤلاء، فســموا البرابرة. يراجع البلاذري "فتوح البلـدان" تحقيق: الأخوين الطـبـاع، منشــورات مؤســســة المعارف بيروت/لبـنان 1987م ص 322/321

15. علي فهمي خشيم، المرجع السابق ص90

16. العربي عقون، مرجع سابق، هامش ص 17

17. عثمان ســعدي" البربر الأمازيغ عرب عاربة وعروبة الشــمال الإفريقي عبر التاريخ" دار الملتقى للطباعة والنشــر ليماســول/قبرص الطبعة الأولى 1998م ص31

18. الجنرال ديغول "مـذكرات الأمـل التجـديـد 1958ـ1962م" ترجمة ســموحي فوق العادة، منشــورات عويدات/بيروت الطبعة الأولى 1971م صفحة 55

19. محمد المنجي الصـيادي "التعريب وتنسـيقه في الوطن العربي" مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى 1980م ص 163/162

20. العربي عقون، مرجع سابق، هامش ص 29

21. عبداللطيف محمود البرغوثي" التاريخ الليبي من أقدم العصــور

حتى الفتح الإسـلامي" دار صـادر بيروت، الطبعة الأولى 1971م ص318

22. المرجع السابق، ص 148

23. مصـطفى كمال عبدالعليم "دراسـات في تاريخ ليبيا القديم" منشورات الجامعة الليبية، بنغازي 1966م ص39

24. علي فهمي خشـيم "التواصـل دون انقطاع ودراسـات أخرى" الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

25. العربي عقون، مرجع سابق، ص32/36

26. المرجع سابق، ص43

27. المرجع السابق 46

28. عبد العزيز سـعيد الصـويعي "أصـول الحرف الليبي" الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، مصراتة الطبعة الأولى 1999م ص100

29. العربي عقون، مرجع سابق، ص46

30. عثمان سعدي، مرجع سابق ص135

31. العربي عقون، مرجع سابق ص51

32. المرجع السابق، ص 56 بتصرف

33. عثمان سعدي، مرجع سابق ص162

34. المرجع السابق، ص90

35. المرجع السابق، ص247

36. مقابلة مع تركي رابح عمامرة "الصـراع اللغوي والتعريب في الجزائر" حاوره: عبدالحميد عبدوس، مجلة المسـتقبل العربي السـنة الحادية والعشرون العدد مئتان وثمانية وثلاثون ديسمبر 1998م ص95

37. العربي عقون، مرجع سابق ص ص 16/62

38. إحسان عباس، مرجع سابق ص111

39. محمد بن عثمان الحشائشي التونسي "جلاء الكرب عن طرابلس الغرب" تقديم وتحقيق: علي مصطفى المصراتي، دار البيان بيروت الطبعة الأولى 1965م ص98

40. نقولا زيادة "برقة الدولة العربية الثامنة" دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الأولى 1950م ص 21.

41. العربي عقون، مرجع سابق ص63

42. مقابلة مع تركي رابح عمامرة، مرجع سابق ص100

"إقليم قورينائية"

حول المستعمرات الإغريقية في ليبيا وأهم معالمها الأثرية

"إن كل من يتلكّأ في النزوح إلى ليبيا الفاتنة، ولا يضع يده على نصيب من أراضيها، فإنه سيعضُّ يديه ندماً، لا محالة".

✍ هيرودوتس (الكتاب الثاني)

كلمة لا بد منها:

ينحدر اسـم إقليم قورينائية من التسـمية اللاتينية Cyrenaica provincia ويقصد بها المنطقة الممتدة من السلوم شرقا إلى منطقة خليج سرت الكبير، وهو ما يعرف في العصر الحديث بإقليم برقة، ويبدو أن هذه التسمية جاءت في زمن متأخر، فالإغريق القدماء كانون يستعملون طوال العصور الكلاسيكية اسم ليبيا عند الإشارة إلى هذا الإقليم، وهو أول مكان عرفوه في قارة إفريقيا، لدرجة أننا نرى هيرودوتس (أبو التاريخ) يستخدم اسم ليبيا ليدل بها على القارة الإفريقية برمتها باستثناء مصر.

تعزو رواية هيرودوس - الذي زار ليبيا عند منتصـف القرن الخامس قبل الميلاد- أول عهد للإغريق بالاستقرار في ليبيا إلى المستعمرين الذين قدموا من جزيرة ثيرا اليونانية (سـنتاورين الآن) في منتصـف القرن السـابع قبل الميلاد، وقاموا بإنشـاء قوريني، وهي رواية أخذ بها أغلب المؤرخين، وتم اعتمادها في عديد المراجع التاريخية، لكن هناك بعض الباحثين يعتقدون أن إقليم قورينائية

شـهد قبل الثيرانيين محاولات أقدم عهدا للاسـتعمار الإغريقي، قام بها عناصـر تنتمي إلى كريت وتسـالي وشـبه جزيرة البلوبونيز، كان منهم أهل طروادة الذين أسسوا أول مستعمرة إغريقية في قورينائية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد أي قبل مجيء الثيرانيين بخمسـة قرون، ولقد استند أصـحاب هذه النظرية[1] على أسـطورة الحورية قورينى التي جاءت في البوثية الرابعة للشـاعر بنداروس، وبحسب فرنسوا شاموا، فهي، مجرد فرضيات تعسفية، لا يمكن الاعتماد عليها من عدة نواح منها: أنه لا يوجد تفسير معقول بين تماثل الشخصيات الأسطورية في البلوبونيز وقوريني، ومن جهة ثانية، لا توجد مخلفات أثرية إغريقية في قورينائية أقدم عهدا من النصـف الثاني من القرن السـابع قبل الميلاد، هذا بالإضـافة إلى "أن الوثائق الإغريقية الوحيدة التي دُوّنت قبل تأسـيس قوريني الإغريقية، وتتحدث عن ليبيا، تنحصر في أشعار هوميروس"[2] وهي في الأساس لا تشـير إلى هذه المسـتوطنة المزعومة، ففي ملحمة الأدويسـة ذكرت ليبيا في فقرتين، الأولى: وقتما سـرد منلاوس على (تيلماخ) ابن أوديسـيوس مغامراته الخيالية أثناء أسـفاره الطويلة عبر قبرص ومصـر والنوبة وصـيدا وبلاد العرب ثم ليبيا " **التي تولد فيها الحملان بقرون، وتلد النعاج ثلاث مرات في العام الواحد، وجميع أهلها سـادة كانوا أو عبيدا، لا يعوزهم الجبن و اللحم و اللبن الجيد، وشياه قطعانهم تدرّ طول العام**"[3] .

أما الفقرة الثانية كانت على لسـان البطل (أوديسـيوس) وهو يحكي لراعي الخنازير قصـصا خيالية ملفقة في مصر فيقول بعد أن مكث فيها سبع سنوات: **"وفي السـنة الثامنة قدم تاجر فينيقي فأغراني بالذهاب معه إلى بلده، وأقمت قرابة سنة، وحملني بعدها في مركب إلى ليبيا، وتظاهر بأنه يريد بضـائع من ذلك المكان، وفي الحقيقة كان يضـمر بيعي كرقيق من أجل المـال (...) لكن الإلـه زفس، حطم المركـب في ميـاه البحر بين ليبيـا وكريت"**[4].

وإذا ما نُظر في هاتين الفقرتين بإمعان، يُلاحظ أن هوميروس لا يذكر عن ليبيا شيئا ذا بال، إذ إن الفقرة الأولى يُفهم منها؛ أن الإغريق (العصر الهومري) كانوا يعرفون ليبيا بمراعيها وأغنامها، أما الفقرة الثانية، تشير كما هو واضح إلى الاستيطان الفينيقي في قرطاجة. لأن كلمة (ليبيا) تعني (إفريقيا).

وبناء على ما سبق، فإن معرفة الإغريق بليبيا في زمن هوميروس كانت محدودة، لذ لا يمكننا، بأي حال من الأحوال، أن نستشف من هاتين الفقرتين وجود مستعمرة إغريقية في ليبيا قبل تأسيس قورينى كما تزعم النظرية المشار إليها آنفا، "ولو صح حقا أن فئة من الإغريق أنشأت مستعمرة في ليبيا لاكتسبت سريعا شهرة واسعة في العالم الإغريقي"[5]. وتردد صدى تأسيسها في الآداب الكلاسيكية لاسيما في الإلياذة والأوديسة. ومن هذا المنطلق، لا يسعنا سوى الأخذ (على الأقل مبدئيا) برواية هيرودوت التي تقول إن مستعمرة باتوس هي أول مستعمرة إغريقية عرفتها ليبيا، حتى يكشف النقاب في إحدى الأيام عن نصوص جديدة أو يعثر على مخلفات أثرية بالمنطقة يعود تاريخها إلى ما قبل القرن السابع قبل الميلاد.

قورينى (أثينا إفريقيا وعاصمة البنتابولس)

"إن قورينى المدينة اليونانية التي كان يلهج بذكر اسمها المقدس حكماء العصور القديمة في ألف أغنية، أصبحت فقيرة بائسة وخرابا محزنا "سينسيوس القوريني"

قورينى أو سيرين كما ترسم باللغة اللاتينية، مدينة قديمة تقع في شرق ليبيا بمحاذاة البحر الأبيض المتوسط، وهي أول مستعمرة في المدن اليونانية الخمس (البنتابولس) التي أنشأها الإغريق في ليبيا بالقرن السابع قبل الميلاد.

بمجرد أن يراها الزائر تنتابه رغبة جامحة في معرفة كل شيء عنها، نشأتها،

معابدها، قبورها، تماثيلها الرائعة، وأشـد ما فيها طبيعتها الخلابة، ومياهها العذبة المنسـابة عبر القنوات المبنية بالحجر الجيري، فهي بُنيت على (الصـدر الرفاف) بحسـب تعبير بنداروس. وقد قامت بخطها " يد القدرة على لوحة من الجبال الشامخة ينبسط من تحتها بحر لجي كأنه السندس، وتترامى من جنوبيها صـحراء لا يحدها الخيال، وكأنها التبر المنثور"[6]. نعم! إنها مدينة (العرش الذهبي) وأثينا إفريقيا وعاصمة اتحاد البنتابولس في ليبيا.

قصة الإنشاء:

تذكر مصادر التاريخ القديم بأن تأسيس مدينة قوريني كان على يد مهاجرين من جزيرة ثيرا اليونانية عام631 ق.م، وقد روى خبر تأسيسها المؤرخ الإغريقي (هيردودت) عندما تحدث في كتابه الثاني عن قارة ليبيا التي تمتد حدودها من دلتا النيل إلى رأس سـولوجوس بالمغرب، حيث أورد في المقالة الرابعة ثلاث روايات (اسـبرطية، وثيرية، وقورينائية) حول نشـأتها، ويفهم من هذه الروايات أن موجات القحط والجفاف التي أصابت جزيرة ثيرا لسبع سـنوات متوالية جعلت سـكان الجزيرة (وكان بينهم رجلٌ يعاني من صـعوبة بالنطق) يطلبون اسـتشـارة الكاهنة دلفي، فأمرتهم بالتوجه نحو ليبيا بهذه النبوءة " **أيا باطوس لقد جئت من أجل صـوتك، غير أن السـيد فيبوس أبولو يوفدك لإنشـاء مدينة في ليبيا، مرعى القطعان الخصـيب**"[7] ونتيجة لهذا الأمر أُرسـل باطوس مع سـفينتين من ذوات الخمسـين مجدافا، وحينما وصـل هو وأتباعه إلى مكان يسـمى (أزيريس) اسـتقروا به سـتة أعوام، لكن في العام السـابع تمكنت قبيلة الجليجاماي الليبية من إغرائهم بترك المكان، فاقتادوهم ليلا نحو الغرب حتى جاءوا بهم إلى نبع قورا الذي يعرف باسـم (نبع أبوللو) وقالوا لهم: "**أيها الإغريق إن هذا المكان ملائم لسـكناكم، ففيه ثقب في السماء**"[8]، ومعنى ذلك أن الأمطار غزيرة في هذا المكان، فاستقر الإغريق في

الحال وأنشأوا مدينة قوريني التي تعرف اليوم باسم (شحات).

حكم أسرة باطوس اليونانية مدينة قوريني لمدة قرنين من الزمن، حيث تربع على عرشها ثمانية ملوك أربعة حملوا اسم باطوس، والآخرون حملوا اسم اركسيلاوس، وما لبثت المدينة في عهدهم حتى أصبحت من أشهر المدن الإغريقية في العالم القديم، ولعل ذلك يرجع إلى النشاط التجاري فيها، فهناك شواهد تشير إلى وجود علاقات تجارية بينها وبين مصر ورودس وكريت وأثينا وروما، وكانت السلع التي تصدّرها المدينة الصوف والخيول والزيت والجلود وريش النعام، لكن أشهر منتجاتها على الإطلاق كان نبات السلفيوم الذي ظهرت صورته على أغلب قطع العملة القوريناية حتى أصبح شعارا للمدينة، وتعود أهمية هذا النبات إلى قيمته الطبية، إذ كان يستخدم على نطاق واسع في علاج جميع الأمراض، فقد أشار المؤرخ الروماني بليني الأكبر إلى نبات السلفيوم بوصفه علاجا جيدا لأمراض متنوعة منها :توسيع الرحم، التهاب القصبات الهوائية، إبطال سموم الأفاعي، تخفيف آلام الأعصاب والأسنان وغيرها، وكان عصيره الذي يسميه الطبيب لارغوس (الدمعة القوريناية) يستخدم كغذاء للإنسان خاصة في طهو الأسماك، ولا تدع النصوص التاريخية مجالا للشك في أن تجارة السلفيوم كانت من العوامل الرئيسة في ثراء إقليم قوريناية بالكامل، ويبدو أن تجارته كانت تخضع للإشراف الملكي مباشرة، فهناك نقوش تثبت احتكار ملوك الأسرة الباطية له، أشهرها قدح الملك اركسيلاوس الثاني الذي يصوره وهو يراقب وزن السلفيوم وتعبئته في أكياس، ويذكر أحد شُراح مسرحية أرسطوفانيس في سياق تعليقه على السلفيوم: "ولقد منح القورينيون أحد الملوك الباطيين هبة السلفيوم"[9]، ولا غرابة في ذلك، فقد كان نبات السلفيوم يباع بما يساوي وزنه فضة، وكانت الكميات المرسلة منه إلى روما تحفظ شأنه في ذلك شأن الذهب !ما جعل المدينة من أغنى المدن الإغريقية، ومما يدل على ثراء قوريني منحها بما يعادل" مئة ألف مكيال

إغريقي من حبوب القمح لمدينة أثينا خلال عام المجاعة326-330) ق.م، وبهذه المناسبة سكت قوريني عملة ذهبية عليها سنبلة القمح تخليدا لهذا العمل الذي أنقذ أكثر من أربعين مدينة إغريقية من المجاعة[10].

وفي هذا السياق لا بد من الإشارة إلى رواية طريفة تذكر أن مدينة قوريني دعت ذات يوم الفيلسوف أفلاطون لوضع دستور لها، فاعتذر قائلا : "إن القوريناثيين بلغوا من الثراء حدا لا يُمكن من وضع قوانين لهم"[11]. ويبدو أن ثراء المدينة لم يدم طويلا، بسبب انقراض نبات السلفيوم الذي أتلفه الليبيون انتقاما وثأرا من أولئك المستعمرين، فمن المعروف أن العلاقة بينهم كانت متوترة، حيث سجلت المصادر التاريخية تمرد العديد من القبائل الليبية أثناء عهد الحكم الباطي بالمدينة، أشهرها ثورة قبيلة الأوسخيساي التي قادها الزعيم الليبي ادكران في عهد باطوس الثاني الملقب بالسعيد. وفي أثناء العصر الروماني نرى المزارعين الليبيين يقتلعون جذور السلفيوم لفداحة الضرائب، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ بلينيوس: "منذ سنوات كثيرة لم يعد اللازر (السلفيوم) موجودا بقورينايئة لأن الجباة الذين كانوا يشرفون على المراعي دأبوا على نهبه لاستعماله علفا للأغنام"[12] حيث كانت المواشي تقبل عليه بشراهة وتأكل جذوره. كما يورد من جهة أخرى بعض المؤرخين أمثال: سولينوس الذي عزا سبب اختفاء السلفيوم في إقليم قورينايئة إلى سكان البلاد المحليين أنفسهم الذين تذمروا من دفع ضرائب للحكومة الرومانية الطاغية مما دفعهم إلى إتلاف جذوره نكاية في "جباة الضرائب أو ما يعرف ب pubblicani الذين أصبح من مهمتهم الإشراف على الأراضي التي ينمو فيها نبات السلفيوم، والتي كانت تعتبر من الأملاك العامة للدولة الرومانية"[13].

أما الصناعة بالمدينة فقد كانت على ما يظهر محدودة، رغم انتشار معاصر الزيت والعنب، وصناعة الفخار والعطور والنبيذ، وكان أغلب هذه المصانع يملكها أشخاص مقيمون في بلاد اليونان كما يقول عالم الآثار الفرنسي شامو،

وفيما يتعلق بسك العملة، فقد بدأت في عهد اركسيلاوس الثاني، حيث ظهرت أول عملة فضية لقورينى حوالي سنة570 ق.م، وهي تشبه من ناحية الوحدات العملة الأثينية، تتكون من أربع درخمات، ودراخمتين، ودراخما واحدة، ونصف دراخما، وفي نهاية العهد الباطي "صنعت النقود القورينايئية من البرنز والذهب بالإضافة إلى الفضة بكميات كبيرة"(14) .

وفيما يتعلق بالزراعة، فإن أهم منتوجات قورينايئة كانت الحبوب، فهي (منجبة القمح) كما يصفها الشاعر (بنداروس) في البوثية الرابعة، (وموئل الأغنام) بحسب تعبير هوميروس في الأوديسة، وقد لمح هيردوتس إلى خصوبة أرضها في معرض حديثه عن القبائل الليبية، كما استعمل عبارة (موسم القطاف) أثناء حديثه عن زراعة الكروم.. وتشير قوائم الحبوب المذكورة في نص (لوح الإمدادات) إلى أن إقليم قورينائية ينتج إلى جانب محاصيل القمح والشعير أصنافا كثيرة من الفواكه والخضروات مثل العنب والتفاح والكروم والفول والحمص والبصل والعدس، كما "تشيد النصوص القديمة بنوعية زعفران قورينايئة الذي كان يُزين به مذابح (أبوللو) القربانية في فصل الربيع، مثلما ذكر كاليماخوس القوريني في نشيده الثاني، وفي هذا الصدد يقول: (ثيوفراستوس) "إنه إذا كان أريج كافة الزهور الآتية من قورينايئة زكيا، فإن أريج الزعفران كان إليها حقا"(15) ولا شك، فإن هذه الثروة جعلت من مدينة قورينى "قوة في العالم الهليني قاطبة"(16).

أما في مجال الفنون والألعاب الرياضية، فقد ازدهرت في قورينى على وجه الخصوص، حيث فاز فريقها بالمرتبة الأولى في سباق العربات، وفاز في دورة الألعاب الأولمبية التي انطلقت في عام462ق.م، الأمر الذي جعل الملك أركسيلاوس الرابع يطلب من فنان كريتي أن ينحت تمثالا من البرونز لعربته التي فازت في الدورة المشار إليها، وهي الدورة الحادية والثلاثين من الألعاب الأولمبية، كما خلد شعراء مشاهير أمثال بنداروس وكاليماخوس هذه الانتصارات

التي كانت جميعها سببا في شهرة عربات قورينى التي تجرها أربعة جياد.

وعندما اغتيل آخر ملوك الأسـرة الباطية أركسـيلاوس الرابع- الذي قتله الثوار وقطعوا رأسه بمدينة يوسبيريدس بنغازي- استغل بطليموس حاكم مصر الصـراع القائم في قوريناية فأقام قائده أفيلاوس حاكما عليها، ونتيجة لذلك أصـبحت قورينى تابعة لمصـر من عام322 ق.م حتى عام96 ق.م وهو العام الذي انتقلت فيه ملكية الإقليم لروما بموجب وصـية الملك أبيون[17]، وظل الحكم الروماني لولاية قوريناية سبعة قرون حتى مجيء الفتح الإسلامي عام 642م.

معالم المدينة

أول ما يميز مدينة قورينى معابدها الكبيرة، وتماثيلها الرائعة، ومقابرها المحفورة في الجبال، رغم أن معظم هذه الآثار تعود إلى العهد الروماني، إلا أنها ما زالت تنطق بأسـطورة الإله أبوللو والحورية قورينى وهي تصـارع أحد الأسود بذراعيها العاريتين على سفح الجبل الأخضر، ولعل من أهم المعالم التي مازالت قائمة إلى يومنا هذا ما يلي:

معبد الإله أبوللو : نُسـب لمؤسـس قورينى أبوللو، وهو من أول معابد قوريناية وأقدمها، يشـمل المذبح الذي يتكون من منصـة يكسـوها الرخام الأبيض، وبالأسفل توجد قناة كانت تستخدم لتصريف دم القرابين، والمعبد له بوابة تأخذك عبر الطريق المقدس المؤدي إلى الساحة بواسطة ما يعرف البوابة الإغريقية بروبيلايا، ولقد استمرت العبادة فيه إلى عهد الإمبراطور تراجان الذي أدخل عليه بعض التعديلات عقب ما حل به من دمار أثناء الثورة اليهودية، ثم أعيد إصلاحه عندما كانت قورينى عاصمة إقليم قوريناية، وانتهت العبادة بهذا المعبد العتيق بانتشار المسيحية في البلاد، وإلى جانب هذا المعبد توجد معابد كثيرة بالمدينة منها :معبد أفروديت، ومعبد هيكاتا، ومعبد هادس، ومعبد زيوس

وهو أكبر معبد إغريقي في قارة إفريقيا[18]، وقد كان على جانب كبير من العظمة، "والمعبد عبارة عن مبنى مثمن الأضلاع ضخم جدا يفوق بقليل حجم البارثينون في أثينا (...) وهو مشيد على الطراز الدوري العتيق الذي يميز القرن السادس ق.م .ومن المؤكد أن إضافات كثيرة استحدثت في عهدي أوغسطس وتيبريوس، تحاول تقليد الطراز المعماري الأصلي حتى إنه لا يمكن التمييز في أول الأمر بين ما هو إغريقي وما هو روماني"[19].

- **نبع أبوللو :** يعرف عند الليبيين القدماء بمصب قورا، وهو المكان الذي أسس عنده المهاجرون الأوائل المدينة، ويبدو أن أصل تسمية قوريني يعود له، وقد أستخدم هذا النبع في طقوس التطهير لما لمياهه من ميزات شفائية، وما يزال إلى يومنا هذا توجد مقاعد بجواره كان الزائرون يجلسون عليها من أجل الاستشفاء أو التطهر.

- **الأجوارا (Agora)** :وهي الميدان الرئيس في المدن الإغريقية، يقوم حولها الأسواق وعدد كبير من المعابد والتماثيل .

- **الحمامات:** يوجد في المدينة حمامات كبرى للرجال وأخرى صغرى للنساء، تدل بقايا الفسيفساء على ما كانت عليها من فخامة وبهاء، تتكون من قاعات ومغاطس وغرف للتغيير الملابس وغرف حارة وبخارية، وفي أواخر العهد الروماني بدأت الحمامات الكبرى تهجر جزئيا وصارت الحمامات الصغرى تكفي لعدد السكان الذي تضاءل[20] بسبب الهجرة والحروب.

- **المسرح الإغريقي:** عرف فيما بعد ب الأنفيتياتر الروماني، أعيد بناؤه كمسرح دائري مدرج لصراع المتقاتلين والمشاهد التي تتضمن وجود حيوانات مفترسة، ومن أجل ذلك اقتضى الأمر إقامة جدار عالٍ حول (الارينا) ساحة الصراع حرصا على سلامة المتفرجين[21] وكثيرا ما سمي خطأ المسرح الموجود الآن في قوريني بالمسرح الإغريقي، لأنه يشابه المسارح الإغريقية

المنحوتة في الجبال، بينما كانت المسارح الرومانية تقام على أراض منبسطة ... لكن، لا بد أنه كان في قوريني مسرح إغريقي ربما في موقع هذا المسرح ذاته.

- **الجمناسيوم** :مدرسة تدرس فيها العلوم الابتدائية، وكانت التربية البدنية تحتل مكانة مرموقة فيها، ومن الواضح أن الفتيات كان يسمح لهن بالدارسة في هذه المؤسسة .

- **المقابر** :تعد مقبرة قوريني واحدة من أضخم أماكن الدفن في العالم القديم، ومن أجل ذلك وصفت بأنها مدينة الموتى، وقد بلغ عدد قبورها الظاهرة للعيان حوالي1200، ومن أشهر مقابرها المقبرة الشمالية على جانبي الطريق القديم إلى أبولونيا، أغلب قبورها مستطيلة منحوتة في الصخر، إنها مدينة الموتى، ولا نظير لها على وجه الأرض.

- **أسوار المدينة** :ما تزال آثارها باقية وإن كانت ليست ذات ارتفاع يذكر، تمتد مسافة كبيرة حول المدينة، ويبدو أن هذه الأسوار خضعت لتعديلات كثيرة عبر القرون.حيث أصبح من العسير تحديد تاريخ دقيق لها .لكن الأجزاء الظاهرة منها معظمها من صنع الرومان.

- **شعارات المدينة:** لقد عثر على عدد كبير من العملات النقدية لنبات السلفيوم، وأشجار النخيل، وسنابل القمح، ونقوش تمثل آلهة قوريني، وصور ملوكها في العهدين الباطي والجمهوري، وهذا يدل عن أن المدينة اتخذت أكثر من شعار، حسب الظروف السياسية ومؤثرات السلط الحاكمة .

ميناء قوريني (أبولونيا) مدينة تحت الماء

لم يمض وقت طويل على إنشاء مدينة قوريني حتى بدأ المستعمرون الإغريق في تأسيس ميناء لمدينتهم يكون حلقة وصل بين قوريني وباقي مدن البحر

الأبيض المتوسط في منتصف القرن السابع قبل الميلاد وأطلقوا عليه (olimeno) أي ميناء قورينى باللغة الإغريقية القديمة بحسب ما ذكره المؤرخون القدامى أمثال سكيلاكس المنحول و ديودوروس الصقلي وغيرهما، أما اسمها الشهير أبولونيا الذي ينسب إلى الإله أبوللو أول ما ذكره في التاريخ القديم هو المؤرخ الإغريقي الأشهر (سترابون).

كان ميناء أبولونيا في بداية الأمر بسيطا، ومع مرور الوقت أخذ يعمر وينمو تدريجيا خاصة حينما ازداد عدد المستوطنين الإغريق، ومما يدل على عمرانه وثرائه في عصر الهلينستي، وجود عملة خاصة به تحمل صورة (السلطعون) وهو حيوان بحري يكثر قرب شواطئ أبولونيا، وقد ظل هذا الميناء ردحا طويلا من الزمن تابعا لمدينة قورينى في جميع النشاطات بما فيها النشاطات التجارية والحربية.

وفيما بين 324 و325 ق.م ا ستولى المغامر الا سبرطي (ثيبرون) على الميناء واتخذه مركزا لعملياته الحربية أثناء هجومه على قورينائية، واستطاع بمعاونة المنفيين من أهل قورينى الاستيلاء على بعض المواقع لفترة وجيزة من الزمن إلا أن أتباعه تخلوا عنه، وهزم شر هزيمة "حيث تمكن الليبيون من اللحاق به بعرباتهم وقبضوا عليه ما بين مدينتي برقة ويوسبيريدس (بنغازي) واقتيد إلى مدينة تاوخيرا (توكرة) حيث تم تسليمه إلى الآمر العسكري المدعو إيبيكيديس الأولينثي الذي سمح بدوره لسكان قورينى بتعذيبه انتقاما منه لاستيلائه على مدينتهم، وبعد ذلك تم ارساله إلى أبولونيا وشنق هناك تحت أنظار ضحاياه السابقين"(22).

ورغم قلة المصادر عن تاريخ أبولونيا القديم، إلا أن القرائن الأثرية تشير إلى ظهورها كمستوطنة مستقلة في عهد بطلميوس آبيون الذي فصل الميناء عن قورينى وجعله مدينة قائمة بذاتها. وما إن جاء العصر الروماني حتى حصلت أبولونيا على الحكم الذاتي حين اعترف بها واحدة من المدن البتابولس (المدن

الخمسة) بناء على التقسيمات الإدارية والعسكرية والقضائية التي فرضها الإمبراطور الروماني (ديوكليتيان).

وفي العصر البيزنطي أصبحت أبولونيا تعرف باسم حاكمها البيزنطي سوزوسا (sozusa) وهي الكلمة التي تطورت منها الكلمة العربية (سوسة) كما يزعم عالم الآثار الإنجليزي جود تشايلد[23] لكن أستاذنا الدكتور: عبدالسلام شلوف يرى أن اسم سوزوسا يمكن أن يؤوّل كدلالة على الإله أبوللو أو على السيد المسيح، والصيغة المؤنثة منه ترمز إلى السيدة مريم العذراء مشيرا في ذلك إلى جذر الاسم المشتق من (سوتر)[24].

وعلى أي حال، ففي عهد الإمبراطور جستنيان تقرر نقل العاصمة من طلميثة إلى سوسة بسبب نقص المياه وغارات القبائل الليبية، كما تم في عهد الإمبراطور ترجان تشييد بعض القلاع الدفاعية فيها، وصارت منذ ذلك الوقت مدينة سوسة عاصمة المدن الخمس (البنتابولس) حتى دخول الإسلام إلى برقة في منتصف القرن السابع الميلادي.

ومما هو جدير بالذكر أن مدينة سوسة الحديثة أنشئت عام 1897م في عهد الوالي العثماني راسم باشا على يد مهاجرين مسلمين من جزيرة كريت، هربوا بشق الأنفس نتيجة لحملات التقتيل الجماعي التي شنها الكريتيون النصارى ضدهم، واستوطنوا هذه البلدة تحت تسمية (القريتلية) وأصبحوا منذئذ ينعمون بالهوية الليبية إلى يومنا هذا.

ومن أهم المباني الأثرية التي ما تزال قائمة في أبولونيا بقايا الكنيسة الشرقية التي تعد من أهم المنشآت المعمارية المسيحية في القرن الخامس الميلادي، وهي تقع خارج أسوار المدينة في نفس موقع المعبد القديم الذي يعود إلى العهد الإغريقي جنوب الطريق الذي يربط (الأكروبوليس) في الشرق و(الحمامات الرومانية) في الغرب، كما يوجد خلف الأكروبوليس بقايا المسرح

الذي أقيم في العصر الهلينستي ثم أعيد تخطيطه على نطاق واسع في عهد الإمبراطور دوميشيان (92-96م) وقد تم تصميمه بدقة بحيث يستطيع المشاهدون (النظارة) التمتع بالفرجة المسرحية وبرؤية البحر معا، وعلى مسافة كيلو متر تقريبا من المركز الحضري للمدينة توجد قلعة إغريقية منحوتة في الصخر، وصروح أثرية متاخمة لها، إضافة إلى الحمامات الرومانية التي تم اكتشافها في عهد الإدارة الإنجليزية، وعند رأس التل المجاور تظهر أطلال القصر البيزنطي الذي كان مقر الحكم في القرن السادس الميلادي أيام كانت أبولونيا عاصمة الولاية. وتوجد أيضا صهاريج كانت تستخدم في تخزين مياه الأمطار، ومن المحزن أن ثلثي آثار مدينة أبولونيا اليوم مغمور تحت سطح البحر نتيجة لزلزال تعرضت له مدينة قورينى في العصر البيزنطي الأمر الذي عاق إمكانية تحديد مخططها بشكل دقيق.

مدينة باركي (برقة)

تحظى مدينة برقة بأهمية خاصة منذ تأسيسها، فهي المستوطنة الثانية بعد قورينى أيام الإغريق، وأكبر منافس لها، وقد نالت شهرة واسعة بوصفها معقلا حصينا للثوار فترة الحكم الباطي لإقليم قوريناثية، ورغم وجود أدلة تاريخية ذكرها بعض المؤرخين أمثال (ثريدج) و(أوريك بيتس) تفترض تأسيسها على يد الليبيين قبل مجيء الإغريق إلى ليبيا، إلا أننا نميل إلى الأخذ برواية هيرودوت التي تُعزي سبب إنشائها إلى خصومة وقعت بين الملك أركسلاوس الثاني الملقب ب(العنيد) وإخوته الأربعة في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، نتج عنها نزوح هؤلاء الإخوة إلى الغرب حيث تمكنوا بمساعدة القبائل الليبية من إنشاء مدينة لأنفسهم تدعى باركي=برقة. وهو الأمر الذي جعل الملك أركسلاوس الثاني يقود جيشا ضدهم لكنهم تمكنوا من الانتصار عليه في موقعة ليوكن وقتلوا سبعة آلاف من جنده حسب ما ذكر هيرودوت[25].

وفي عهد أركسلاوس الثالث شهدت المدينة صراعا ضاريا بين أنصار الملكية وخصـومها أدى في نهاية الأمر إلى اغتيال الملك نفسـه وهو يتجول في أحد الأسـواق، فاضـطرت أمه الملكة (فريتيمي) إلى الاسـتعانة بوالي مصـر الحاكم الفارسـي (ارياندس)[26] الذي جهز قوات ضـخمة وقام بمحاصـرة مدينة برقة تسعة أشهر لكنه لم يستطع دخولها، "فلجأ إلى أسلوب الخديعة التي مكنته في النهاية من احتلالها، وبادرت (فريتيمي) فنكّلت بكل مغتالي ابنها، هم ومن تواطأ معهم من أهل المدينة، بما في ذلك النسـاء، وأذاقت هؤلاء جميعا مر العذاب"[27] أما بقية السكان فقد تم اسـترقاقهم وإرسـالهم إلى مدينة باكتريبا، حيث قاموا بتأسيس مدينة هناك اطلق عليها اسم مدينة المرج، وفي هذا الصدد يذكر جود تشايلد أن الملكة (فريتيمي) أمرت بصلب أعدائها على أسوار مدينة برقة، والتمثيل بجثث نسـائهم وبتر نهودهن وتسـميرهن أيضـا على أسـوار المدينة[28] وأصـبحت مدينة برقة (المرج) مهجورة بعد أعمال النهب والسـلب التي تعرضـت لها أثناء هذه الحملة، لكن الآلهة (بحسـب عبارة هيرودوت) ما لبثت أن أنزلت القصـاص بالملكة (فريتيمي) حيث ألمَّ بها داء غريب، وأخذت الديدان تنهش جسـدها المتقيح حتى قبل أن تفارق الحياة، جزاء لما اقترفته من قسـوة على سـكان برقة[29]، ومنذ ذلك الوقت بدأ مركز مدينة برقة في التراجع، خاصة حينما فقدت استقلالها وأصبحت خاضعة لقوريني.

ومن المؤسف، لم يبق من آثار مدينة برقة اليوم ما يُوضح تاريخها في العصور الإغريقية والرومانية سـوى مخلفات أثرية من التماثيل المهشـمة، وبعض العملة يرجع تاريخها إلى عام 525 ق.م وقد صور عليها نبات السيلفيوم، ويبدو أنه بعد أن تمكن الفرس من الاستيلاء عليها وتدميرها للمرة الثانية، نزح غالبية سكانها إلى مدينة بطوليمائيس (طلميثة) التي طغت عليها وأصـبحت عضـوا في اتحاد المدن الخمس بعد أن كانت مجرد ميناء أنشـأته مدينة برقة من أجل تصـدير السـيلفيوم والفائض من حاصـلات إقليمها الخصـيب. وقد ظلت برقة منذ ذلك

الحين مهجورة حتى الفتح الإسلامي عام 642م حيث شجعت طبيعة أرضها على إعادة بنائها لتصبح مركزا لفتوحات المسلمين في شمال إفريقيا قبل بناء القيروان.

ميناء مدينة برقة (بطوليمائيس) المدينة الملوكية

لا تذكر مصادر التاريخ القديم إشارة دقيقة حول إنشاء مدينة بطوليمائيس (طلميثة) وكل ما نعرفه من نتائج أعمال الحفر والتنقيب التي قامت بها بعثة معهد الدراسات الشرقية في شيكاغو (1956-1958م) أنه في عهد البطالمة تم إنشاء مدينة كبيرة عرفت باسم بطوليمائيس، وقد رجّح عالم الآثار الأمريكي (كريلينج) تأسست هذه المدينة غداة زواج (بطليموس الثالث) من الأميرة برنيقي ابنة ماجاس حاكم قورينائية، لكن الأستاذ إبراهيم نصحي، يرى أن مدينة بطوليمائيس أنشئت قبل هذا التاريخ على أيام مؤسس دولة البطالمة بطليموس الأول[30] الذي كان يتحكم في إقليم قورينائية مباشرة، حيث بادر هذا الملك في إنشاء مدينة جديدة على موقع ميناء مدينة برقة من أجل القضاء على سكان برقة لما اشتهر عنهم النزوع نحو الاستقلال، وهذا هو نفس الرأي الذي قال به عالم الآثار الفرنسي (أندريه لاروند) في كتابه المسمى (برقة في العصر الهلينستي) حينما اعتبر تأسيس بطوليمائيس يمثل عقوبة صارمة لمدينة برقة[31]. ومن جهة أخرى يرى بعض المؤرخين وعلى رأسهم استرابون وبليني الأكبر أن بطوليمائيس وبرقة هما في الواقع اسمان لمدينة واحدة، وهو ما لا يتفق وأقوال الرحالة والجغرافيين الذين تحدثوا عن المدينتين باعتبارهما مكانين مختلفين.

وعلى أية حال، فلم يمض وقت طويل على تأسيس هذه المدينة التي أخذت اسمها من أحد ملوك البطالمة في مصر حتى أصبحت من أهم المدن الهللنستية في برقة، وقد ازدادت أهميتها بسبب موقعها على الساحل، وتدل بقايا منشآت

مينائها على أنها لعبت دورا كبيرا في تجارة البطالمة، خاصة فيما يتعلق بنقل البضائع والحبوب ونبات السلفيوم، وفي هذا الصدد يشير أستاذنا الدكتور: رجب الأثرم إلى أن بطوليمائيس قدمت للتجارة العالمية ما قدمته قورينائية ككل، حيث كانت حلقة وصل في المعاملات التجارية بين قرطاجة وروما من ناحية، ومصر وبقية العالم الهلينستي من ناحية أخرى، وهكذا ازداد ثراء المدينة، وسكت لنفسها عملة(32)، وأصبحت من أغنى مدن البطالمة.

وفي عهد الإمبراطور البيزنطي دقلديانوس أصبحت بطوليمائيس عاصمة ولاية المدن الخمس الجديدة ويبدو أنها حافظت على هذه المكانة حتى بداية القرن الخامس الميلادي عندما كان سونيسيوس يبا شر فيها واجبات الأسقف، وفي هذه الفترة بالذات نالت بطوليمائيس حظوة خاصة كونها مركز أسقفية، كما يفهم من رسائل سونسيوس، والجدير بالذكر، أن بطولميائيس تعرضت إلى غارات القبائل الليبية التي انتهت باغتيال أسقف المدينة نفسه، وتدمير عدد كبير من مبانيها، فاضطر البيزنطيون في حينها إلى بناء التحصينات والقلاع من أجل تعزيز وسائل الدفاع عنها.

إن ما يميز مدينة بطوليمائيس الملوكية هو سعة رقعتها، وضخامة حجمها، ومناعة أسوارها التي تضم مساحة أكبر من مساحة قوريني، إضافة إلى فخامة شوارعها التي بنيت متقاطعة على شكل مربعات، ويبدو أن المدينة عانت كثيرا من شح المياه، كما هو واضح من الصهاريج المنتشرة فيها، "وقد قدّر عالم الآثار الأمريكي (كريلنج) سعة الصهاريج المدفونة تحت رحبة (الآجورا) بثمانية ملايين وثلاث مئة وخمسة وعشرين ألف لتر، كما يقدر سعة الخزان غير المُغطى، الواقع جنوبي المدينة، بمئة وسبعة عشر مليون لتر، ويعتبر كل هذا – على حد تعبيره– مجهودا بطوليا جبارا، بُذل لتزويد المدينة بالمياه من أجل تحقيق رفاهيتها"(33).

ومن أهم معالم بطوليمائيس شارع النصب التذكارية الذي يرجع تاريخه إلى

العصر الروماني، وبقايا القصر الهلينستي، ومبنى (الجمنازيوم) الذي يقع على مقربة من بوابة (توخيرا) والقلعة البيزنطية الصغيرة، والمسرح الروماني الذي يوجد به قاعة شبه دائرية يحيط بها مربع من البنايات، والجسر الذي ينسب إلى الإمبراطور تراجان، وميدان السباق أو السيرك الذي كان يستخدم لسباق الخيول والعربات، كما تعتبر الكنيستان المسيحيتان داخل المدينة من أهم المعالم القائمة حتى الآن، ويبدو أن الكنيسة (الباسيليكا) الموجود في زاويتها الشمالية الشرقية معمدانية مقببة كان بناؤها في عهد الأسقف سونسيوس. أما متحف المدينة يوجد به فسيفساء تمثل رسومات حيوانات وطيور وبعض النباتات، وقطع من التماثيل مصرية الذوق، وهي ربما تشير إلى ارتباط قورينائية بمصر في عصر البطالمة، ومن بين البقايا الأثرية الموجودة في طلميثة الحالية والتي تعتبر جديرة بالاهتمام الباب الغربي للمدينة، والآجور بالإضافة إلى القبور وبقايا الحصون الصغيرة، وفي المجمل، فإن معظم آثار بطوليمائيس قد أنشئ في العصور الرومانية، ما عدا بعض القبور التي تعود إلى العصر الهلينستي. ويبدو أن المدينة تعرضت إلى بعض الكوارث الطبيعية التي ساهمت في تدمير المدينة بالإضافة إلى هجمات القبائل الليبية المتوالية، وشح المياه التي أصبحت تعاني منه في عهد الإمبراطور جستنيان مما جعل كثيرا من السكان يغادرونها إلى بعض المدن المجاورة.

توخيرا القديمة (توكرة)

يزعم أحد شراح قصائد بنداروس أن تاريخ إنشاء مدينة توخيرا الواقعة على بعد أربعين كيلومترا إلى الجنوب الغربي من مدينة (بطوليمائيس) كان في عام 610 ق.م أي بعد حوالي عقدين من الزمن من تاريخ إنشاء مدينة قوريني عام 631 ق.م وقد قام بتأسيسها إغريق قوريني، وهذا الرأي، في الغالب، ربما ينطوي على قدر كبير من الصحة، خاصة إذ ما علمنا نتائج تنقيب بعثة بوردمان

التي أسفرت عن وجود بقايا آنية فخارية كثيرة يرجع تاريخها إلى حوالي 620 ق.م لكن في المقابل، وبناء على رواية هيرودوتس، يميل بعض الباحثين إلى أن توخيرا تأسست على أيدى أهل برقة بعدما تمكنوا من بسط رقعة إقليمهم، فحاولوا إنشاء مدينة تابعة لهم في إطار منافستهم الشديدة لقورينى. وهذا الرأي لا يتفق والتاريخ الذي كشفت عنه الحفائر التي قامت بها البعثة السالفة الذكر، وإلى جانب هذين الرأيين، يوجد رأي ثالث يجمع بينهما، قال به عالم الآثار المصري إبراهيم نصحي، مفاده: أنه عقب نجاح المؤسسين الثيرانيين الأوائل في إنشاء قورينى وفدت أفواج أخرى من المستعمرين على هذه المدينة مما يسر لها إنشاء بعض محلات قريبة من الشاطئ، كانت إحداها مدينة توخيرا، بيد أنه عندما أنشئت برقة ضمت تلك المحلة القديمة إلى نفوذها وعملت على تشجيع الاستقرار فيها، وهكذا، يبدو لنا (الكلام للدكتور نصحي) أنه إذا كانت قورينى هي التي وضعت اللبنة الأولى في تأسيس توكرة، فإن مدينة برقة هي التي أكملت البناء[34] ومهما يكن من شيء، فإن الاختلاف في كلا الرأيين يكمن في الزمن الذي تم فيه إنشاء توخيرا وهو لا يتجاوز نصف قرن.

ولقد اتخذت مدينة توكرة عدة أسماء عبر تاريخها الطويل، وكان أول اسم عرفت به هو اسم توخيرا الذي ينسب إلى تاوخيرا ابنة الملك الهلليني (انتاندروس)[35] وهو الاسم ذاته الذي اشتهرت به زمن اتحاد البنتابولس، وفي عهد البطالمة عرفت توخيرا باسم (أرسينوى) الذي يعود لملكة البطالمة أرسينوى الثانية أم بطليموس الثالث ملك مصر و قورينايئة، وفي العهد الروماني سماها الإمبراطور ماركوس أنطونيوس باسم كليوباتريس عشيقته، ولكن ذلك لم يدم سوى فترة زمنية قصيرة جدا، ويرتاب بعض الباحثين في نسبة هذه التسمية إلى عشيقة ماركوس أنطونيوس، منهم عالم الآثار الإيطالي (غيسلانزوني) الذي رأى أن أرسينوي أطلق عليها تسمية كليوباتريس تكريما ل(كليوبترا الأولى) زوج بطلميوس الخامس. وفي جميع الأحوال، يبدو أن تسمية المدينة باسم أرسينوي

قد انتهى بعد إعادة تنظيم إقليم قورينايئة في عهد الإمبراطور أغسطس[36] وفي العهد الإسلامي عرفت توخيرا لدى المؤرخين والجغرافيين العرب باسم توكرة وهو الاسم السائد لها إلى يومنا هذا.

ومن أهم معالم مدينة توخيرا هي أسوارها التي يبلغ امتدادها حوالى 600 متر، وهي ترجع إلى العصر الهلينستي، وتعد من أهم الأسوار القديمة للمدن الخمس في برقة، حيث يظهر فيها نقوش تعود إلى عهد الإمبراطور جستنيان، مما يدل على إعادة بنائها في العهد البيزنطي[37]، كما توجد ثلاثة أبواب رئيسة بالمدينة (من الغرب تجاه بنغازي- من الشرق تجاه طلميثة- ومن الجنوب تجاه المرج) ويظهر شمال البرج الحديث القائم على التلة، فناء هلينستي معمد وعلى جانبه ممر مسقوف، وفي عام 1848م قامت بعثة فاتيه دي بورفيل بالكشف عن أجزاء كبيرة من الكنيسة الشرقية التي يعود تاريخها إلى القرن الخامس الميلادي، أما البوابة الغربية (البوابة الهلينسية) لها أبراج مربعة بارزة بنيت بكتل كبيرة من الأحجار، وعلى الجانب الشمالي من رصيف البوابة عثر على نقش يعود على الأرجح إلى القرن الأول قبل الميلاد ذكر فيه: شهادة تكريم من مدينة أرسينوي (توكرة) لرجل من مدينة بطوليمائيس (طلميثة) اسمه ماكوكس على ما قدمه من خدمات جليلة لمدينتهم .أما جمنيزيوم المدينة فقد دمر في الفترة البيزنطية و لم يبق منه سوى الحائط الطويل على الجانب الجنوبي من الشارع الروماني، وأقيم في محله الحمامات البيزنطية التي استمر استعمالها في بداية العصر الإسلامي[38]. ويبدو من البقايا الأثرية المتبقية في مدينة توكرة القديمة مدى ما وصلت إليه المدينة من عظمة وازدهار في الماضي، ولكن لسوء الحظ لم تنج المدينة مثل أخواتها من غارات السكان المحليين والكوارث الطبيعية.

وعلى العموم، فإن أهم المعالم الأثرية لمدينة توخيرا هي المقابر التي وصفها الأخوان بيتشي وصفا رائعا، وهي تعود على الأرجح إلى القرن الثاني الميلادي، وفيما عدا المقابر التي وجد على معظمها أسماء عائلات يونانية وليبية نكاد لا

نعثر بين أطلال توخيرا القديمة على أي شـيء يثير الانتباه الأمر الذي جعل الرحالة الإنجليزي هاميلتون يشـعر بالخيبة عند زيارته لمدينة توخيرا في عام 1852م.

وتجدر الإشارة إلى أن مقابر توكرة تعرضت للنهب من قبل الرحالة الأجانب إبان القرن التاسع عشر، حيث تمت سرقة عدد كبير من التماثيل وأدوات الزينة وهي الآن تزين متاحف بعض الدول الأوروبية مثل اللوفر ولندن ومدريد.

يوسبريدس: مدينة الغرب السعيد

في حدود القرن الخامس قبل الميلاد ورد ذكر مسـتوطنة يوسـبريدس (Euesperides) لأول مرة في التاريخ لدى هيرودوتس، وكان ذلك في معرض حديثه عن الحملة الفارسـية على برقة عقب مقتل الملك الباطي أركسـيلاوس الثالث، كما ذكرت مرة أخرى لدى هيرودوتس نفسـه في سـياق تحديد أماكن القبائل الليبية، حيث عيّن موطن قبيلة الاوسخيساي إلى الدواخل من مدينة برقة حتى شاطئ البحر عند يوسبريدس[39]، وقد سـميت المدينة بهذا الاسـم كونها تقع في أقصى الغرب من مناطق استقرار اليونانيين في إقليم قورينائة الذي كان يعرف عند الإغريق القدامي باسم ليبيا، ويرجح بعض المؤرخين تاريخ تأسيسها فيما بين عامي 519-518 ق.م على أيدى الملك أركسـيلاوس الثالث الذي طالما حاول إخضاع مدينة برقة لسلطانه ودعم سيطرته في غرب قورينائة، أما موقع يوسـبيريدس فيقول عنه عالم الآثار الإنجليزي جودتشايلد إنه"عند الطرف الشمالي من سـبخة السلماني بمدينة بنغازي، فوق ذلك المكان المرتفع حيث توجد الآن مقبرة سـيدي إعبيد الفيتوري[40]. وهو موقع سـاهم كثيرا في تعرض المدينة لغارات القبائل الليبية المقيمة حول خليج سـرت، مثلما نسـمع من ثوسديديس عن قبائل ليبية تضرب حصارا على يوسبيريدس سنة 414 ق.م فلا يرفعه عنها إلا وصول أسطول إغريقي من كورنثى بقيادة رجل يدعى جيليبوس

كان في طريقه إلى سيراقوسه لكن الرياح طوحت به إلى يوسبيريدس[41]

هذا، وقد ذكرت مستوطنة يوسبيريدس في التاريخ تحت أسماء عديدة منها: هسبيريدس، وهسبيريس، ويوهسبيريدس، ما جعل كثيرا من البحاث -تحت تأثير ما يعرفونه من أساطير إغريقية قديمة يخلطون بينها وبين تلك الأساطير التي هي أقدم من المدينة ذاتها، وهو ما نلاحظه في نسبة المدينة إلى حدائق التفاح الهسبيريدس (Hesperides) بنات هسبيريدس الأسطوريات اللواتي كن يحرسن ذلك الجنان الذي أهدي إلى الإلهة هيرا يوم زفافها إلى زيوس، كما تعرف أولئك البحاث على هذه الحدائق وعينوا مكانها بهواء حمزة أو سواني عثمان، وإمعان في هذا الاتجاه قاموا بتحديد موقع نهر الليثون الأسطوري (النسيان) عند كهف به بحيرة جوفية وهو يعرف عند أهل بنغازي إلى يومنا هذا باسم الجخ الكبير، وكان ذلك بإيعاز من الجغرافيين القدماء أمثال بطليموس الذي حدد مكان نهر الليثون ما بين بنغازي وتوكرة، واسترابون الذي وصفه كنهر يقيض في مرفأ يوسبيريدس، ويعارض كل من جوتشايلد وهايسلوب هذه الآراء، حيث قطع الأول بأن يوسبيريدس هو أصح وأقدم اسم لمدينة بنغازي، بينما أكد الثاني بأن المؤسسين الإغريق اسموا المدينة يوسبيريدس ومعناها بالإغريقية (مدينة الغرب السعيد)[42] ويفهم من كليهما أن الاسم المشار إليه ليس له علاقة بما جاء في الأساطير اليونانية المتعلقة بحدائق التفاح الذهبي التي ذكرت في المأثرة الثانية عشرة لهرقل[43].

وقد ظل اسم يوسبيريدس لمدينة بنغازي خلال القرن الخامس قبل الميلاد على نحو ما ورد عند هيرودوتس وكذلك على عملة المدينة حتى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد بوصفه الاسم الرسمي للمدينة. كما ظلت هذه المدينة طوال أحداث تاريخها حليفة مخلصة لمدينة برقة ضد أهل قوريني، مثلما نرى في موقفها من الاحتلال الفارسي، ومغامرة ثيبرون الأسبرطي، ولعل السبب الأساس في هذا التحالف هو وحدة العنصر الليبي فيهما لانتمائه إلى قبيلة ليبية واحدة

هي قبيلة الأوسكيز[44].

وفي العصر الهللنيستي، اختفت فجأة، وعلى نحو نهائي مدينة يوسبيريدس، وظهرت في محلها مدينة تبعد عنها بمسافة ثلاثة كيلو متر تقريبا تدعي (برنيقي) نسبة إلى ابنة الملك (ماجاس) زوجة الملك اللاجيدي بطلميوس الثالث (الخير)، ويؤكد العالمان الإنجليزيان بوند وسولز "أن موقع مدينة يوسبيريدس القديم تم التخلي عنه حوالي 258 ق.م حيث زحزحت المدينة إلى موقع جديد، ثم قامت الملكة برنيقي -بعد بضع سنوات من ذلك- بإطلاق اسمها على تلك المدينة وأحاطتها بأسوار"[45]، ولعل الباعث الرئيس في التخلي عن موقع مدينة يوسبيريدس ربما كان سببه وجود قرار سياسي حاسم هو الذي أدى إلى هجر المدينة[46] وليس بسبب تزايد كميات الوحل واستفحال مياه السبخات كما يزعم بعض المؤرخين، وأرجح الظن، أن القرار المشار إليه صدر بعدما تم إدماج قورينائية في دولة مصر البطالمة عقب زواج الأميرة برنيقي بولي عهد مصر بطليموس الثالث، فقد ذكر عدد من المؤرخين، أن الأميرة برنيقي كانت مخطوبة قبل زواجها من بطليموس الثالث لأمير مقدوني يدعى (ديمتريوس) الملقب بالجميل، وفي يوم من الأيام وقع ديمتريوس في غرام أم برنيقي، وعندما اكتشفت برنيقي الأمر قامت باغتياله داخل حجرة أمها عام 250 ق.م وقبضت بعدئذ على زمام السلطة وتزوجت من خطيبها الأول الذي ارتقى عرش مصر، ومن أجل توطيد مملكتها الوليدة قاومت برنيقي الحكم الديمقراطي في قوريني الذي كان يعارض قيام ارتباط وثيق مع مصر، وأعادت إقليم قورينائية إلى حكم البطالمة، ولعل أشهر حادث في حياة هذه الملكة الأسطورية هو قصة نذرها إبان الحرب السورية، حيث نذرت أن تكرس شعرها الجميل للإلهة أفروديت إذا رجع زوجها سالما من حملة له على سوريا سنة 246ق.م وعندما تحققت أمنيتها وفت بنذرها، ولكن شعرها اختفى على تمثال أفروديت في اليوم التالي لتكريسه، وقد أعلن يومذاك أن العناية الإلهية هي التي رفعت جدا ئل الملكة برنيقي إلى

السـماء لتكون منها مجموعة جديدة من النجوم، ومنذ ذلك الحين صـارت مجموعة النجوم القريبة من ذيل الأسـد تعرف لدى علماء الفلك إلى يومنا هذا باسم جدائل برنيقي[47].

وفي القرن الثالث قبل الميلاد صـارت مدينة برنيقي عضـوا في اتحاد البنتابولس، وأصـبحت تتمتع باسـتقلال ذاتي، وازدهرت في شـتى مجالات الحياة، وقد اشتهر من رجالها صياد سمك يدعى أندرونيكوس الذي صار حاكما للبنتابولس عام 410م.

وفي العهد البيزنطي أمر جستنيان بتحصـينها لتأمين سـلامتها ضـد الغارات المحتملة من جانب القبائل الليبية، وإقام عددا من الحمامات فيها، ويبدو أن برنيقي عاشـت كمدينة حتى أواخر القرن التاسـع الميلادي، فها هو المؤرخ العربي اليعقوبي صـاحب كتاب البلدان يذكرها قائلا: "....برنيق وهي مدينة على سـاحل البحر المالح، ولها ميناء عجيب في الاتفاق والجودة، تجوز فيه المراكب، وأهلها قوم من أبناء الروم القدم الذين كانوا أهلها قديما"[48]. وللأسف لم يبق اليوم من آثار هذه المدينة العريقة شيء يذكر باستثناء حفنة من النقود وبعض التماثيل والفسـيفسـاء والمقابر التي وجدت صـدفة أثناء العهدين التركي والإيطالي، ومن ثم أدت حركة العمران في العصر الحديث القضاء على الآثار القديمة بالكامل.

اسم مدينة بنغازي

وفي نهاية العصـور الوسـطى، وفي زمن مجهول لدينا تماما، اشـتهرت برنيق باسم ميناء قديم بها يُدعى (مرسى ابن غازي)، ولقد أخطأ بعض الباحثين ومن بينهم الأسـتاذ: محمد مصـطفى بازامة في كتابه المسـمى (بنغازي عبر التاريخ) حينما أكد أن أول مرة يرد فيها اسـم (ابن غازي) في نص مكتوب كانت سـنة 1579م(49) مشيرا في ذلك إلى خريطة الرحالة التونسـي أحمد الصـفقاسـي،

وفي الواقع أن تسمية بنغازي أقدم من التاريخ المشار إليه بحوالي قرنين من الزمان، وأول من ذكرها صراحة المؤرخ العربي أحمد بن يحيى الدمشقي المتوفى سنة 1349م في كتابه : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ثم ذكرها بعده المؤرخ المصري محمد الحنفي المعروف باسم (ابن الفرات) المتوفى في عام 1405م في كتابه الموسوم "الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك" حيث قال في الجزء السابع منه ما نصه:" ولها مدن على البحر (...) منها طلميثة وطبرق، ولها ميناء ومرسى بني غازي"[50] والغريب أن الأستاذ محمد بازامة (رحمه الله) عثر على رواية ابن الفرات في كتاب إحسان عباس "تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري" بعد الفراغ من تأليف جزء كبير من كتابه كما يقول، لكنه علق عليها قائلا: "وهي رواية لم أقف عليها قبل ذلك ولا عند غيره، ولو أنه صح لدينا ورودها عن ابن الفرات (...) لتوجب علينا إعادة النظر في جميع ما كتبناه" ثم يعود ويقول كما لو أنه يريد استبعادها عمدا " غير أن ورود التسمية (بني غازي) وليس (ابن غازي) وهي تحريف حديث (.....) واحتمال أن تكون مضافة من الناسخ"[51] .

ومهما يكن من شيء، فإن الأستاذ بازامة نسب بالخطأ اسم بنغازي إلى المرابط المغربي الشيخ غازي الذي زار ليبيا عام 1450م كما تزعم الأسطورة الشعبية، كما أنه اجتهد في البحث والتقصي عن هذه الشخصية الخيالية، إلى أن عثر على شخصية الإمام أبي عبدالله بن غازي المكناسي، ثم أخذ يضع الافتراضات والتخمينات من أجل إقامة علاقة وثيقة بين الشيخ غازي وصاحب الضريح الموجود في بنغازي، مع أن التاريخ لم يثبت زيارة عالم القرويين الشهير إلى ليبيا ناهيك عن دفنه في بنغازي، بل إننا نجد قبره إلى يومنا هذا يزار بعدوة الأندلس في مدينة فاس[52].

وبناء على ما سبق، فإن تسمية (مرسى ابن غازي/ بنغازي) ما زالت إلى يومنا هذا مجهولة المصدر، وليس لها علاقة بضريح المرابط ابن غازي الموجود في

مقبرة (سيدي خريبيش) كما لا يمكن، والحالة هاته، قبول رأي بعض الباحثين الذين يؤكدون على أصلها التركي (الألف غازي) كونها موجودة قبل مجيء الأتراك إلى ليبيا، وكل ما جاء في كتاب الأستاذ بازامة (رحمه الله) حول تسمية (ابن غازي) محض هراء لا أساس له من الصحة بحسب تعبير محمد الوافي، وفي هذه المناسبة تجدر الإشارة إلى أن كتاب بازامة السالف الذكر حول تاريخ مدينة بنغازي حافل بأخطاء تاريخية لا تحصى، نذكر منها على سبيل المثال، إثبات معلومات تاريخية مهمة دون اللجوء إلى وثائق، خاصة فيما يتعلق بسكان بنغازي عبر العصور، فبدون وثائق لا يوجد تاريخ، والتاريخ يُصنع من وثائق كما يقول لانجلوا وسينوبوس[53]. إضافة إلى تأويل الأساطير اليونانية والمحلية وفقا لمقتضيات الأحداث التي يكتب عنها، من ذلك ما ذكره بشأن المأثرة الثانية عشرة وشخصية أطلس الأسطورية، حيث قال: "لا بد أن واضع الأسطورة قد شاهد هواء حمزة أو هواء عصمان"[54] وهما موقعان في مدينة بنغازي ربط بينهما وأسطورة أطلس ورفع العالم على كتفيه، كما نجده يتكلم عن أسماء وألقاب القديس مرقس باعتبارها شخصيات مختلفة، وفي الواقع أن هاته الألقاب تخص شخصية واحدة، هي شخصية يوحنا الكنعاني صاحب أحد الأناجيل الأربعة الملقب (مرقس) وقد سمي بالقوريني نسبة إلى إقليم قورينائية، وهو غير سمعان القوريني الذي حمل الصليب، وجاء ذكره في الأناجيل (مرقس، متى، ولوقا). لكن ما يشفع للأستاذ بازامة (رحمه الله) ما ذكره في مقدمة كتابه الذي يُعد (بحسب قوله) أول محاولة يبذلها ليبي على الأقل في العصر الحديث.

أشهر أعلام قورينائية

"إنما أرثي لأرض قوريني التي أنجبت في الماضـي أمثال كرنيادس وأرسطيفوس، وهي اليوم لأمثال يوحنا ويوليوس "

✍ سينسيوس

أرسـطيفوس: فيلسـوف من ليبيا، ولد عام435 ق.م في مدينة قوريني، لأب يدعى (اريتادوس) وهو من تجار قوريني الكبار، سـافر في شـبابه إلى أثينا، وتشـبع بآراء السـوفسـطائية، ويقال إنه تتلمذ مباشـرة على يد بروتاغوراس السـوفسـطائي الكبير، ويذكر أفلاطون أنه كان أحد تلامذة سـقراط، والمؤسـس التقليدي للمدرسة القورينائية (مذهب اللذة) في الفلسفة.

جعل أرسـطيفوس هدفه من الحياة الاسـتمتاع باللذة الحاضـرة، وكانت الأخلاق في نظره هي الفرع الوحيد المفيد من فروع الفلسـفة، وغاية الخير الأوحد هو الاشـتهاء، وأن الغريزة شـيء طبيعي في جميع الكائنات الحية، ومن هنا كانت مقولته الشـهيرة عن علاقته بالعاهرة العمومية لايده التي تعرف عليها في مدينة كورنثوس " إنني أملك لايده وليست هي التي تملكني"(55).

تذكر المصادر التاريخية أن أرسطيفوس كان يقضي شهرين كل عام مع لايده وينفق عليها كثيرا، لدرجة أن أحد عبيده لامه في ذلك قائـلا: "أنت تعطي المال الكثير لهذه المرأة، بينما هي تقضـي وقتها مجانا مع ديوجين الكلبي، فأجابه أرسطيفوس: إني أدفع الكثير للايده حتى أستطيع الاستمتاع بها، لا من أجل ألا يستمتع بها أحد غيري"(56). أما رأيه في الزواج يتضح في مقولته الشـهيرة التي ما زال الناس يرددونها إلى يومنا هذا : "إن تزوجت جميلة شاركك فيها غيرك، وإن تزوجت دميمة كانت عذابا عليك"(57)

يذكر أنه نشأت خصومة بينه وبين أفلاطون الذي كان يوبخه لأنه لم يسع إلى إطلاق سراح أستاذه سقراط، ولم يحضر ساعة تناوله السم وموته، وذلك لانهماكه في الملذات رفقة صديقه كليومبروطس في مدينة إيجينا[58]، حيث اشتهر أرسطيفوس الذي كان يليق به "كل لون وكل حال" بحسب قول (هوراتسيوس) بانتهاب اللذات وحب المال والتملق على نحو شائن جدا. قضى أكثر عمره من مكان إلى آخر، غير أنه قفل في أواخر عمره راجعا إلى مسقط رأسه، وهناك أخبار ونوادر كثيرة أوردها المؤرخون حول علاقته بطاغية سرقوسة (ديونسيوس الصقلي) نذكر منها على سبيل المثال أربعة مواقف توضح فلسفته في الحياة بشكل عام:

1- سأله ديونسيوس الطاغية لماذا جاء إليه، فأجاب: "لما احتجت إلى الحكمة ذهبت إلى سقراط، والآن وقد احتجت إلى المال، فأني أتيت إليك".

2- ذات مرة تشفع إلى ديونسيوس في صديق، فلم يفلح في مسعاه، فارتمى على قدميه، فلامه أحدهم على ذلك فقال: "الذنب ليس ذنبي، بل ذنب ديونسيوس، فإن إذنيه في قدميه"

3- كان ديوجين لايرتيوس في سرقوسة يغسل بقولا ذات يوم، فقال له أرسطيفوس، لو تملقت ديونيسيوس لما أكلت من هذه، فأجابه ديوجين: بالعكس لو أكلت من هذه البقول، لما احتجت إلى تملق ديونيسيوس".

4- قال ديونيسيوس لأرسطيفوس: لم أستفد منك شيئا، فأجابه أرسطيفوس: هذا صحيح، إذ لو استفدت شيئا، لتخلصت من الطغيان كما يتخلص المرء من الصرع"[59].

ومن جهة أخرى، يجب الاعتراف بأن النوادر المشار إليها آنفا ارتاب في صحتها جملة من المؤرخين، بل اعتبرها بعضهم مجرد خرافات، فأرسطيفوس الذي لم يمنح سوى (جلباب وأسمال) وكان أكثر موضوعية في تناول طبيعة

الناس من الناحية الفلسفية، يتميز بأخلاق فاضلة، ولقد دافع عنه في العصر الحديث أحد فلاسفة جامعة (كوبنهاغن) قائلا:" ولد في مدينة ثرية جدا (...) وكان معتادا منذ نعومة أظفاره على وجوه الحياة الرغدة كافة، فما هو المستغرب بعد كل هذا إذا هو قال "إن منتهى الخير في الحياة السعيدة" أي في إشباع الرغبات والشهوات كافة في يسر وبصورة ملائمة (...) وعليه فإن آريستيبوس ذاته يمكن أن يلتمس لنفسه العذر إذا لم يسلك دائما الطريق المستقيم وإذا انحرف في نواح كثيرة عن قدوة معلمه العظيم، بل يبدو لنا نحن أنه يستحق الإعجاب، إذ إنه وفق بإرشاد الفلسفة إلى السعادة في الحياة وفقا لنظام فلسفي سام دون ما شطط وفي وقار، فلم يبحث عن المتعة ولكنه لم يبعدها عنه، وكان ثابتا في حياته المليئة باللذات المختلفة، في حين أن معاصريه والأحفاد من بعدهم يعتبرونه في الغالب جدير بالعار لجهلهم بزمنه وبظروف حياته"[60]

وعلى أية حال، مات سفسطائي قوريني (كما كان ينعت في المصادر الكلاسيكية) عام 356ق.م بعدما أسس مذهب اللذة في الفلسفة، وقام بتأليف ثلاثة كتب عن تاريخ ليبيا، ومجموعة رسائل في الفلسفة والأدب ضاعت جميعها فيما يقال، ولم تصل منها سوى شذرات طفيفة متناثرة هنا وهناك بين كتابات فلاسفة مدرسة اللذة القوريناية، وكان من بينهم ابنته (أريتيه) التي قامت بدور المعلم بعد رحيله. ومن المؤسف أن مؤلفاته عن تاريخ ليبيا ضاعت، وأننا نشعر بمرارة فقدانها إلى يومنا هذا، كونها صادرة عن رجل من أهل البلاد وعن أديب أنيق بحسب تعبير (يوحنا بطرس ثريغه).

ثيودوروس القوريني: أو ثيودوروس الملحد، فيلسوف من المدرسة القوريناية الليبية، ولد عام 460ق.م في مدينة قوريني، تتلمذ على يد (فيثاغورس) أنكر قيمة الصداقة، وسخف فكرة الموت من أجل الوطن، فقد روي أنه كان يقول" إن العاقل لا يضحي بنفسه في سبيل الوطن، إذ ليس من الحكمة أن يلقي المرء بحكمته من أجل منفعة الجاهلين"، كما نفى وجود الآلهة

وفكرة الخلود[61]، وأباح السرقة والزنا وارتكاب الموبقات، أسس مدرسة خاصة سميت الشيودورسية، تجاوز فيها آراء أرسطيفوس في مذهب اللذة، وحينما طرد من مسقط رأسه أول مرة قال :" أحسنتم، أي قضاة قورينى إذ طردتموني من ليبيا إلى اليونان، وبالفعل أخذ يتنقل من بلاط إلى بلاط من غير أن يرائي أو يمدح أحدا ممن ضيفوه، إلى أن استقر في أثينا، وما لبث حتى طرد مرة أخرى بسبب إنكاره للآلهة وإفساد عقول الشباب بالإلحاد، فلجأ إلى بلاط لوسيماخوس في تراقيا، ويقال إن لوسيماخوس سأله ذات مرة: "ألم تغادر وطنك مدفوعا أيضا بالحسد، فأجاب: "لقد كان وطني أصغر من أن يتسع لمثل هذه العظمة في التفكير الفلسفي، فحملني جني أو إله إلى مكان أحسن حظا"[62]. يذكر أن أبيقور تأثر به كثيرا وعنه أخذ الكثير سواء في الأخلاق أو في الأمور المتعلقة بالإلهيات.

كاليماخوس القوريني :ولد عام310 ق.م في قورينى، ويعد من أشهر رجالها على الإطلاق، كان من تلاميذ فليتاس، ومن ثم أصبح من رجال البلاط، وقد اختير فيما بعد أمينا لمكتبة الإسكندرية، جعل من شعر المراثي أداة شائعة الطراز في العالم الهلنستي، أطلق عليه أحد النقاد المتأخرين" المبرأ من الخطأ"، ترك لنا عدة قصائد أشهرها أنشودة الرعاة، وضفائر برنيقي اللّتانِ يتسمان بالمهارة اللغوية واستخدام الألفاظ الرشيقة، وهناك رائعته الخالدة (هقلي) التي اكتسبت شهرة واسعة وظل الناس يقرأونها ويشرحونها ويعلقون عليها حتى العصور الوسطى، وديوان الأسباب الذي يبدأ بحلم يرى فيه الشاعر نفسه وقد انتقل من ليبيا إلى جبل هليقون، وكي يتجنب كاليماخوس الإطالة في موضوع واحد والانتقال سريعا من قصة إلى أخرى، جعل الديوان كله على هيأة حلم، وتجدر الإشارة إلى أن معظم أشعاره لا تخلو من ذكر ليبيا والحنين إلى مسقط رأسه قورينى، "ويتمثل هذا الحنين ليس فقط في أنه استخدم في نشيديه الخامس والسادس اللهجة الدورية الشائعة الاستعمال في قورينى، بل كذلك في

نشيده الثاني الموجه إلى أبوللو كبير آلهة قوريني"[63]

أشهر حدث في حياته الأدبية خصومة نشأت بينه وبين أبولونيوس وهو من تلاميذه وصاحب ملحمة "الأرجونوتيكا" الذي قال عن أبياتها الطويلة: "إن الكتاب الضخم مبعث كبير للإزعاج، ووصف صاحبها بالايبيس (Ibis) وهو طائر مصري يقتات على كل شيء ويلوث كل ما هو نظيف، فاضطر أبولونيوس مغادرة مصر بعدما كان أمينا لمكتبة الإسكندرية لمدة عشرين عاما، ونُصّب مكانه أراتوسثنيس القوريني، الأمر الذي جعل وليم تارن (وهو من كبار المتخصصين في الآداب الهللينستية) يلّمح إلى أن سبب الخلاف بين الشاعرين يمثل أحد مظاهر خصومة برقة للإسكندرية[64]، وفي الواقع، أن الخلاف بينهما لم يكن سياسيا وإنما كان فكريا، فكاليماخوس كان يرى أن عصر الملاحم المطولة قد انقضى، ويدعو إلى عصر القصائد القصيرة، لذلك نجده يصّدر مجموعة أعماله الكاملة قائلا: "إن التلخينيس (الأخباث) وما أجهلهم وأبغضهم إلى ربات الشعر، يبرمون بشعري لأنني لم أنظم قصيدة مطولة واحدة تستغرق آلاف الأبيات في مدح الملوك أو الأبطال (...) لكن شأني شأن الطفل لا أروي إلا قصة قصيرة (...) لا يجب أن تتوقعوا مني نظم الأشعار الضخمة المدوية، فالرعد لا يصدر عني، وإنما عن زيوس، ذلك أنني عندما شرعت في الكتابة أوصاني أبوللو بأن القربان يجب أن يكون سمينا، وأما الشعر فيجب أن يكون رشقيا، وقد أخذت النصيحة، فأنا أُغنّي للذين يفضلون صوت المزمار الرفيع على نهيق الحمير"[65] وبذا، يعود اشمئزاز كاليماخوس من القصائد المطولة، بسبب لغتها المصطنعة وصورها التقليدية الباهتة وكثرة انتشارها بين أدباء عصره، فها هو يقول: "أمقت القصيدة الطويلة، والطريق العامة، والعاهر، ولا أشرب من النافورة، فأنا أكره كل ما هو عام"[66]، في حين كان أبولونيوس يفضل نظم القصائد المطولة على طراز هوميروس وهسيودوس واسخيلوس. وقد حاول التدليل على رأيه بصياغة ملحمة الأرجونوتيكا وهي تتألف من عدة آلاف

من أبيات الشعر.

مـــات كاليماخوس القوريني في مدينة الإسكندرية عام245 ق.م عن عمر يناهز الستين عاما. وكان ذلك بعد عودة أبولونيوس إلى مصر وتم الصلح بينهما ودفنا في قبرين متجاورين. وقد أوصـــى بأن ينقش على قبره أبيا تا من نظمه تقول:

هنا يرقد سليل باتوس

وقد كان يجيد معرفة الشعر

كما كان يعرف كيف يجمع في الموسم المناسب

بين ضحكة الصداقة وكأس النبيذ[67]

اراتوســـثنيس :هو اراتوســـثنيس القوريني لقب (بالجغرافي العظيم) من رجالات القرن الثالث قبل الميلادي، ولد في قورينى عام275 ق.م، ثم رحل إلى مصـــر، ودرس في بادئ الأمر في الإســـكندرية بالأكاديمية التي أســـسـها بطليموس الأول، تتلمـذ على يـد أرســـتون الرواقي بـأثينـا، وكـان تلميـذا لـــ"كاليماخوس"، صنف كتبا في مجالات كثيرة حتى أوشك أن ينافس أرسطو في عدد من ميادين العلم، "كانت كنيته (beta)أي رقم اثنين، ومعنى ذلك أنه لو أجريت قرعة بين رجال العلم لحصـل على صـوت (ثميسـتو كليس) في كل فرع من فروع العلم، كما "كان يلقب باسـم الخماسـي pentalo لأنه كان عالما متضـلعا في خمسـة علوم مختلفة في عصـر"[68] وقبل أن يبلغ الأربعين من عمره ذاعت شـــهرته في مجالات عدة، مما جعل بطليموس الثالث يعينه أمينا لمكتبة الإسـكندرية. له ديوان شـعر ونصـوص أدبية تدور حول الكوميديا الكلاسـيكية، ومجموعة رسائل في الرياضيات اكتشف فيها المنهج الرياضي العالمي الخاص بتكوين قوائم الأرقام الأولية، وكتاب في الجغرافيا في ثلاثة مجلدات، أشار إليه بعض المؤرخين أمثال: ســـترابون، بلينيوس، بوليبوس وغيرهم. ومن بين مؤلفاته

المهمة كتابه (كرونوجرافيا) cronografia الذي تحدث فيه عن وحدة مياه المحيطات واتصالها بعضها ببعض، وأن العالم المأهول أوروبا/ آسيا /إفريقيا إن هو إلا جزيرة، كما أشـــار إلى تشـــابه المد والجزر في المحيطين الهندي والأطلسي، واستنتج رهو على صواب أن في الإمكان الإبحار من إسبانيا إلى الهند رأسا حول أفريقيا، وهي رحلة لم تتم فعلا قبل فاسكو داجاما.. لكن أعظم أعماله هو تقدير طول محيط الأرض بــــ 24662ميلا، وذلك قريب من التقدير الحالي24847. ميلا[69] مات راتوستنيس في قوريني فيما بين 196/200 ق.م.

كرنيادس :فيســـلوف يوناني، ولد في قوريني عام214 ق.م، من أشـــهر فلاسفة الأكاديمية الجديدة، وكان من أهم ممثلي المدرسة الأفلاطونية وعدوا تقليديا للرواقية، ترأس الأكاديمية حتى مماته، ويجمع القدماء على اعتباره أهم فيلسوف ظهر في الفترة الفاصلة بين أرسطو وأفلوطين، غادر وطنه قوريني وهو في مطلع الشباب ليكمل دراسته في أثينا، يذكر شيشرون : "أنه لم يدع بابا من أبواب الدراســـات الفلســـفية لم يلجه، وانقطع للكتب وقراءتها إلى حد أنه كان ينســـى أن يقص شـعره وأظفاره"[70]. اشـتهر مذهبه بالاحتمالية، وتركزت تعاليمه بالدرجة الأولى على نظرية اليقين، فالحواس خادعة والعقل يعجز بدوره في التمييز بين الحق والبـاطـل، وكـان يهـاجم الرواقيـة فيمـا يتعلق في المعرفـة واللاهوت والفيزياء، أليس هو من طرد ذلك الغول المخيف من نفوســـنا الذي اســمه التســرع في الحكم بحســب تعبير(اقليتوماخوس). كما كان ضـد الجبرية وأحكام النجوم التي كان يؤمن بها بعض فلاســـفة عصـــره، فليس في الإمكان التنبؤ بالغيب (كما يقول) إذ ليس له ميدان خاص به: فلا هو يمارس في الصـــناعات ولا في الآداب ولا في الفلســـفة، ولا ســـائر العلوم[71]. ولقد لخص شيشرون اهتماماته الفلسفية في ثلاثة محاور "نظرية اليقين، وجود الآلهة، والخير الأعظم.

كان كرنيادس خطيبا مفوّها ومناظرا حاذقا، بالإضـافة إلى كونه فيلسـوفا، ولم

يكن يوما سوفسطائيا كما اتهمه خصومه، بل كان صاحب حجة وأخطر خصم للبينة بحسب تعبير القديس أوغسطين، ولقد روى عنه في هذا الشأن أخبار كثيرة منها: قول أحد الرواقيين وهو يحمد العناية التي أوجدت خروسيفوس بين أركسيلاوس وكرنيادس لرد هجمات الأول والإجابة مقدما على هجمات الثاني، وقول بعض الفلاسفة من بعده، أنه لم يدافع قط عن قضية دون أن يتمكن من إقناع سامعيه، لذلك نجد خصومه يولون الأدبار حالما تقع أنظارهم عليه، لدرجة أن الناس كانوا يرددون عند مواجهة المسائل العويصة (بعد موته بزمن طويل): "حتى ولو أخلى العالم السفلي سبيل كرنيادس، فإنه لا يستطيع أن يذلل الصعوبة"[72].

من أبرز أعماله إلقاء محاضرات فلسفية في مدينة روما حينما اشترك بوصفه رئيسا للأكاديمية من أجل إعفاء أهل أثينا من دفع الغرامة في سنة 156 ق.م وكان أشهرها محاضرتين: إحداهما للدفاع عن العدالة، أما الثانية في مهاجمتها، وفيهما سرد الحجج المتعلقة بتطبيق العدالة. وكان لهاتين المحاضرتين الأثر البالغ في نشر الفلسفة الإغريقية في مدينة روما[73].

مات كرنيادس عام 129 ق.م وهو في الخامسة والثمانين من عمره في مسقط رأسه قوريني. بعد ما فند بالحجج الدامغة نظرية المعرفة لدى الرواقية وأكد في الوقت ذاته على الحرية الإنسانية، وهو مطلب طالما سعى إليه بعض الفلاسفة في العصر الحديث أمثال: كانط وهيوم وهاملتون.

مرقس الأنجيلي

اسمه: يوحنا أرسطوبولس الكنعاني، يهودي الأصل[74]، ذكره (متى) من بين تلامذة المسيح، لقب بألقاب عديدة منها: الزيلوطي (سريع الخطى)، مرقس (المطرقة باللغة الرومانية)، والقوريني.

ولد في ليبيا عام 15م في قرية أبرياتولس تعرف اليوم باسم (برطلس) تقع ما بين مدينتي شحات وسوسة[75] بإقليم قورينائية، ونشأ مع والده وعمه وكانا غنيين فيها، أما أمه فكانت تدعى حنه، وهي إحدى النساء اللواتي وضعن الطيب على جسد المسيح بعد صلبه، وقد سميت (مريم) بعد تعميدها، تعلم منها مرقس اللغة اليونانية واللاتينية والعبرية.

كان له أنف طويل وحاجبان عاليان، وعيناه غائرتان وجميلتان، وكان أصلع الرأس، وذا لحية طويلة (...) ويوحي مظهره بالحيوية والنشاط"[76] لم يتزوج على الإطلاق، فلقد وهب حياته كلها للتبشير بتعاليم السيد المسيح في عدة بقاع من العالم، حيث كان بيته أول كنيسة في العالم كما جاء في أعمال الرسل.

تذكر بعض المصادر المسيحية أن أسرته تعرضت للنهب والاضطهاد من قبل الرومان[77] في نهاية حكم (أغسطس) فاضطرت إلى الهجرة إلى فلسطين، واستقرت هناك وقتما بدأ المسيح في دعوته، وقد آمن مرقس بالسيد المسيح منذ كان صبيا، وفي أثناء إقامته في فلسطين تم تكليفه بأعمال التبشير بين أبناء وطنه في إفريقيا، فعاد إلى ليبيا وكتب إنجيله باللغة اليونانية، وهناك من يرى بأن إنجيله كتب في روما بإملاء أمير الرسل (بطرس) ثم هاجر إلى مصر وأقام فيها الكنائس والمدارس لنشر الديانة المسيحية، وهنا، تجب الإشارة إلى ما ذكره غالي شكري في كتابه (الأقباط في عالم متغير) " **وأرجح الاحتمالات التاريخية أن اعتناق مصر للمسيحية قد تم علي يدي أحد أبنائها وهو القديس مرقس الذي ولد في مكان ما من الصحراء الغربية يتبع الآن ليبيا**" ويعلق الدكتور علي فهمي خشيم على هذا الكلام قائلا: "**أما القول بأن القديس مرقس ولد في مكان ما من الصحراء الغربية يتبع الآن ليبيا هو تعميم غير دقيق تماما، فالرجل كان يتكلم اليونانية وبها كتب (إنجيله) الذي يعتبر أقدم الأناجيل زمنا وثانيها بين الأناجيل الأربعة المعتمدة، فلا بد أنه نشأ في بيئة تسود فيها اللغة اليونانية، ولم تكن تلك البيئة إلا**

مدينة (قورينا)"[78]

وعقب كتابة الإنجيل (سواء في ليبيا أو روما أو مصر كما يزعم غالي)، أُوفد مرقس للتبشـــير في الشـــرق فعاد إلى بلاده عام 40م، وظل في إقليم قوريناثية واحدا وعشرين عاما حتى عام 61م فأنشأ أول كنيسة وجعل عليها أول أسقف، ذاك الذي سـمي (لقيوس القوريني)، وقيل إنه كان أول أسـقف لمدينة قوريني، وكانت له معجزات في ليبيا ذكرها (الأسقف ساويرس) في كتابه (سيرة مرقس) بقوله:" قصـــد الخمس مدن أولا (البنتابولس)، وبشـــر في جميع أعمالها بكلام الله، وأظهر عجائب كثيرة حتى إنه أبرأ المرض، وطهر البرص، وأخرج الشـياطين بنعمة الله الحالة فيه، فآمن بالسيد المسيح كثيرون، وكسروا أصنامهم التي كانوا يعبدونها"[79]

ثم سـافر إلى مصـر، وما لبث حتى قتل في عهد الإمبراطور الروماني نيرون، حيث تعقبه الرومان بالمكائد أيام عيد الفصح (القيامة)، ولقد تم فصـل رأسـه عن جسده في الإسكندرية عام68 م ووزعت عظامة ما بين إيطاليا ومصر، وفي عام 829م نقلت عظام جســده إلى البندقية، فيما ظل رأســه في الإســكندرية، وهناك كنيسة في إيطاليا تحمل اسمه (سان ماركو) وهي تعد من أفخم الكنائس في أوروبا على الإطلاق، إضـافة إلى الصور والتماثيل المنتشـرة في جميع أنحاء العالم تمثله وهو جالس يكتب إنجيله وفي يده ريشة.

أهم عمل قام به تدوين إنجيله عام 45م في وادٍ يعرف إلى اليوم باســـم (وادي مرقس) بمنطقة الجبل الأخضـــر في ليبيا، وهو يمتاز بوضـــوح العبارة وســهولة الأسـلوب، حيث عده اللاهوتيون "أوضـح تاريخ للسـيد المسـيح في العالم"[80]. كما أن إنجيله من أقدم ما كتب من الأناجيل كما يقول البابا شـنودة الثالث[81].

آريوس: Arius قس ليبي، ولد في قوريني عام 270م لأب اسـمه امونيوس من أصل ليبي بربري بحسب شهادة القديس ابيفانيوس أسقف سلاميس، يعد أول من أثار الجدل حول طبيعة المسـيح في العالم، كان طويل القامة، نحيل الجسـم، ويبدو على ثيابه أثر الزهد وخشـونة العيش، درس اللاهوت بمدرسـة الإسكندرية، ثم ذهب إلى أنطاكية وأخذ العلم عن لوقياس، طرد من مجمع عقد في الإسكندرية بسبب مجاهرته برأيه بشأن طبيعة المسيح، وعزل معه اثنا عشر شخصا كان بينهم أسقفان ليبيان من برقة هما سيكوندس وتبوليمس، وبعدها اضطر إلى السفر نحو فلسطين ثم اتجه إلى سوريا فآسيا الصغرى، واستطاع من خلال ثقافته وصفاته الشخصية أن يجمع حوله عددا من التلاميذ من أبناء رعيته، وذكر في جزء من خطاب له إلى الإمبراطور قسطنطين: **أنه يحظى بتأييد شديد من أهل ليبيا**[82]، كما كان من أتباعه سبع مئة عذراء مكرسة كن يتبعنه أينما ذهب، الأمر الذي تسبب في إحداث قلاقل وخلافات داخل الكنيسـة، ولكي يُحافظ على الأمن وحرية العبادة، اضـطر في حينها الإمبراطور قسـطنطين إلى التدخل وتسـوية النزاع، فعقد مجمعا مسـكونيا في عام 325م وهو أول مجمع ديني عالمي للبت في طبيعة المسـيح، وفي هذا المجمع قال آريوس: "**الله الواحد الأحد، القائم وحده القيوم، هو الوحيد الذي لم يولد، ليس له بداية أو نهاية، لا يمكن إدراكه أو التعبير عنه، وليس له معادل أو مكافئ على الإطلاق**"[83]، أي بمعنى أنه أنكر الاتحاد في الجوهر بين الأب والابن، وبذا كان ينادي ببشرية المسيح، عكس ما كان يعتقد في طبيعته اللاهوتية، ولقد قصـد من وراء مقولته كما هو واضـح تأييد وحدانية الله، ماحيا فكرة الخلاص redempation التي يعتبرها المسيحيون فكرة جوهرية في عقيدتهم، واستمرت جلسات مجمع نيقية أكثر من شهرين، تمكن آريوس بفضل بلاغته وقوة حجته الحصول على تأييد أسقف نيقية نفسه، إلا أن المجمع قرر بإيعاز من الإمبراطور قسـطنطين قدسـية المسـيح، وإدانة آريوس وتكفيره هو وأتباعه، وتم اسـتهجان

دعوته " من كافة رجال الدين الغربيين في إيطاليا وغاليا وإسبانيا، وقالوا لأبناء كنائسهم الذين قصرت أفهامهم عن إدراك دقائق العقيدة المسيحية بأن المؤمن بالمذهب الآريوسي عدو المسيح"[84] ثم جاء مجمع القسطنطينية عام 381م ليكرس عقيدة الثالوث وليعطيها الصيغة المشهورة: "إله واحد في ثلاثة أقانيم"[85]. لكن المسألة لم تنته عند هذا الحد، فرغم الإدانة والحرمان واللعنة فقد انتشرت الآريوسية لدرجة أنها أصبحت الديانة الرسمية للدولة، إذ تبناها الإمبراطور قسطنطين وتنصر وفقا لتعاليمها. ويبدو أنها استمرت حتى القرن السابع الميلادي، بدليل أن الرسول (ص) خاطب هرقل وحمّله ذنب الآريسيين لو لم يسلم ويدخلهم معه في الإسلام[86].

توفي آريوس (الهرطوق الليبي) كما كان يوصف في المصادر المسيحية عام 335م بالسم في أحد المراحيض العامة، بعدما نشر المذهب الآريوسي المنادي بوحدانية الله وبشرية المسيح ونفي الطبيعة الإلهية عنه. وقد لا قت دعوته إقبالا جماهيريا كبيرا، لدرجة أن الناس كانوا في تلك الفترة يتكلمون عنها في كل الأحيان، **"فإذا سألت أحدا من الباعة: ماذا أدفع؟ أجابك: هو مولود أو هو غير مولود، وإن أنت حاولت أن تعرف ثمن الخبز، أجابوك: إن الأب أعظم من الابن، وإن سألت هل الحمام جاهز: سمعت جوابا: إن الابن جاء من العدم.**[87].

سينسيوس القوريني: فيلسوف أفلاطوني محدث، مثقف وكريم ومالك عقار كبير، ولد وثنيا في قورينى عام 370م من أسرة غنية يرجع أصلها إلى ملوك أسبرطة، أمضى طفولته في مسقط رأسه هذا، حيث تلقى تعليمه، ثم رحل إلى الإسكندرية عاصمة الثقافة الإغريقية لاستكمال تعليمه بها، تتلمذ على يد الفيلسوفة الشهيرة (هيباثيا)، درس العلم والفلسفة والآداب القديمة حتى صار أحد أقطاب الفلسفة الأفلوطينية المُحدثة، ثم رجع إلى ليبيا، واستبدل أفلاطون بالمسيح وتزوج مسيحية، وفي أواخر حياته عُين أسقفا لمدينة بطوليمائيس

(طلميثة) التي كانت يومذاك عاصمة قوريناية.

تدل رحلته المبكرة إلى القسطنطينية على اهتمام شديد بالسياسية، حيث تولى منصب عضو لمجلس النواب الروماني بصفته نائبا لمدينة قوريني، وبعد اعتناقه للمسيحية تولى الدفاع عن رعاياه المسيحيين من المجاعة والعدوان، لذلك نجده يقوم بتنظيم القوات المسلحة من الجند المحلية ويقودها بنفسه أثناء الغارات الشرسة التي كانت تشنها القبائل الليبية ضد (المدن الخمس) أشهر مؤلفاته: رسالة عن السوفسطائية عنوانها "ديون قوقيانوس" ورسالة هزلية في مدح الصُّلع عارض فيها مديح الجُمّة لديونيسيوس البروزي، ومجموعة رسائل تشتمل على معلومات تاريخية مهمة أصبحت فيما بعد نموذجا مثاليا يحتذي به كل أديب وخطيب[88] ومن تصانيفه أيضا كتاب يسمى " في العناية" وهو قصة فلسفية رمزية، وكتاب (في المنامات) يتعلق بدراسة الأحلام على ضوء المذاهب الأفلاطونية المحدثة، ومواعظ وخطب تعود إلى زمن أسقفيته. أطلق عليه المؤرخ الفرنسي Bossuet لقب سينسيوس العظيم (il grandi sinesio) كما تناول سيرته بكل إعجاب عدد كبير من المؤرخين.

اغتيل سينسيوس على أيدي القبائل الليبية عام 414م في إقليم برقة وكان عمره 44 سنة.

على سبيل الختم:

تجدر الإشارة إلى أن أول ذكر لاتحاد المدن اليونانية الخمس البنتابولس (Pentapolis)ورد في المصادر الكلاسيكية عند بلينيوس، حيث قال :إن الاتحاد كان يتألف من المدن التالية :قوريني، أبولونيا، برنيقي، ارسينوى، بطوليمائيس" ، وإذا كان أسماء المدن الواردة في هذا الاتحاد كانت جميعها أسماء سارية وقت الاتحاد، فإن ذلك يؤكد على أن مدينة بطوليمائيس (طلميثة) كانت موجودة بوصفها مدينة قائمة بذاتها وليست بوصفها ميناء لمدينة برقة .ويبدو مع مرور الزمن أخذت مدينة بطوليمائيس مكان برقة التي دمرت وهجرت نتيجة ثورات الليبيين المتوالية أو ربما فصل الميناء عنها واستقل مثلما حدث لمدينة أبولونيا.

وعلى أية حال، فقد ظل اتحاد المدن الخمس حتى العصر البيزنطي قائما با ستثناء الفترة التي أنشئت فيها مدينة هادريانوبولس (دريانة) بعد ثورة اليهود في برقة عام115 م، فأصبح في إقليم قوريناثية ست مدن، ووصفت قوريني بأنها عاصمة المدن الستbe matropolis tas hexpolia ، لكن اصطلاح المدن الخمس ما لبث أن عاد من جديد على عهد الإمبراطور دقلديانوس[89] وذلك بالرغم من استمرار وجود مدينة هادريانوليس تابعة للإقليم.

الهوامش:

1. كان (جركي) و (مالتن) من أبرز المدافعين عن وجود مستعمرة إغريقية قبل قورينى، راجع كتاب (إنشاء قورينى وشقيقاتها) للدكتور: إبراهيم نصحي، منشورات الجامعة الليبية، الطبعة الأولى 1970م
2. فرنسوا شامو (الإغريق في برقة الأسطورة والتاريخ) ترجمة: الدكتور محمد عبدالكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي/ليبيا الطبعة الأولى 1990م ص ص 54/53
3. هذه الفقرة لا توجد في ترجمتي الأوديسة العربية اللتين اضطلع بهما كل من: دريني خشبة وعنبرة سلام الخالدي، فالترجمة الأولى لم تترجم ترجمة تطابق أصلها اليوناني، وكان عذر المترجم في ذلك أنه لا يريد أن يثقل على ذهن القارئ الملول متابعتها، فأساء إلى الأوديسة وصاحبها، وتصرف في نصها كثيرا لدرجة أنه استخدم في الترجمة مفردات قرآنية من قبيل " ألا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا" " هذه الجواري المنشآت فيه كالأعلام" "يقذفونها بحجارة من سجيل، جعلت رجالنا كعصف مأكول" أما ترجمة عنبرة الخالدي جاءت على شكل ملخصات سهلة قريبة المنال، فقد أنجزت لطبقة متوسطة من القراء الذين يقرؤون إلا والسبيل ميسرة لها بحد قول طه حسين، لذا لم تحافظ الخالدي أيضا على ترجمة مطابقة للنص الأصلي، فاضطررت باعتباري أجهل اللغة اليونانية للجوء إلى النسخة الإنجليزية المنجزة من قبل العلامة الإنجليزي صمويل بتلر راجع: Homer, The Odyssey, Translated by Samuel butler p 60
4. Homer, Id pp 237-238
5. إبراهيم نصحي، مرجع سابق، ص 25
6. إسماعيل مظهر"فلسفة اللذة والألم"، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافية، القاهرة، الطبعة الأولى2014 م ص43

7. محمد مصطفى بازامة "قورينة وبرقة نشأت المدينتين في التاريخ"، منشورات مكتبة قورينا، بنغازي /ليبيا، الطبعة الأولى، ص48
8. إبراهيم نصحي، مرجع سابق، ص56
9. فرانسوا شامو"، مرجع سابق ص313
10. رجب عبدالحميد الأثرم "تاريخ برقة السياسي والاقتصادي"، منشورات مكتبة قورينا، بنغازي، الطبعة الأولى1975 م، ص108
11. يراجع: عبدالرحمن بدوي"الفلسفة القورينائية أو مذهب اللذة"، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، الطبعة الأولى1969م ص13 وجان جاك روسو "في العقد الاجتماعي" ترجمة: ذوقان قرقوط، دار القلم، بيروت/لبنان، الطبعة الأولى 1973م ص 87
12. يوحنا بطرس ثريغه، تاريخ قوريني، ترجمة: سليمان إبراهيم الجربي، مجلس الثقافة العام، سرت، الطبعة الأولى، 2006م ص230.
13. غوليالم ناردوتشي، استيطان برقة قديما وحديثا، ترجمة: إبراهيم أحمد المهدوي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، سرت، الطبعة الأولى 1425ميلادية ص 90
14. رجب عبد الحميد الأثرم، مرجع السابق، ص104
15. غوليالم ناردوتشي، مرجع سابق، ص234
16. أرنولد توينبي، الوحدة العربية آتية "من النيجر إلى النيل" دار الآداب، بيروت، الطبعة الثانية، 1979م ص 140
17. عبدالكريم فضيل الميار "قورينا في العصر الروماني"، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، الطبعة الأولى1973م ص 7
18. أبوبكر حامد المغربي"أحوال الليبيين في عهد أسرة باتوس الإغريقية" مجلة الطليعة، العدد الأول،1976 م
19. جود تشايلد "قورينا وأبولونيا"، دليل تاريخي ووصف عام لآثار

المدينتين، ت /إدارة البحوث الأثرية، الطبعة الأولى1970م ص142
20. عبداللطيف البرغوثي"التاريخ الليبي القديم منذ أقدم العصــور حتى الفتح العربي "دار صادر، بيروت/لبنان، الطبعة الأولى1970 م ص518
21. جود تشايلد، مرجع سابق ص126
22. أندريه لاروند (برقة في العصــر الهلينســتي) ترجمة:محمد عبدالكريم الوافي، منشــورات جامعة قاريونس، بنغازي/ليبيا، الطبعة الأولى 2002م ص ص 62/61 بتصرف.
23. Richard Goodchild, Cyrene and Apollonia, published by department of antiquities, Libyan arab republic 1970 p 110
24. عبدالســلام شــلوف (تاريخ مدينة ســوســة القديم على ضــوء تغير أسمائها)مجلة قاريونس العلمية، العدد الثاني/السنة الثانية، 1989م ص 94
25. Herodotus, IV,p.160
26. Arcesilaus III "Libya in history- historical conference" 16-23 march 1968 p 54 I. Noshy
27. فرنسوا شامو، مرجع سابق، ص199
28. Richard Goodchild . id . p11
29. فرنسوا شامو، مرجع سابق، ص200 بتصرف
30. إبراهيم نصحي، مرجع سابق، ص102
31. أندريه لاروند، مرجع سابق ص484
32. رجب عبدالحميد الأثرم، مرجع سابق، ص149
33. أندريه لاروند، مرجع سابق، ص ص 485/483
34. إبراهيم نصحي، مرجع سابق ص ص 82 /83 بتصرف.
35. عبدالســلام شــلوف (العقورية) مجلة المشــعل، الغدد 59 / 1987م ص41

36. راجع أندريه لاروند، مرجع سابق، 486

37. هنري و فريدرك بيتشي (الأخوان بيتشي والساحل الليبي 1822/1821م) ترجمة:الهادي مصطفى أبولقمة، منشورات جامعة قاريونيس، بنغازي/ليبيا الطبعة الأولى 1996م ص 240.

38. علي سالم الترك (مدينة توكرة – توخيرا القديمة مقدمة تاريخية ووصف عام لآثارها) منشورات الإدارة العامة للآثار- الجمهورية العربية الليبية، الطبعة الأولى 1972م 46/45 بتصرف.

39. إبراهيم نصحي، مرجع السابق، ص 110

40. Goodchild, R.G. Benghazi the story of a city , department of antiquities, cyren (shahat) , Cyrenaica. Libya, 2nd edition. Lamin hasnis press p 1

41. راجع إبراهيم نصحي، مرجع سابق، ص113.

42. عبداللطيف البرغوثي، مرجع سابق، ص ص 266 /267 بتصرف.

43. لمزيد من التفاصيل حول حدائق التفاح الذهبي الأسطورية راجع المأثرة الثانية عشرة في كتاب(أساطير اليونان) للدكتور عماد حاتم، منشورات الدار العربية للكتاب.

44. محمد مصطفى بازامة، بنغازي عبر التاريخ، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي/ ليبيا، الطبعة الأولى 1968م ص 144.

45. أندريه لاروند، مرجع سابق، ص468

46. أندريه لاروند، مرجع سابق، ص470

47. عبداللطيف البرغوثي، مرجع سابق، ص541 بتصرف

48. اليعقوبي، البلدان، تحقيق: محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، د.ت ص 181 ويراجع أيضا أندريه لاروند، مرجع سابق، هامش المترجم: الدكتور محمد عبد الكريم الوافي ص466.

49. محمد مصطفى بازامة، بنغازي عبر التاريخ، مرجع سابق، ص 229
50. يراجع: أندريه لاروند، مرجع سـابق، هامش الدكتور: محمد عبدالكريم الوافي، ص 466
51. يراجع هامش محمد مصطفى بازامة، بنغازي عبر التاريخ، مرجع سابق، ص ص 65/55
52. لمزيد من التفاصيل حول شخصية الإمام ابن غازي يراجع كتاب صدر حديثا بالمغرب بعنوان: "الإمام ابن غازي المكناسـي عالم القرويين وشـيخ الجماعة بفاس" للدكتور أحمد البوشـيخي، منشـورات مركز الأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، المملكة المغربية.
53. لانجلوا وسـينوبوس، المدخل إلى الدراسـات التاريخية، ترجمة: عبدالرحمن بدوي ضـمن كتاب النقد التاريخي، منشـورات دار النهضـة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى 1970م ص 33
54. محمد مصطفى بازامة، بنغازي عبر التاريخ، مرجع سابق، ص 85
55. جوناثان ري، وج.أو.أرمسـون،"الموسـوعة الفلسـفية المختصـرة"، ت: فؤاد كامل وآخرون، المركز القومي للترجمة، مصـر، الطبعة الأولى 2013م، ص32
56. عبدالرحمن بدوي، مرجع سابق ص54
57. عبدالرحمن بدوي، مرجع سابق ص56
58. يراجع: محاورات أفلاطون، ترجمة: زكي نجيب محمود، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى 2012م ص 125
59. عبدالرحمن بدوي، مرجع سابق، ص ص 45/44
60. يوحنا بطرس ثريغه، مرجع سابق، ص262.
61. جورج طرابيشـي، معجم الفلاسـفة، دار الطليعة، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة 2006م ص252

62. عبدالرحمن بدوي، مرجع سابق ص125

63. إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عصر البطالمة، الجزء الرابع، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة 1977م ص247

64. و.و. تارن" الحضارة الهلنستية"، ترجمة: عبدالعزيز توفيق جاويد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى 1966م، ص 293

65. إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عصر البطالمة، مرجع سابق، ج4 ص250

66. إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عصر البطالمة، مرجع سابق، ج4 ص251

67. لمزيد من التفاصيل عن كاليماخوس القوريني يراجع: عبد الله حسن المسلمي "كاليماخوس القوريني" شاعر الإسكندرية، منشورات الجامعة الليبية- بنغازي الطبعة الأولى،1972 م

68. غوليالم ناردوتشي، مرجع سابق ص 170

69. و.و. تارن، مرجع سابق، ص321

70. عبدالرحمن بدوي، تاريخ الفلسفة في ليبيا- كرنيادس القوريناني، الجزء الأول، منشورات الجامعة الليبية، دار صادر/بيروت، الطبعة الأولى 1970م ص 13

71. عبدالرحمن بدوي، مرجع سابق، ص6

72. يراجع: جورج طرابيشي، مرجع سابق ص 495.

73. يراجع: عبدالرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 14، وكذلك:غوليالم ناردوتشي، مرجع سابق ص167

74. يزعم داود حلاق أن القديس مرقس "ينحدر من أصل عربي خلال هجرة عربية إلى شمال إفريقيا قبل الفتح الإسلامي بقرون عديدة"، كما حاول (دون جدوى) أن ينسب كل ما يتصل بحياة هذا القديس تقريبا إلى

ليبيا بما فيها قصته مع الأسد. ومن المؤسف أنه لم يذكر الوثائق والمصادر التي استند عليها في هذا الشأن، وفي الواقع، أن القديس مرقس يهودي الأصل باعتراف المصادر المسيحية نفسها، وهذا واضح من اسمه العبري (يوحنا) الذي دعي به في موضعين من سفر أعمال الرسل، أما معجزة الأسد، (التي نشك في صحتها أساسا) لقد حدثت باتفاق المؤرخين في بلاد الشام، ولم تحدث في الجبل الأخضر، وإذا كان الركون إلى تأويل النصوص ولي عنقها من أجل الفخر وحسب، ألا يكفي فخرا أن القديس مرقس نفسه ولد في ليبيا؟. يراجع: البابا شنودة الثالث، ناظر الإله الإنجيلي (مرقس الرسول) القديس الشهيد، مطبعة الأنبا رويس (الأوفست) العباسية/ مصر، الطبعة الأولى 1968م ص18 ويراجع أيضا: داود حلاق"مرقس الإنجيلي" الهيئة العامة للسياحة، ليبيا، الطبعة الأولى 1993م ص 33 .

75. يراجع: داود حلاق"مرجع سابق ص 31

76. دواد حلاق، مرجع سابق، ص55

77. جاء في وثيقة للأنبا ساويرس (أسقف الأشمونين) وهو من رجال القرن العاشر الميلادي بشأن اضطهاد أسرة القديس مرقس في برقة وما حدث لأبيه وعمه، حيث " توالت عليهما المحن من متبربري هذه الجهات (يقصد برقة) ونزلت بهما النوازل من غارات الأثيوبيين فلم تبق عليهما ولم تذر، إذ سلبت أموالهما في عهد أغسطس (...) ولم يترك لهما شروى نقير" ويفهم من هذه الوثيقة : أن هجرة أسرة مرقس إلى فلسطين لم تكن بسبب اضطهاد الرومان، وإنما بسبب غارات البربر الأثيوبيين (ولعله يقصد الليبيين). يراجع: حبيب جرجس، وكامل جرجس "القديس مرقس الإنجيلي مؤسس الكنيسة المصرية"، الطبعة الأولى 1937م ص42.

78. علي فهمي خشيم"عن البابا شنودة والقديس مرقس" مجلة الفصول الأربعة، العدد 88 السنة الحادية والعشرون، 1999م ص 53.

79. البابا شنودة الثالث، مرجع سابق ص67

80. حبيب جرجس، وكامل جرجس، مرجع سابق ص26

81. البابا شنودة الثالث، مرجع سابق، ص111

82. عبدالباقي السيد عبدالهادي "الآريوسية في مصر البيزنطية" دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى 2016م ص17

83. عبدالباقي السيد، مرجع سابق، ص28

84. هـ.أ.فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ترجمة: محمد مصطفى زيادة، السيد الباز العريني، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الخامسة 1969م ص 18

85. جورج طرابيشي، مرجع سابق، ص10

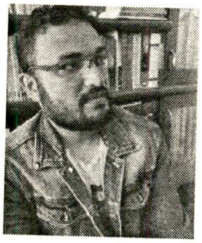
86. عبدالباقي السيد، مرجع سابق، 38

87. أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، الجزء الأول، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الأولى 1955م ص91.

88. أسد رستم، مرجع سابق، ص 148، ويراجع أيضا: أندريه لاروند، مرجع سابق ص322

89. مصطفى كمال عبدالعليم" دراسات في تاريخ ليبيا القديم"، منشورات الجامعة الليبية،بنغازي، الطبعة الأولى1966 م ص154

سيرة الكاتب



الاسم :حسن أبوبكر حامد المغربي

ولد في مدينة بنغازي 8 أغسطس 1982م

من مؤلفاته:

1- "فتنة الأدب وغواية النقد" منشــورات دار ســلمى، تطوان، المملكة المغربية، الطبعة الأولى عام 2017م

2- "مفكرة ليلى ونصوص أخرى" منشــورات دار تموز، دمشــق، ســوريا، الطبعة الأولى عام 2018م

3- "صــاحب الخيال" مســرحية في ثلاثة فصــول، منشــورات دار الجابر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان، بنغازي/ ليبيا الطبعة الأولى 2021م

4- "عندما يكون الابتلاء مصــدرا للفضــائل" (مؤلف جماعي) منشــورات جامعة محمد الأول بالمملكة المغربية، الطبعة الأولى 2020

5- "على متن الشــعر رســالة" (ديوان شــعر جماعي) منشــورات دار الأدباء للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر الطبعة الاولى 2019م

- المؤهل العلمي / ليســانس آداب – جامعة قاريونس، قســم التاريخ عام 2005م
- مدير تحرير مجلة رؤى الثقافية
- عضــو لجنة تحكيم مجلة جيل للدراســات الأدبية والفكرية / لبنان 2015- 2021م

المشاركات الثقافية والإعلامية

- المشـــاركة في عديد من المجلات والصـــحف المحلية والعربية مثل : مجلة المســـتقبل العربي، مجلة الرافد الإمارتية، مجلة ذوات المغربية، مجلة الهلال المصـرية، مجلة إبداع المصـرية، مجلة ميريت المصـرية، مجلة الجديد اللندنية، مجلة نزوى العُمانية، مجلة رؤية العراقية، مجلة الحياة التونســـية، مجلة فضـاءات الليبية، مجلة رؤى الثقافية الليبية، مجلة الفصـول الأربعة الليبية، مجلة الليبي، صحيفة العرب اللندنية، صحيفة القدس العربي، صحيفة البيان المغربية، صحيفة الجمهورية الجزائرية، صحيفة كواليس الجزائرية، صحيفة أخبار الأدب المصرية، صـحيفة الأسبوع الأدبي السورية، صـحيفة النهار الكويتية، صـحيفة المراقب العراقية، صـحيفة المستقبل العراقية، صـحيفة العراقي، صـحيفة النهار العراقية، صَـــحيفة الكلمة الحرة العراقية، صـــحيفة قاريونس، صـــحيفة أخبار بنغازي، صحيفة فسانيا، صحيفة صدى المستقبل، صحيفة برنيق.
- المشـــاركة في الندوات المحلية والعربية في مجال الســـرديات والنقد الأدبي (مصر، تونس، المغرب، ليبيا).
- إعداد برامج حول التراث العربي في الإذاعات المحلية.
- كتب عن إنتاجه الأدبي نقاد من ليبيا ومصـــر والمغرب والعراق والأردن وفلسطين أمثال: د.فريد امضشو، د. سعيد بوعيطة، عزيز العرباوي، د.نبيلة سالم الغرياني، منصور بوشناف، حنان بيروتي، د.ميادة أنور الصعيدي، د.وليد جاسم الزبيدي، د. محمد عبدالرضا شياع، د.حيدر علي سلامة.

المحتويات

من مقدمة المؤلف

في هذا الكتاب قراءة في كتاب (عمر المختار الحقيقة المغيبة) لصاحبه يوسف عبدالهادي الحبوش، وتصحيح ما جاء فيه من مغالطات تاريخية.

قراءة في مفهوم المجتمع المدني بين الإسلام والحداثة، مع التطرق موضوعة الحداثة والمجتمع المدني في ليبيا، مشيرا إلى جملة من الإشكالات الثقافية والمعرفية المتمثلة في إعادة إنتاج المنظومة القيمية التقليدية المرتبطة بالبَدونة والقبلية باعتبارهما قوة فاعلة في جميع نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية.

قراءة في كتاب (عندما يكون الابتلاء مصدرا للفضائل) وهو كتاب جماعي من منشورات جامعة محمد الأول المغربية. فقد انصرفت إلى تقصي تاريخ الجوائح والأولبئة الفتاكة في ليبيا منذ العصور القديمة إلى العصر الحديث، والإلمام بعلائقها المتشابكة، مما اقتضى منهجية متنوعة الروافد، كالاستعانة بالوثائق، عل الرغم من ندرتها ولتفرقها بين المصادر التاريخية، ولاستنطاق كتب الرحالة والقناصل الأجانب الذين زاروا ليبيا في فترات تاريخية متباينة.

مناقشة ما جاء في كتاب (الأمازيغ عبر التاريخ - نظرة موجزة في الأصول والهوية) لمؤلفه الدكتور/ العربي عقون. نوهت فيه إلى جملة من الأغلاط التاريخية التي وقع فيها الباحث مثل الادعاء بأمازيغية القبائل الليبية زمن الفراعنة، واحتلال شيشنق لمصر ولمسألة رأس السنة الأمازيغية، ولعلاقة البربر بالمسلمين أيام الفتوحات الإسلامية، ولحكاية الهجرة الهلالية ولاستعراب دول المغرب.

وأخيرا دراسة تاريخية حول المستعمرات الاغريقية في ليبيا ولأهم معالمها التاريخية. أوضحتُ فيها أن معرفة الإغريق لليبيا كانت شبه مجهولة، ثم تعقبت بالدراسة والتحليل الأركيولوجي المدن اليونانية الخمسة المعروفة بـ(البنتابولس) معززا كلامي بإيراد أهم المعالم الأثرية في كل مدينة. ختامًا، إن هذا الكتاب، هو محاولة متواضعة لا تدعي الكمال، وللقد ألتزمتُ فيه (دون ادعاء) باستشارة المصادر الوثيقة والرجوع إليها حسب المنهجية المتبعة، مما تطلب كثيرًا من الجهد، ذلك أن الكتابة التاريخية مهمة شاقة مثل العمل في المناجم بحسب تعبير إيمانويل لورولا، وأسأل الله العلي القدير أن يوفقني إل إحقاق الحق ولإبطال الباطل، ولآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين

ISBN 978-9-95-992686-9
9 789959 926869 >

مكتبة الكون
طرابلس - القاهرة

mactabat@alkononline.com
00218.92.5581491
002.0155.3004878